أرض يعقوب

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٩/٢٢٨٤٨

بطاقة فهرسة

عيد، هاني

أرض يعقوب: رواية/ هاني عيد، ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٩

٢٦٤ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ١-١٩٩-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١ - القصص العربية

أ - العنوان

٨١٣

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر ـ القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

مروة صلاح

التدقيق اللغوي

خالد رجب عواد

التنسيق الداخلي

أحمد البسيوني

أرض يعقوب

رواية

د. هاني عيد

إهداء

إلى أبي ...أيضًا

وأغربُ الغرباء مَن صار غريبًا في وطنه، وأبعدُ البُعداء مَن كان بعيدًا في محلّ قُربه، الغريبُ مَن إذا قال لم يسمعوا قوله، وإذا رأوه لم يدوروا حوله، إذا تنفّس أحرقَه الأسى والأسف، وإنْ كتم أكمده الحزن واللهف.

أبو حيان التوحيدي

الفصل الأول

«إنه في يوم الإثنين الموافق الثاني عشر من أكتوبر من عام ١٩٩٢ قررت النيابة حبس المتهم/ «**صابر محمد جاب الله**» أربعه أيام على ذمة التحقيق».

عقرب الساعة -التي تتوسط الحائط-يئن بانتظام، يخترق الصمت المعلن إلا من حفيف وريقات الكاتب، وطرقات حذاء وكيل النيابة فوق الأرضية الصلبة، كأنها صرخات تحذير غامضة، أتبعها بنقرات متتابعة فوق زجاج مكتبه، صوتها مكتسح النبرة، ودقات قلب عم «**صابر**» تصرخ كسفينة تغادر المرفأ، تطلق النداء الأخير، الصفير يخترق الضلوع، يحرق انسجته، يتوقف عند بوابة الجمجمة، يطرقها بشدة، يوقظ كابوسه ويفزع هدأته، رأسه الأشيب ثقلت همًّا وكدرًا، قبل أن تتدلى كمصلوب، تمنى سلفًا لو فارق الدنيا لا ظالم ولا مظلوم، واليوم يسحق الظلم شيبته، والعجز غصة حنظل تسد جوفه.

ترقرقت دمعة ساخنة، سقطت بفعل الجاذبية والذهول، حاول أن يلاحقها بطرف الملحفة، تسربت في تيه ممتد عبر السنون، بين ملامح خفتها التجاعيد، قبل أن يرفع رقبته ليواجه نظرة وكيل النيابة المحايدة، التي تقاوم

الرضوخ والميل عما أتاه من ادعاء، وإن أتت نبرته الدافئة جامعة للأسف والتعطف، ومدفوعة لأداء الواجب، اضطراب بان في حشرجة صوته، أطل بعدما اكتشف أثر الغمامة في عينين جاوزتا العقد السادس بقليل، أربد وجه الشيخ بعد نزف كبريائه الذبيحة، وحرمه البكاء، فتشنجت عضلات وجهه لحظات، ثم خضعت لا حول لها ولا قوة.

رق قلب وكيل النيابة لحاله، وهاجس ما يجول بخاطره، بعدما فتش في سيرة الرجل، يحدس أنه بريء، خبراته المتراكمة في التعامل مع عالم الجريمة وعامليه ورواده وزائريه تقف في صالح الرجل، وأن اتهامه بالسرقة ما هو إلا محض افتراء، دعم حدسه شهادة الشهود التي اجتمعت في صف الرجل الذي يحرس العقار منذ سنين، زعموا أنه كان خلالها طيعًا، أمينًا، صادقًا، موثوقًا، حتى أولاده الذين تربوا بينهم، وعملوا في مساعدة أبيهم كانوا مثله، فقد تولي الأصغر «**مجدي**» أعمال الكراج وتنظيف السيارات، بينما بقي الأكبر «**خلف**» في مساعدة الأب في تلبية طلبات السكان والاعتناء بنظافة وتهيئة البناية مع عمله كعامل نظافة في مستشفى «**هليوبوليس**»، بينما بقيت ابنته معهم في غرفتهم المحشورة تحت الدرج، حتي يأتيها من يستحقها، ابنته «**زبيدة**» جميلة ويخشى عليها من غدر الذئاب، كانت تساعد بعض النسوة في البناية والبنايات المجاورة، حتى أتته يومًا تبكي، إنها لا تريد خدمة البيوت، لم يعرف «**خلف**» وقتها من ضايقتها، ولكنه أيدها في قرارها.

كان شارع « **الحجاز**» كله يعرف عم «**صابر جاب الله**» ويشهد له؛ ناوله وكيل النيابة كوب الماء الذي أمامه، شرب منه رشفتين بشفتين مشققتين ظامئتين، ويد مرتعشة، ضغط وكيل النيابة على الزر المجاور له ودخل العسكري ليقود «**عم صابر**» إلى الزنزانة، تحرك الأخير ببطء يرفل في جلبابه الرمادي المتسخ ويمسح بطرف كمه الواسع عرق بارد تفصد من مسامه، استقبله ولديه بجزع خارج الغرفة، سألا عما حدث أجابهم بحروف متثاقلة، وكلمات تائهة، بلغاه توكيلهم لمحامٍ كي يدافع عنه، وأن جارهم الأستاذ «**أمير أبو ستيت**» قد تكفل بحسابه، تمتم الأب:

«**إن الله حسبه ونعم الوكيل**».

لم يسمعوه، ربما من جلبة الساحة، وفوضى الكلمات من حولهم، حذرهم بكلمات حرص أن تبدو حاسمة، لا تهور يضيع الحق، ولا يزيد الطين بلة، كظم الصغير ثورته، وربت الكبير على كتف أبيه مطمئنًا، ومؤكدًا أنهم استمعوا إلى نصائح السكان القدامى في العمارة باجتناب الساكن الجديد الذي اتهمه، بسرقة جواهر من شقته، ولن تصيبه جهالة الفاسق وإن أتى بألف نبأ.

ألقى «**عم صابر**» نظرة على «**حمودة الشاذلي**» الذي بقي بينهم صامتًا، عاقدًا ذراعيه أمام صدره، صمته لا يخفي تأثرًا، يقاوم عجزه في مساعدة رجل يجله ويقدره.

«**حمودة الشاذلي**» المجند حارس كنيسة «**مار جرجس**» المجاورة، لم يتركه هذا الشاب، اقترب منه «**حمودة**» وربت على كتفه بمودة، فك عقده ذراعيه، وفك أسر لسانه وهمس إلى العسكري بكلمات، يبدو أنه يعرفه مسبقًا لأن «**حمودة**» لم يأتِ بزيه الرسمي، أومأ العسكري برأسه تفهما قبل أن يسحب ذراع «**عم صابر**» برفق، متجاوزًا أيديهم المتشبثة بأبيهم الشيخ، ولكنهم تركوه في استسلام بعد نظرات «**حمودة**» المطمئنة، سحبه العسكري إلى الزنزانة ليختفي «**عم صابر**» خلف القضبان وفي قلبه حسرة وأسى.

لاحظ «**حمودة**» النظرة البائسة في أعينهم، دارت عيناه في المكان، الذي زخر بحركة دائبة، تبودلت بينهم كلمات قليلة، فهموا بعدها أن أبيهم صار بمأمن من مضايقة السجناء فقد أوصى بها «**حمودة**» زميله، هدأت كلمات «**حمودة**» من روعهم، حاول طمأنتهم وصرفهم، فلم يعد لوجودهم داعي في تلك الساعة، يقدر « **حمودة**» غضبهم وقلقهم ونفوسهم المشحونة بالحنق وأيديهم المكبلة بالعجز، يعرف أنه مهما يتألم من أجل الشيخ الطيب الذي عرفه منذ سنة، واعتبره مثل أبيه، إلا أن الألم في نفس ولديه مضاعف، وفي نفس «**زبيدة**» وقع عظيم.

اتخذ شارع «**الحجاز**» سبيلًا لعودته وقد بسطت الشمس سطوتها على قلب السماء سطوة «**زبيدة**» على قلبه.

مسكينة «**زبيدة**»، لم تتحمل الصدمة، ذهبت بقلبه إلى «**الفيوم**»، عند خالتها، حتى لا يجهل عليها أحد، وهي لا عار عليها ولا سبة، عندما تصبح زوجته سيعوضها عن كل مر، تتوج ملكة على بيتها، معظمة المكانة، لم يتبق سوى شهور قليلة وتنتهي خدمته، أما العمل فلقد كوَّن علاقات جيدة هنا مع الجميع لن يبقى سوى السكن، عمه «**عوض**» وعده بتدبير الأمر، لا يعرف كيف، ولكنه يثق به، كانت الأفكار تعربد في رأسه وهو يرفع يده بطريقة إليه كلما مر أمام من يعرفه حتى وجد نفسه أمام عم «**بشوي**» بواب مدرسة «**سانت فاتيما**» الذي ينتظره بصبر نافد كي يطمئن على صديقه «**عم صابر**»، ألف صحبته لأكثر من عشر سنوات ، انتقل إليه الأسى والأسف بعد كلمات «**حمودة**» لم يلحظ عم « **بشوي**» الوقت الذي مر من بين يديه، ومع تنهيد «**حمودة**» التي ترجمها إلى:

«**فليفعل الله ما يشاء**».

تذكر «**بشوي**» موعد الانصراف، اعتذر منه، وقبل أن يسمع توبيخ مديرة المدرسة ولومها، انطلق ليعلن انتهاء اليوم الدراسي، ولم تكن سوى دقائق معدودة، إلا وتمخضت البوابة عن عشرات من الطالبات انطلقن من فج عميق، تناثروا كقبيلة نمل مذعورة، انتشروا في الأرض، وسدوا الأفق.

بينما تابع «**حمودة**» طريقه تسبقه أنف معقوف كمنقار نسر تناثرت من مسامها حبات عرق، تلمع في ضوء الشمس.

زحام شارع «**الحجاز**» كان أمرًا طبيعيًّا في تلك الساعة، مما ألجم خطوات «**حمودة**» المتسارعة كما حرص، وقد آثر أن يتخذ من الطريق المقابل للعمارة مسلكًا، ورغمًا عنه حانت منه التفاتة تلقائية تواقة، تترصد موضع مقعد معدني صدئ على ميمنة البناية، يخلو من حضور عم «**صابر**»، مجافيًا مدخل مطعم « **فاني باني**» الذي تحتل بوابته الدور الأرضي.

تمتم ساخطًا متوعدًا: من افترى على الرجل كذبا، اقترب من الحاجز الحجري المجاور لبوابة الكنيسة، تابع بعينيه مدخل البناية التي كادت تختفي من تهافت الطالبات، إذ تجمع بعضهن في شبه حلقات، بعثرن الثرثرة بطول الشارع.

لم يلحظ «**شيماء**» وثلة من صديقاتها وحوارهن الذي يشبه التفاوض، حتى هزت رأسها متفهمة، وجمعت منهن مجموعة من النقود، وراجعت معهن الطلبات للمرة الأخيرة، بعد أن قطعن كيلو متر كامل من الجدال الأنثوي العبثي، الموروث من جينات التاء المربوطة، حسمت أمرها، واستعدت أن تعبر إلى الرصيف المقابل ومطعم «**فاني باني**» لجلب الشطائر المطلوبة بعد يوم طويل، كانت ترتب العملات النقدية وهي تنظر بين يديها حتى اصطدمت بهذا الشاب الذي يبدو على ملامحه النحيفة علامات التوتر، بادر واعتذر منها وعيناه معلقتان على المطعم على الرصيف المقابل، وبابه الزجاجي العاكس، وهمت أن ترد الاعتذار، التفت نحوها لحظات، وهم أن

يحسم الحديث بعبارة أخيرة، لولا هزة عنيفة تبعها انهيار كامل ودوي كنفير وزمجرة وثقل هائل يرتطم بأرض لم تأخذ حذرها، ومعالم ركمها غبار كثيف وصراخ من وجوه اختفت، منها من قضى نحبه، ومنها من ينتظر.

***

«هذا وقد وصل السيد الرئيس إلى أرض الوطن بسلامة الله بعد أن قطع زيارته إلى جمهورية الصين الشعبية بعد وقوع الزلزال المدمر الذي أصاب البلاد عصر أمس، وقد تلقى سيادته برقيات التعازي و....».

أغلق «**عوض الشاذلي**» التلفاز وهو يرتشف الرشفة الأخيرة من كوب الشاي الذي أمامه، وأحس بلسعة الفلتر بعدما أحرقت سيجارته تبغها.

فاته الزلزال الذي ضرب قريته «**أبي حماد**» منذ ثمانية عشر عامًا، صادف وقتها زيارته الأولى للقاهرة وتحديدًا لمستشفى الحوض المرصود، يتذكر رائحة الرطوبة بين جدرانها التي خط عليها بالأحمر والأسود عبارات النصر المجيد، عاد وقتها حزينًا لا يبالي بما حدث من رهبة وفزع واضطراب، يكفيه الضجة التي اشتعلت في رأسه، والحزن الذي أحرق روحه، عندما علم حقيقة مرضه.

لم يقاوم تثاؤبه، أغلق ما استطاع من فمه مستخدمًا كف يده أو ما تبقى منها على وجه أدق، توسد فراشه، حدق بعينين زائغتين إلى السقف والجدران،

وراقب أطراف مروحة السقف التي تمايلت في بطء، تزأر بصرير مزعج، لم يرقبه في الأوقات العادية، ولكن ما حدث بالأمس جعله يدقق في كل حركة، يترقب، مد يده على امتدادها ليتأكد من إغلاق مفتاحها ثانية، لم يكتشف التيار البارد المتدفق من كوة صغيرة بين ضفتي النافذة الوحيدة المطلة على الشارع الذي لم يحرص على إغلاقها بإحكام، ربما استعدادا لسماع أي إنذار أو تحذير يخترق نومه الثقيل، لا يخشى السرقة فلم يكن في شقته المتواضعة ما يخاف عليه فهو يعيش وحيدًا في شقته بالدور الأرضي لا زوجة لديه ولا ولد، بل يخشى من المضايقات التي تحدث لبعض سكان الطابق الأرضي كما حدث في البناية المجاورة عندما فتح الشباك «**أشرف الخواجة**» أحد أشقياء المنطقة وألقى صاروخًا صغيرًا على «**طه**» العطار وزوجته الحامل وروعه، لقد كان مخمورًا وأراد اللهو بعض الشيء، وكاد «**طه**» يرتكب كبري حماقاته ويواجه بعدما قفزت زوجته من مكانها وهي الممنوعة من الحركة في شهرها الأخير، وربما فرصتها الأخيرة في الحمل.

ومرة أخرى عندما قفز على شقة الحاجة أم «**نادية**» وأصر أن يدخل دورة المياه، عوائق لم يفلت منها سوى من أحال شقته إلى سجن وشيد القضبان فوق الشباك وحرم نفسه وأولاده من إطلالة على الحياة خارج حدود الستين متر التي يعيش فيها.

أغمض «**عوض**» عينيه وحاول أن يرتاح قليلًا ويخلد إلى النوم، ولكن لم يغمض له جفن، لقد طار الرقاد، وعاقره إحساس الوحدة، ليست المرة الأولى، ولن تكون الأخيرة، لقد ذهبت أيامه هدرًا، لا زرع فيها ولا حصد، ترك أهله وتركوه، اللهم إلا بقية من وصل، متمثلة في «**حمودة**» ابن أخيه، الذي انشغل به عمن دونه، ولكنه كغيره من الشباب، الدنيا تمد كفيها إليه، كقابلة تنتظر الوليد، غدًا يتزوج وينجب وينشغل عنه، ويصبح له شأن يغنيه.

الوحدة مطرقة قاسية تمكنت منه، يأكل وحده، ينام وحده، يتألم وحده، يخشى أن يداهمه الموت وحده، اكتشف تصدع قلبه منذ شهور، أطل الدكتور «**يحيى**» على رسم القلب والأشعة، أخبره متأسفًا أن قلبه يعاني، سألته «**زمزم**» الممرضة مترددة:

لماذا مر عمره دون زواج؟

ابتسم مما زادها والطبيب حرجًا، فقد كانت الأسباب ظاهرة وتعيها عين واعية، ولكنه أجابها وألم الدنيا يقطر في صوته:

« **إن مريض الجذام وإن برئ تفر منه الناس**».

رقت وقتها لحاله وطلبت منه التين الشوكي الذي تحبه أو تين الفراولة الذي لا يوجد إلا في «**أبي زعبل**»، ابتسم وقتها ومنحها ما أرادت.

حادث نفسه:

من كانت ترضى به في تلك الظروف ومرضه الذي لم يألفه أحد؟

نعم لقد برئ منه ولكن آثاره دامت قاسية، يشعر بنفور الناس وأعراضهم عنه، وخطوات تسير القهقرى كلما عانقت ملامحه وأصابعه المبتورة، يدهم لا تعانق كفه أو ما تبقى منه إلا مرتعشة مذعورة نافرة، هل من امرأة ترضى به؟

تعاشره، تقاسمه فراشه، تلتحم في جسده؟

وأي ميزة تفرقه عن غيره؟

لا كان صاحب مال أو أرض.

توقف عن الركض الهستيري في تلك المتاهة، ما بقي أقل حتما مما فات، العمر يمر، نعم لقد كفاه ابن أخيه «**حمودة**» إحساس الأبوة المنقوص فهو لم يبتعد عنه قط، ولكن يخالجه إحساس خفي بين الفينة والفينة، إنه ليس أبًا حقيقيًّا، ربما احتاج لهذا الإحساس يومًا.

تنهد بعدما التقت عيناه بهاتين العينين اللتين شق لمعانهما الظلمة، ونيس صامت خفف من وطأ وحدته، وجده تحت تبه رمال صغيرة، هناك في صحراء «**أبو زعبل**»، تقدم منه، بدا وحيدًا، خائفًا، مثله تمامًا، استكان في كفه

أو ما تبقى، وجاء شوكه الصغير بردًا وسلامًا، لانت له الستة آلاف شوكة راضية، وكأنها سكنت لدفء روحه الممتدة حتى أطرافه، طالع الدهشة التي علت ملامح السيدة « **عفاف**» كبيرة الممرضات عندما سألها:

«**أي طعام يفضله القنفذ؟**»

استرق «**عوض الشاذلي**» السمع إلى الهمهمات الخافتة التي تأتي عبر النافذة، لقد اجتمع البعض وأشعلوا نارًا لعلها تؤنس وحشتهم، جمعتهم الثرثرة، وحكايات الرهبة الأولى، واستدعاء ما وقعت عليه أعينهم وقت الزلزلة، وكأنه يوم الحشر، جلسوا يقتلون الخوف الذي في الصدور بعدما انخلعت قلوبهم بالأمس، وتزعزعت الأبدان، ألقى الزلزال الذعر في القلوب المنشغلة، ذكرهم أن الموت قريب، والقبر أدنى من رمية حجر.

لم يرهم «**عوض**» فقد كان في عمله، ولكنه خاف.

نعم خاف.

الخوف واحد، والبشر في الخوف على حياتهم سواسية، تلمس اثار الفزع في وجوه جيرانه بعد رواحه في المساء، لم يكلمهم كعادته ربما زاد فزعهم عندما رأوه، ملامحه القاسية المريضة تزيدهم رهبة ونفورًا، تركهم ودخل إلى شقته وسهروا ليلهم كالليلة في الشارع يخشى الجميع أن تنطبق الجدران على رأسه رآهم متراصين في صلاة العشاء، خاشعين، خانعين، داعين الله أن

يطيعوه ما استطاعوا، راجين أن تمر الغمة على الأمة بردًا وسلامًا، ذكرهم الشيخ «**الضوي**» ب:

«**إذا زلزلت الأرض زلزالها**».

لم ير معظمهم في صلاة اليوم.

ارتج الجدار فجأة واهتزت المروحة، قفز من مكانه، هل هذه هي التوابع التي تحدثوا عنها؟

أم هل هو زلزال جديد؟

استعد لارتداء جلبابه وتأهب للخروج، ذكر الله كثيرًا ودعا بحسن الخاتمة، ولكن لا صراخ يأتي من الخارج، كما توقع، فقط صوت سيارة نقل كبيرة توقفت امام البناية، اكتشف «**عوض**» أن ثقلها هو سبب الاهتزاز وليس زلزال آخر، وقبل أن يعود إلى فراشه سمع صوتًا يهمهم بكلمات غير مفهومة وميز صوت «**عبده**» «**أبو إسلام**»:

أيوه هو ده بلوك ٩٢

***

تمكنت السيدة «**نجاة**» من إعداد مكان للنوم يناسب الجميع مؤقتا، بعد أن كومت كل ما تم جمعه في غرفتين، الا من مساحة صغيرة فرشت ملاءه

ووسادتين لها ولابنتها «**تحرير**» بينما في الصالة الصغيرة انتخبت مساحة أكبر للأربعة رجال، المتهالكين كبقايا جيش منهزم، بينما غادرت «**تحرير**» للتأكد من وجود المياه في المطبخ والحمام.

عرضت «**نجاة**» في غير الحاح أن يتناولوا لقيمات بسيطة من الخبز والجبن كانوا في الثلاجة، ولكنهم رفضوا تابعت أجفانهم المغمضة وأنفاسهم المتلاحقة خاصة «**حمزة**» الصغير الذي تحمل العبء الأكبر، لم يغب عنهم غير أخيها «**سيد**» الذي تعلل باستنشاق كمية من الهواء واكتشاف المكان الجديد، حاولت أن تثنيه فقد قارب طلوع الفجر وأنهم غرباء عن المنطقة، ولكنه غمز لها بإشارة خفية، فهمت أنه بصدد شرب سيجارة بعيدا عن عم «**زينهم**»– زوجها – بقية من خصال طيبة حفظها أخيها «**سيد**» لزوج أخته الذي أشرف على تربيته منذ أن مات والداه، عده «**زينهم**» من أولاده وصار جزءًا منهم لا ينفصل .

آلام المفاصل تداهمها، كالعادة، ولكن هذا الصمت المطبق الذي يعتنقه ابنها الأكبر «**علي**» منذ أحداث الأمس هو على غير العادة.

يبعث لقلبها رسائل حزينة غامضة، لم تسنح لها الأحداث المتسارعة سؤاله، وحجم الكارثة ووقعها أكبر من احتمال الكل، بين عشية وضحاها تبدل الحال، غريزتها تعتقد تعرضه لأمر جلل، فهي لم تسمع صوته منذ أن

خرج إلى الجامعة صباح الأمس، كان مضطربًا بعض الشيء متبدل الأحوال في الأيام القليلة الماضية، ولكنها لم تفاتحه في شيء، ربما ظنت أنها المشكلات الطبيعية في الدراسة، أو إرهاق مذاكرة السنة الأخيرة، أو ربما مشروع التخرج الذي بدأ في إعداده، ولكن ماذا جدَّ؟

لا تعرف، وهذا ما يقلقها، هل وجلها المبالغ فيه محض خيال؟

ربما.

هل تتابع أولادها أكثر مما ينبغي؟

مؤكد.

لم تعد الدنيا كما كانت، لا أمان دائم في هذا العالم.

تتذكر هلعها عندما سمعت عن فتاة «**العتبة**» وما حدث لها في حافلة النقل العام، سطا عليها شيطان الريبة، ودت منع «**تحرير**» من الذهاب إلى معهد « **الروضة**» مخافة أن تتعرض لأذى، وقفت وقتها ابتسامة «**زينهم**» على حد التهكم وداعبها:

إن مخها كوكب دائم الدوران لا يهدأ ولا يمل، يضخم الأمور، ويبحث عن المشكلات وأنها أن لم تجد ما تشغلها، تخترع أزمات غير موجودة لتبدأ في حلها، فهي تطبق ضريبة القلق في الرغد والجفاء، وفي الأفراح والأتراح.

ربما كان على حق.

لقد بدأ شخير «**حمزة**» في الانطلاق، دائمًا هو أول المغادرين إلى العالم المواز، بينما تغير وجه «**زينهم**» وهو يغرس رأسه بين ذراعيه وعلى قسماته هم الدنيا، انسحب لون وجه إلى الشحوب، ما أثقل الهموم على كتفيه! يغمض عينيه فقط، تعرفه عندما يغشاه النوم، يبدأ جرش أسنانه في الانطلاق، اعتادت على هذا الصوت المميز منذ زواجها، لم يتخل عن هذه العادة، حمدت الله أن نوبات الفزع التي كانت تداهمه في أثناء نومه في سنين زواجهم الأولى قد انتهت، فلقد كاد قلبها يتوقف يومًا ما، صارحته وقتها في الصباح الباكر، رد بحروف موجزة وعلامات الحزن كست روحه:

إنها الحرب.

لم يزد ولم تعقب قط.

حاولت أن تتقدم خطوتين تواسي زوجها وتطمئنه-كما تفعل كل مرة في أي أزمة-ولكنها تسمرت في مكانها، الحمل أثقل مما ينبغي، عليه وعليها، لا تعرف ما تخبأه الأيام لهم، تخشى أن يكون القادم أصعب، لا تخشى فقط بل تعتقد، حاولت أن تلقي بالفكرة خارج مدار ذهنها المكدود، وتغالب هواجس الظن التي تمددت كفقاعة في خلدها، أجالت بصرها في المكان والشقة الجديدة، شقة ابنتها المجهزة لزواجها، ظنت أنها لن تطأ أرضها إلا لنصب أثاث «**تحرير**» التي ترقد على بعد قدم.

ربما رأت نفسها في يوم زفاف ابنتها وهي تودعها باكية.

وتطلق زغاريد الفرح في يوم الصباحية.

شهرة زغرودة «**نجاة**» عمت أرض «**يعقوب**» كلها، يقال وهي صغيرة لحست بطن ضفدعة، كانت تلبي النداء في أي مرة، ليعم الإشهار والإعلان، ما بالك بزغرودة لبنتها الوحيدة! مؤكد ستخترق الأفق، ولكن هل تصل إلى هناك، إلى «**أرض يعقوب**»؟

لم تتخيل أن تصبح شقة ابنتها المستقبلية هي المأوي المؤقت لها ولعائلتها بعد أن دمر الزلزال كل شيء، وأصبح منزلهم القديم المتداع على وشك السقوط، فروا بما استطاعوا حمله إلى شقة بنتهم المرتقبة، التي امتلكها «**علاء فوزي**» ابن عم «**تحرير**» وخطيبها الذي يعمل في ليبيا، وقد منحها المعلم «**فوزي**» أخاه بعد تردد، ربما خشي أن يصحبه إلى إحدى شقق عمارته الجديدة في منطقة «**صقر قريش**»، وقبل أن يمنح أخاه شقة ابنه، حمدت ربها أنها لم تبيت في الشارع ثانية بعد ليلة أمس، بعد أن افترش الجميع أرض شارع «**مهدلي**» متعلقة أنظارهم بالسماء تدعو الله خشية المجهول، لم يطرف لها جفن وقتها، احتضنت ابنتها الجزعة وتمتمت فقط بالدعاء.

ولم تهدأ وتذرها الظنون إلا عندما عاد «**زينهم**» من عند أخيه بمفتاح الشقة، لم تُخفِ غضبها وتذمرها، توقعت ألا يتركهم «**فوزي**» هكذا، وأن

يصر أن يصحبهم إلى بيته ولكنه آثر ألا يغضب زوجتيه، وربما خشي أن تطول المدة أكثر مما ينبغي، فتقيد حريته، خاصة أنه يعرف أن أخاه لا يملك من أمره شيئًا.

فتحت الباب ل «**سيد**» العائد للتو ورائحة التبغ المحروق تسبقه، تنحنح وهو يحشر نفسه بين «**حمزة**» الغارق في النوم، و«**علي**» الغارق في عالمه المجهول، لمحت شبح ابتسامة غير مناسبة على شفتي أخيها، قبل أن يغمض عينيه وينام لأول مرة بلا شخير.

توضأت كي تصلي المغرب والعشاء، وأغلقت النور الخافت في غرفة المعيشة عليهم، ثم عادت إلى غرفتها المؤقتة، تقلب وجهها في السماء بحثًا عن القبلة، لم تتمكن من إدراك إحداثيات المكان، فصلت كما وقفت واحتسبت أجرها على الله.

***

لم ينم ليلته، على الرغم من تواصل ساعات اليقظة إلى ما يقرب من ثمانية وأربعين ساعة منذ فجر الإثنين، وها هو فجر الأربعاء يلوح في الأفق، فاق أنين عظامه المطحونة حد التحمل، ولكن دوي ذهنه المتهالك اقتحم إدراكه، يلح عليه بسؤال واحد: وماذا بعد؟

لم يشعر «**زينهم السمان**» بهذه الحسرة وهذا الألم منذ خمس وعشرين سنة، وتحديدًا عندما عاد من «**أبو عجيلة**» في «**سيناء**» حتى شاطئ القناة، قاطعًا

كل تلك المسافة على قدميه، مفقود الأمل، مفتقر الأصدقاء، مهزومًا، مصابًا بجرح سطحي يرقب نزفه، بينما جرح روحه عميق الغور، قاصم الأثر.

نفس الحسرة رصدها تتضاعف في نفسه، عندما انطلق عاري القدمين من مسجد سيدي «**على زين العابدين**» وحتى بيته في شارع «**مهدلي**» بأرض «**يعقوب**» لقد اهتز المسجد القديم، وأحد المريدين بعمامته الخضراء ينشد:

يا سائلي أينَ حلَّ الجـودُ والكـرمُ

عندي بيـانٌ إذا طُلاّبـهُ قدمـوا

تذكر الفزع الذي ناله وهو يصلي ركعتي السنة، خلف العقد الأخير المتبقي على يسار القبلة، سمع دوي صراخ هائل النذير، والكل في المسجد يتمتم:

« لا إله الا الله».

ثم يعدو خارجًا، تردد لحظة قبل حسم أمره، وغريزة البقاء تدفعه دفعًا، متجاوزًا من بقي من المريدين الذين تشبثوا بالضريح، متعلقين بحديده المزخرف، وصاحب العمامة الخضراء يصرخ:

هذا ابنُ خيـرِ عبـادِ اللهِ كلَّهـمُ

هذا التّقيُّ النَّقـيُّ الطّاهـرُ العلـمُ

ظنوا أنه انهيار للمسجد فقط، حقًّا، فلم تزره يد التجديد والترميم من مائتي عام، إنها يد الإهمال التي طالت كل شيء، حتى ما تبقى من أثر لأولياء الله، تأهب أن يلقي نظرة أخيرة على مشهد الإمام، ولكن صدمه الصراخ المدوي في كل مكان وصيحة:

«**زلزال**».

حدق عينيه في ذهول بعد أن توقف عن العدو، النسوة اللاتي يبعن حول المذبح القديم تركن بضاعتهن، والبعض يتعثر في بقع الدم المتخثر المتناثر من الذبائح، لاحظ الغبار الكثيف من حوله، وكأنها الطامة الكبرى، تذكر وقتئذ صاحبته وبنيه، اندفع بفعل الجمع إلى شارع «**ابن يزيد**» انطلق وقد ملكته الظنون، وائتمرت عليه الافتراضات، رأى نفسه مكبًّا على وجهه في صحراء «**سيناء**» المترامية، وكأن كوة زمنية تفتقت، بين الماضي والحاضر، عبرت فيها روحه في الاتجاهين، رأى نفسه على طريق يفتقد النهاية، والجثث متناثرة حوله، حقيقة واحدة، فوق رمال صبغتها الأباطيل، مشدوهة من هول المفاجأة، ذاهلة من جسامة العبث، مقتولة بلا لحد، سائلة بلا مجيب بأي ذنب قُتلت.

تقتله الذكرى، تتمكن منه، تثخن في جرحه، تزرع جرحه ملحًا.

انحرف يسارًا ليستقبل أول شارع « **مهدلي**».

على الجانبين وجوه يرهقها الذعر، عيناه معلقتان على موقع البيت الذي اختفى خلف الغبار، انسحب الروع على وجهه، طرح ببصره كي يتبين وجوده من تلك المسافة، قلبه هوى بين قدميه، لم يسمع من يحدثه، لم يرَ الرجال الذين تخلوا عن الشجاعة الزائفة واستسلموا للهلع، ولم يرَ النساء اللاتي تخلين عن الحشمة من أجل البقاء على قيد الحياة، مساره في كوة الزمن أصابه التشويش يرى زملاءه في الكتيبة تحت الأنقاض، وزوجته وأولاده يحفرون قبورهم وسط الرمال، كان يلهث من فرط الانفعال والكوليسترول وضيق التنفس وقهر سنواته الخمسين.

ولما سمع الصراخ يأتي من أول الشارع، خلف الغبار الذي حجز ما بعده، نفض آلامه، وانطلق، سهم مرق عكس اتجاه المقدرة، تحول إلى آلةٍ للعدو فقط، بعدما ميز صوت ابنته «**تحرير**»، تفصد جبينه عن نزف غزير، صخب قلبه، ووقد الريب نيرانه في صدره.

وجد «**تحرير**» قد شارفت على الانهيار لما رأت البيت يخر راكعًا، ليس بيتهم ولكنه البيت المجاور، فهم من لهاثها أن الحاجة «**صباح**» القعيدة التي تسكن الدور الأرضي لم تكن من الفارين، سقط فوقها البيت ماله من قرار، كانت «**تحرير**» شديدة الارتباط بالسيدة العجوز كارتباطه هو بالبيت العتيق.

القت «**تحرير**» نفسها في صدر أبيها وهي ترتجف، ربت على كتفها ولما يتوقف لهاثه حتى جحظت عيناه المترددتان بين البيت الذي اكتشف تصدعه،

وتمايل حتى بان تقوسه يريد أن ينقض، وبين زوجته الجالسة على الأرض في وضع القرفصاء، مغبرة الثياب، شاخصة البصر تحدق إليه في ذهول.

زفرة حارة من صدر ابنه البكر «**على**» الراقد إلى جواره تعيده من «**أرض يعقوب**» إلى هنا « **مدينة السلام**».

في سريرته صورة تلفزيونية مفقودة الإشارة، معتقل بين أطرها، تمكنت من أسر خلده، ونزعت النوم عن جفونه الناصبة ورأسه المتهالك.

يرقب عمره قد مال مع جدران البيت الذي به ولد، وشب وتزوج وأنجب وهرم وتمنى لو مات تحت سقفه، إنه بيته وبيت أبيه، لم يستنكف الأب أن يفصل بينه وبين أخيه وهو على قيد الحياة، قالها حاسمة صارمة:

«الشقة ل «**زينهم**» والمدبغة ل «**فوزي**»».

يعلم الأب أن ابنه الأصغر تضره رائحة الجلود منذ صغره وأن «**فوزي**» إن عاجلًا أو أجلًا سينفرد بالمدبغة المؤجرة التي تربى فيها ونشأ، وأصبح سر أبيه وعقبه، وآثر الحاج «**محمود السمان**» أن يعيش ما تبقى ضيفًا على ولده «**زينهم**» وابنة أخته «**نجاة**» على أن يدب الشعث بين الأخوين وتغرهم الدنيا وتزرع الأيام في صدريهما الشحناء والبغضاء.

يري «**زينهم**» طفولته وصباه وشبابه وشيبه على وشك الانهيار، يرى يوم عودته من الجيش وفرحة بقائه على قيد الحياة ويوم زفافه ومولد «**علي**» و«**تحرير**» و«**حمزة**» وخطوبة «**تحرير**» وكل العمر.

زفر بدوره، ولكن في صمت حتى لا تسمعه «**نجاة**» التي أتاه صوتها، تصلي وتدعو، السكون والجدران الغريبة وذكرى نظرة الحاج «**فوزي**» تحرق ما بين جفونه، تميد الأرض من تحت قدميه، كم تمنى أن يبكي هناك على صدر أخيه، لن يخجل من أخيه الأكبر، الذي شاركه العمر والفراش والطعام واللعب ودعاء الوالدين ومن سيشاركه في حياة القبر إن أذن الله، ولكن نظرة خاوية دحرت ما تمنى، تحجرت الدموع في حلقه، لم تفر إلى عينيه، سقطت فوق قلبه فتقرحت روحه، تلمس الزجاج الوهمي العازل بينه وبين أخيه، لم يستطع له نقبًا.

لقد تغيرت ملامح الحاج «**فوزي**»، ترى هل غيرته الدنيا أم المال أم المرأتان أم الحشيش أم الأفيون الذي أدمنه كي يرضي زوجتيه؟

لم ينس «**زينهم**» وهو يحكي حالة البيت الذي تربيا فيه معًا بينما استقرت شفتا الحاج «**فوزي**» فوق مبسم النارجيلة، وقرقرته التي طغت على صوت الاستغاثة، ونظراته الجافة وعيناه اللتان تضيقان وتتسعان ثم صرخته في عامل المقهى المقابل للمدبغة لأن الشيشة لم تكن جيدة كما ينبغي، وبين الجملة وما بعدها يقاطعه بصرخة تهديد أخرى موجهة الى السائقين والحمالين، وقد كدسوا الجلود فوق عربات «**الكارو**» لنقلها لمخازن التمليح، يخاف على الجلد الميت من العطب ولا يهتم بالجلد الحي من التشرد أسرها «**زينهم**» في نفسه ولم يبدها.

حس «**زينهم**» وقتها بالتضاؤل، لا وجود له، غير مرئي لعيني أخيه، الواسعتين، تستندان إلى جفن متغضن محتقن، أحس «**زينهم**» بتدفق الدم في عروقه ينحسر، وسرعان ما تجمد في بقعة ما، بينما انسحب الاحمرار إلى وجه الحاج «**فوزي**» حتى حدود صلعته البيضاوية، يصاحبه سعال طغى من النارجيلة المتوجة بحجر من الحشيش نبت فوق معسل «**مزاج كامل**»، تمالك «**زينهم**» وتماسك ونحى كرامته جانبًا عندما تخيل امرأته وأولاده بلا مأوى، أو حتى في خيام الإيواء كما سمع، لأجل غير مسمي، قاوم التوتر والحيرة والرغبة في الانصراف والانسحاب، اختزل الحوار في كلمتين أنه الآن لا بيت يؤويه وأولاده ويرغب في مساعدته.

ترك الحاج «**فوزي**» نارجيلته وتنهد كمن توقع الطلب، وأرهقه الاستجداء، لم يبد عليه حتى التأثر بانهيار بيت أبيه أو بيت الطفولة، وبعد دقائق مرت كالدهر، دارت الظنون برأس «**زينهم**»، لما رأى أولاده مشردين، مهجرين، لا حائط يسترهم ولا سقف يحميهم، وهم أن ينسحب من مقعده بعد أن خذله أخوه، ولكن المعلم «**فوزي**» أخرج من سلسلة مفاتيحه، مفتاح معين، وناوله «**زينهم**» وأخبره دون أن ينظر إليه وهو يغمس الفحم المشتعل في رحم حجر المعسل بأصابع ميتة لم تؤذها النار، إنها شقة «**علاء**»، في «**مدينة السلام**»، ليذهبوا إليها مؤقتًا حتى يأذن الله، جاءت مؤقتًا قاسية على فؤاد «**زينهم**».

قبل «**زينهم**» وتراخت عضلات وجهه، لم يشعر بحذاء ثقيل وطأ كرامته، تغاضى عن نظرات الذل التي أطلت من عيني أخيه كانت تشبه عينيه يومًا ما لولا تغضُّن ما بعد الترهل، تخير الستر عن الكرامة.

وازن بين موقف «**فوزي**» وموقف «**محمد أبو ستيت**» صديقه، الذي ألحَّ عليه وزاد في الإصرار، أن يأتي بأولاده ويعيش معه هو وزوجته هنا في شارع «**بسيوني**» القاطع لشارع «**مهدلي**» ولا يترك «**أرض يعقوب**» أبدًا، في البيت متسع خاصة بعد أن غادرهم وحيدهم «**أمير**» إلى حياته المنفردة في مصر الجديدة.

«**محمد أبو ستيت**» صديق الطفولة والشباب والشيبة، كان أقرب إليه من أخيه، وما زال.

لملم جراحه وطواها بين ضلوعه وعاد إلى أولاده، بمفتاح الفرج، وتناسى كرامته التي ذابت في كف أخيه وعلقها على بوابة المدبغة كما يعلق «**السلايت**» على جريد النخل.

راقب الشقة أو المقام المؤقت من حوله، لقد دفع ثمن ظلة الجدران والسقف من أجلهم، مسح على شعر «**حمزة**» النائم وتابع «**عليًّا**» المستلقي على ظهره وقد دارى وجهه بذراعه، ولاحظ غياب «**سيد**» المؤقت.

رقد إلى جوار ابنيه، وهو لا يدري ماذا يفعل غدًا، تمنى لأول مره ألا توقظه زوجته في الصباح، ويفيق على سؤال الملكين.

***

خط كئيب ترسمه هذه البنايات الإسمنتية، المتشابهة حد الكآبة، المنعزلة حد التصدع، الصامتة حد الموت، يبدو أنه سمت المناطق الجديدة، مباني منتصبة الجذع، محددة الارتفاع، متماثلة اللون والعمر، يفصل بينها مسافات محددة، تسمح بزراعة الأشجار الصغيرة، منزوعة الصخب.

في مثل هذا التوقيت تبدأ الحياة أنفاسها في «**مصر القديمة**»، لا يروقه هذا الجو الميت، لا يرضيه، ولا يقنعه، أشعل سيجارة أخرى وهو يجوس بين الديار، يفحص جغرافيا المكان، تجاوز سيارة السرفيس التي تجاور البناية، مر بعدها على المحال المغلقة، بقالة الأمانة، عطارة الأمانة، هل ضاقت بهم الأسماء؟ وعلى الناصية عربة خشبية قديمة تبيع الكشري أو هكذا كان مكتوبًا عليها بخط رديء: (**كشري أبو نادية**)، وأمامها كان مبنى حجري لغرفة الكهرباء، يصعد له بدرجتين، مر بعدها من رواق ضيق، استقبل عن يمينه سور حجري ينتهي ببوابة لمسجد ومستوصف يسمى «**التوحيد**» على طريق أكثر اتساعًا، لمح في الأفق بقايا كراسي متناثرة علامة وجود مقهى خالٍ من الزبائن، وبعده ببنايتين كان هناك لافتة لحلاق وأخرى لمكتبة صغيرة، شوارع فسيحة ولكنها بلا روح، انتحب صوت ما في داخله، هذه الديار الخاوية على عروشها، لا يمكن أن يحيا فيها، هذا الفراغ الصموت، انتحى عبر ممشى بين بنايتين، رأى من بينهما طريقًا مختصرًا للعودة، فقد كانت سيارة السرفيس ماركة (**راما**) هي دليله وبوصلته كأن الحياة هنا تبوح بصعوبة لا حدود لها،

وجد «**سيد**» نفسه إلى جوار البناية ٩٢، وطئ بقدمه بقايا رماد الحلقة التي انفضت، ربما يأس السكان من جلستهم أمام البناية واستسلموا للقدر.

لو يعلم الناس كيف يكون شكلهم وهم موتي لن يغمض لهم جفن.

هو يعرف.

افزاع ترتعد له الفرائس، هول تشخص له الابصار.

لا يعنيه الامر كله، تذكر عندما وقع الزلزال وهو في السينما، لم يحرك ساكنًا، ولم يتحرك من مكانه حتى بعدما فر كل من فيها، اكتشف أنه الوحيد الذي أكمل الفيلم حتى نهايته، اكتشفوا وجوده قبل النهاية بقليل، ربما اكتشفوا استمرارية آلة العرض، التي لم تتوقف، دهشهم وجوده واندماجه واستمتاعه وتأثره في مشهد النهاية بإعدام البطلة في فيلم «**القاتلة**»، لم يضايقه سوى هروب «**نشوى**» ورعبها، على الرغم من تهيئة سينما «**فاتن حمامة**» بعد أن هرب الجميع، خافت وهي في معيته هو:

«**سيد لبط**».

خرج بعدها هادئًا مطمئنًّا ساخرًا، مر على «**نجمة المنيل**» ليشتري شريط كاسيت «**هاي كواليتي**» كما طلب منه «**حمزة**»، تجاهل نظرة الرجل المستنكرة، وعاد مترجلًا يراقب بلا مبالاة نظرات الرعب التي علت الوجوه، مر على

كوبري «**الملك الصالح**» راقب سور مجري العيون الذي تصدع بشدة ، ارتقي كوبري «**مجرى العيون**» المعدني الخالي من السيارات، تابع السكون الذي يأتي من منطقة المذبح، وتطلع عن يمينه إلى منطقة «**الجيارة**» التي لاحت من بين فتحات السور وكأنها مأتم كبير، لم تكن نهاية الكوبري سوى أول الحكاية فقد تابع الزحام المتكدس حول مستشفى «**المقطم**»، عبر من ناصية شارع «**بسيوني**»، المنزل رقم ٢ لم يعد له وجود، فقط ركام و صرخات وبكاء وعويل، ألقى السلام على حلقة توسطها الحاج «**محمد أبو ستيت**»، لم يردوا أو لم يسمعهم، تابع المسير وتنفس بعمق كي يرقب ماذا حدث لبيت أخته.

ألقى آخر سيجارة على الأرض، إنه لا يقوى أن يعيش في هذا العدم، سوف يبحث عن مكان عند أحد أصدقائه في «**مساكن زينهم**»، «**قلعة الكبش**»، أو «**السيدة زينب**»، يتعلل وقتها أن الشقة ضيقة ولن تحتمل كل هذا العدد، وأنها بعيدة عن عمله، وكلمات على نحو أنه حملهم الكثير وتحمله «**زينهم**» منذ صغره، وحقيق عليه أن يتحمل قليلًا ويعتمد على نفسه وأنه لن ينسى الفضل والرعاية، حسم أمره واستعد أن يصعد إلى الشقة الجديدة، قبل أن يراها...

فتاة متشحة بالسواد تقترب منه، نظر حوله وعقد حاجبيه لما رأى الفتاة تتجه نحوه ربما تقصده بالذات هكذا تمتم له شيطانه، دق قلبه كطبول الحرب

عندما باتت على بعد مترين وعندما رفعت وجهها بانت ملامحها، فاتنة، هي أقل ما يقال، شمس بياضها الذي أطل من عباءتها وحجابها الأسود أضاء ما حوله، زر ما بين كتفيه، وازدرد ريقه، مرتبكًا من ملابسه غير المهندمة، وشعره غير المنظم، تمنى أن تهبه السماء قطعة صغيرة من الفازلين، يعيد اللمعان والاتساق إلى شعره المشعث، ووسامته المزعومة، تمتم بكلمات أغنية لا يحفظها جيدًا:

(حلو ياللي ماشي ... ما ترمي السلام، والله حرام تبقا علينا آسي).

وحاول أن يقتبس نظرة «**ريدج فورستر**» بطل مسلسل «**الجريء والجميلات**» الذي يتابعه على القناة الثانية، عدل من وضع ياقة قميصه الأخضر المشجر المفتوحة أزراره، موسيقا المسلسل المصاحبة لنظرات «**ريدج**» تدور في رأسه، زاد تسبيله لما دخلت في مداره.

دكتور «سيد عزوز» ...الشهير ب «سيد لبط».

عندها رفعت عينيها نحوه في دهشة ثم تجاوزته في إهمال، توقفت الموسيقا فجأة، عبس وجهه لحظة، امتلأ فمه بتراب وهمي وشحن جوفه بالحنق، ولكنه استرد ابتسامته الجذابة في مخيلته، البلهاء في حقيقتها، صدرها أمامها لما عبرت الباب، ودخلت البناية، فتاة بهذا الجمال وفي هذا التوقيت، صعدت

أدراج السلم في هدوء، تبعها كالمسحور، وأكمل في تحدٍّ لتجاهلها ولآخر كلمات الأغنية التي اختلطت وتشابكت وحاول أن يعوضها باللحن:

(قالوا راح ولا جاشي. والابتسام راح في الخصام وانتا نسيت إحساسي).

تابعها في انبهار حتى وصلت إلى باب الشقة المقابلة، وأدارت المفتاح في الباب، رأته يتبعها وعلى وجهه تمددت ابتسامته البلهاء.

(ياللي ماشي مسي علينا يوم).

لم يكمل عبارته فقد أوصدت الباب خلفها ولم تعقب، تابع الباب الموصد على قلبه.

طرق الباب بهدوء دون أن يحول ناظريه عن موضع اختفائها، فتحت له «**نجاة**» وحشر نفسه بين «**علي**» و«**حمزة**» ونسي كل ما رتب له من مغادرة المكان، لا بد أن هذا الجمال يزين هذا الخواء، ويبث الحياة في الأرض الميتة، ابتسم وهو يغلق عينيه محتفظًا بصورتها، التي تدفقت فجأة إلى ثنايا عقله واحتلتها تماما، وذكرها في نفسه، حتى خبت رويدًا رويدًا بفعل التعب الذي أثقل جفونه، إلا من بقعة داخله أخذت تردد في خفوت:

(ياللي ناسي. أجيب منين النوم).

ترى ما اسم هذا الملاك العائد في جوف الليل؟

***

- «**زمزم**»!

طمأنت «**زمزم**» أمها الراقدة في فراشها أنها عادة للتو من المركز الطبي ، بينما ألقت نظرة على أخيها «**عمر**» الممد بدوره إلى سريره، وعلى صدره سقط كتاب من سلسلة «**الشياطين ال ١٣**» التي يهوي قراءتها، أزالت الكتاب عن صدره برفق بعد أن خلصت أوراقه من بين الأصابع المتشابكة، وسحبت الغطاء على أخيها بعناية، ألقت نظرة خاطفة على قدمه العرجاء، لعنت القابلة التي تسببت فيها، ألقت نفسها على الأريكة، أسقطت عنها حجابها، وهي تقاوم الأم قدميها، فهي لم تغادر المركز الطبي إلا بعدما استقرت حالة المولود الصغير الذي ولد مصابًا بالصفراء، وكاد يزهق فرحة والديه المتأخرة عشرين عامًا.

طالبها الدكتور «**يحيى**» أن تذهب لتنال قسطًا من الراحة، وأنه سوف يبيت بجوار الأم والطفل ولن يغادر، حاولت أن ترفض كفاه ما تعرض له في أثناء عملية الولادة، ابتسم في ضعف ودفعها أن تذهب وطالب «**طه**» العطار أن يوصلها، بدلت عباءتها برداء التمريض، وترجلت إلى الخارج يتبعها «**طه العطار**» يلهث بالدعاء والشكر ويلقي بعبارات المدح على دكتور «**يحيى**»، لا يعرف كيف يوفيه فضله ابتعد بها من باب المركز الطبي، بينما باب المسجد قد فتح استعدادًا لصلاة الفجر، انطلقت «**زمزم**» وطالبت عم «**طه**»

بالعودة إلى امرأته وولده، لقد بقيت خطوتان على البيت، لاحظت في أثناء عودتها هذا الشاب الواقف أمام البيت، حسبته أحد الأشقياء ولكنها عندما رفعت عينيها نحوه، عرفت أنه ليس من المنطقة.

ولكن لماذا يتابعها هكذا؟

ويصعد الدرج خلفها، كانت تهرول وتستعد أن تطلق صرخة استغاثة، ولكنها حمدت الله عندما عبرت إلى شقتها، وأغلقت الباب خلفها، وتنفست الصعداء، ووضعت يدها فوق صدرها لعلها توقف آلة الخفقان، ورأته من خلف الزجاج يدخل الشقة المغلقة المقابلة.

سكان جدد، ربما آذاهم الزلزال، وربما عاد صاحبها المسافر كما سمعت مرة من عم «**شبيب**» السمسار.

فتحت باب المبرد، لم تحتر كثيرًا ، التقطت طبق الجبن الأبيض وخيارتين حرصت أن تغسلهما في غير إتقان، حفظًا للوقت، فقد قارب قطار النوم أن يدهس ما بقي منها، تناولت الرغيف الوحيد الملقى في طريقها، جلست على طاولة الصالة ذات الثلاث قوائم، وتوجهت بنظرها قبل صورة أبيها التي تصدرت الحائط المقابل، صورة له في شبابه، رسمت له بالفحم في مدينة «**كفر الزيات**» إذ كان يعمل في شركة الزيوت، كان حريصًا أن يأتي بها من بيتهم القديم في مركز «**قطور**» ، بعد أن تركوا محافظة «**الغربية**» بعد ما حدث،

وساعده رئيسه كي يعمل في شركة الزيوت والصابون في «**مدينة نصر**»، حتى باغته المرض اللعين ونال منه .

وبدأت الرحلة الأخيرة، مع جلسات الغسيل التي أتت على الأخضر واليابس والرطب والجاف، بددت ما تبقَّى من مدخر، حتى استسلم، آمن أنها مضيعة للمال، لن يشتري عمرًا فوق ما قدر، حتى العلاج توقف عنه، فلا فائدة تُرجى ولا منفعة تعم، كان يجلس مكانها في آخر أيامه -في لحظاته القليلة التي ترك فيها الفراش - وقد انسحب على ملامحه الشحوب.

كان يـتأمل دوران الزمن بين صورته في المرآة والأخرى على الحائط ويضحك ساخرًا، ضحكة متهالكة، مرهقة، وبأصابع مرتجفة، كان يشير إلى «**عمر**» أن أبله هذا كان أوسم شباب « **قطور**» قبل أن تعلن كليته العصيان، تأسى على ما فات، وخشي عليهم مما هو آت.

لم تجرؤ وقتها «**زمزم**» أن تصارحه أنها عملت ممرضةً في المركز الطبي لتفي ما للبيت من حوائج، ولولا الدكتور «**يحيى**» الذي علمها المهنة وآمن بذكائها وقدرتها على التعلم لانكشف أمرهم وسألوا الناس بعدما انقطعت السبل بأهليهم بعد حادثة «**ناجي**».

سمعته «**زمزم**» في آخر أيامه لا يذكر إلا «**ناجي**»، أخاها الصغير الذي مات، أو بمعنى أدق.

قتل.

ذكره حتى انفطر قلبه، نظرات الاتهام تتناثر في كل مكان، نظرات صامتة، قاتلة، تصدر من سلاح كاتم للصوت، عظيم الأثر، دنيء التمكن.

هي نفسها تذكر «**ناجي**» ونظراته البريئة لحظات اللعب، ونظرته المخيفة لحظة الموت.

- ناجي ...ناجي.

تسمع أمها الآن تناديه أيضًا.

تتذكر حيلة أبيها الأخيرة عندما، حمل جثة «**ناجي**» بين ذراعيه ملتحفًا بعباءة صوف، مر على بيوت القرية مدعيًا أن ابنه محموم، يطلب العون، وسرعان ما أسعفه البعض بزجاجة دواء أو منحه وصفة خل وليمون لخفض الحرارة، كل هذا وهو يتحاشى كشف أمره، إلا امرأة عجوز، مدت يدها، وجسَّت جبهته الباردة واكتشفت موته، وكتمت ما اعتقدت أنه صدمة، فنصحته أن يعود بيته ويدفئ ولده في حضن أمه حتى الصبح، ويقضي الله ما هو قاضٍ، ولم تُفاجأ البلدة عندما صدر من بيته صرخة ملتاعة لتعلن رسميًّا موت الصغير.

توارى جسد «**ناجي**» تحت التراب، ولم ينقطع صوته ودبيب قدميه الصغيرتين من الآذان، لا يقطعه سوى همهمات تأتي عبر الجدار من نساء القرية، كفحيح الأفاعي، وقد علموا ما حدث لا يعرف كيف؟ وقد شق همسهن الفراغ، ليغرز ألف سكين في صدر رجل بدأ المرض يغزو خلاياه،

ويترك توقيعه فوق ملامحه، لم يتمكن سوى من جمع شتات نفسه في صرخة مدوية، وانهال على زوجته ضربًا وركلًا، التي تكورت في استسلام، لم يراعِ بكاء الابنة ودفاع الولد المستميت ليقي أمه ضربات قاتلة، لم تتمكن من ردها، ولم ترد، جزاء لما يعانيه عقلها من الاضطراب.

وكانت الليلة الأخيرة قبل الرحيل إلى هنا، قبل التيه المكتوب في الواحهم، وقد جنوا ثمار حياتهم الجديدة وصحيفتهم الخالية من الذنوب المعلنة وحان الوقت لدفع ثمن المنفى بلا أهل ولا سند.

كانت تحشر اللقمة في فمها حشرًا، عسى أن تجد لغصة حلقها مسلكًا، لقد سئمت المكان كله، بعدما تجرأ عليها الاشقياء فور موت أبيها من حول كامل، لعنت جمالها الذي أثقل ظهرها، تمنت لو سكبت فوق بشرتها البيضاء ماء نار، وغرست قطعتين من طين لازب فوق زرع عينيها النجلاوين، تحلم باليوم الذي تبتعد، أغمضت عينيها، واستسلمت للنوم ودمعة فارة من جفنها استقرت فوق الوسادة.

***

رآه «**طه**» أيضًا.

ظنه «**أشرف الخواجة**» الشقي الذي يطارد «**زمزم**» أينما كانت، يضايقها، ويضايق الجميع، رغب «**طه**» في تعقبها من كثب، ولكن هاجس ما خامره، غرز إبرة الجبن في وريده، انتظر، تردد، تراجع، ثم نكس رأس خذلتها

الحسابات، استسلم لتهتهة روحه، وهي تعوي كشاة ذبيحة، ما له وهذا الشقي، يستوطئ قدره، ويهين حضوره، هنا لا خلق يحكم، ولا عمر يقدر، ولا شيبة ترد.

يكفيه أضغاث أحلام تقتحمه بعدما آوى المطارد، يخشى أن يزوره أحد من بلدته فيكتشف «**أحمد منتصر**» ويشي به ويضيع هو «**طه**» بتهمة الستر.

في كل ليلة يستيقظ على ألم الأغلال تطوِّق معصميه، يترقب بين الحين والآخر، مداهمة تدك بابه، لا تبقي ولا تذر، سابقًا لم يكن يخشى إلا على نفسه وزوجته وماله، نصف زينة الحياة الدنيا، وكان يرجو من الله النصف الآخر، ويأبى الله إلا أن يتم فضله عليه ونعمه، أتى الولد من خير متاع الدنيا: «**زينات**».

جاء الولد بعد خشية أن يبقى فردًا، ويضيع ماله الذي جمع لموالي تنتظر موته، وينهش إرثه قطيع ابن آوى، وتضيع سيرته الأولى.

كادت كل سيرته تزهق معها، عندما تخير البديل الصعب، أن يجرب امرأة أخرى، ورحمًا آخر بكر يغرس فيه زرعته، عسى أن تنبت أرضها الفتية ما عجزت أرض «**زينات**» المعطوبة قسرًا، ربما بفعل الإرث فلم تلد أمها سواها، وربما بفعل الأدوية والوصفات التي لم تؤتِ أُكلها، ذهب بما تبقى من عنفوان ما بعد الأربعين، وفورة المحاولة الأخيرة قبل اليأس برمية حجر، إلى أرض شغالة فتية، شبقة الحرث، هافة إلى الارتواء، تزوج بـ«**سميحة**».

فاتنة «**تليجة**».

لا بل فاتنة «**كفر صقر**» كلها.

وكأنها عروس بحر.

منحها إياه « **بحر مويس**».

تغافل عن دموع رفيقة الدرب التي ما اعترضت ولا رضت، وابتغت الصمت سبيلًا، ومرت الأيام وتتوق العين لرؤية السنبلات الخضر بعد سنين عجاف، غض فيها الطرف عن سذاجة «**سميحة**» وطمعها وكسلها وغنجها وقحة لسانها، عماه الأمل عن التطاول، تغافل عن السفاهة، صم حدسه عن آذاها ل «**زينات**» وكأن في أذنيه وقرًا، وبين البشرى والخيبة هوة عميقة يترنح في عمقها «**طه**» خمسة أيام، تطمس فيها أحلامه، ويمر الهلال خلف الهلال، لا أمل يرجى، ولا سلوك يحتمل، فاعتزلها بعد أن عاقر اليأس، وانتحى إلى ما تبقى من تجارته، خشي أن يضيع الحسنيين، حتى تلوث سمعه بما يتناقله الناس عنها، ذاعت سيرتها في ربوع « **تليجة**»، تقصَّى الأمر وتحقق منه، تمنى لو قتلها عندئذ، عندما تيقن أنها تلوث بدنسها ناصيته.

علم مؤخرًا من حلاق القرية الذي اعتاد زيارته هنا كلما زار ابنته في «**عزبة النخل**»، وبثرثرة الحلاقين يخبره عن كل أخبار «**تليجة**» و«**كفر صقر**» ومن بينها أخبار «**سميحة**» التي صارت أشبه بغانية القرية التي نبذها أهلها

خارجها، لم ينس «**طه**» أن يعض شفتيه من الألم والغيظ بسبب هذه المرأة التي لوثت سمعته وارتبط اسمها به يومًا ما صارت مطلقته تمارس البغاء، ينبذها الجميع في العلن ويرتادها الجميع في الخفاء.

تنهد وهو يتحسس نقطة معينة في رأسه، بؤرة من الصداع يظن أنها مركز الذاكرة الذي يئن عليه كلما تذكر ما حدث، يصر الدكتور «**يحيى**» أنها تسمى صداع نصفي، ولكنه موقن أنها صرخة في سرداب الماضي تثير همه وتلهب جزعه.

دكتور «**يحيى العديسي**»- الممد أمامه فوق مقعدين متقابلين- له الفضل بعد الله في إنقاذ زوجته، التي جاءها المخاض وبدأ يولدها قبيل انفجار الزلزلة، واستبق الجميع الباب حتى هو:

«**طه**» نفسه.

خجل من نفسه عندما لم يتحرك الطبيب أنملة، واستمر مع السيدة، لم يخش الهزة، ولم يرهبه الموت، لم يفر بحياته كالبقية، وان فعل لا يملك عليه شيء، ولكنه ظل هادئًا، ساكن الهواجس كأنه ضُرب بينه وبين القوم سدٌّ منيع، لا يرى، لم تحركه صرخات الفارين المذعورين، حتى جاءت صرخة المولود، تمنحه صك الخلاص، ومنحت الشيخ قبلة الحياة، وقبل أن يهدأ اللهاث، جاءت الصفراء التي أصابت المولود، غيمة أخري من الحزن، تهوي، مطرقة القلق على رأس اشتعل شيبًا وذعرًا ورجاء.

وتحمل الطبيب و«**زمزم**» المعاناة، بعدما وضعا المولود عاريًا، معرضًا إلى ضوء النيون الأبيض، ومرت الساعات بطيئة، على أب زائغة عيناه بين زوجة أربعينية أنهكها المخاض، ورضيع يصرخ بلا توقف، وهمهمات تأتي من كل فج، تنذر بضحايا وخسائر وإصابات، حضرت المركز الطبي جماعات وأفراد، كان يتابعها الطبيب الذي لا يوجد غيره في المركز الطبي وكان يتبادل الأدوار مع «**زمزم**» التي بينت براعة واقتدار فاجأ الطبيب نفسه، الذي أهمل عمله في مستشفى «**الدمرداش**» حتى يطمئنَّ على الوليد.

ساعات نالت من قلب «**طه**» وروحه، حتى ابتسم الطبيب أن الأمور قد استقرت، دمعت عينا «**طه**» وقبَّل رأس امرأته التي صابرت حتى أذن الله، وتحملت من أجله همزات شياطين الإنس، وتحملته هو، لم تتخذ من الكيد العظيم سبيلًا حتى بعدما قهرته الرغبة وذهب إلى أخرى.

سنون مرت جرب فيها كل شيء، خاض فيها الغمر والضحول، ذهب إلى الأطباء والشيوخ والدجايين بحثًا عن الولد، أخذ كل ما طالت يده من محل العطارة الذي يملكه والأدوية والحقن، والأحجبة.

كان قد وعد أباه من قبل ان يسمي أول أولاده «**عبد المجيد**» ولكن تقديرًا لهذا الرجل لن يفعل، اقترب من الزجاج الذي يفصله عن طفله وهمس:

« **يحيى**» ... «**يحيى طه عبد المجيد**».

***

استسلم الدكتور «**يحيى**» وقد خارت قواه، أغمض عينيه ورآها كما اعتاد، غجرية تتسكع على ضفة النهر، ترفل في فستانها الأبيض الطويل وضوء القمر يصنع من ظلالها على العشب، خطوطًا ورموزًا وطلسمًا، تتموج مع مشيتها كزورق تحركه ريح الشمال، وحفيف وريقات الحناء وحدها يشق السكون، راقبها صامتًا من خلف جذع السنديانة، ود لو أقتحم الظلمة، وسار إلى جانبها حتى الجندل الأول.

«**تها**» ...

همس اسمها بلا شفتين، تردد كموجات متداخلة، وسع في دوائر، تمدد في المسافة بين عقله وقلبه، انتظر برهه، عصف قلبه لا يرد، حسم امره، انطلق نحوها، وغرس الشوك يدمي قدميه العاريتين، النيل يغرق في السكون، صلصلة غامضة تصدر من مكان ما، أرخى أذنيه لحظة يقتفي منبعها، يسيطر على خفقان قلبه، وهي هناك تولي وجهها شطر الجانب الغربي للنيل، حيث الجانب الآخر من الحياة، أو الموطن الأصلي للموت.

الصلصلة تدوي من جديد، مميزة إلى حد بعيد، وكأنها صوت الخلاخيل، وتنبت صاحبتها من العدم، من الفراغ، إنها هي: «**أم الشلاشل**».

يفتح عينيه، يراها على بعد ذراعين منها، وهي في عالمها لا تلتفت، ود لو حذرها، تسمرت قدماه، وكأنما ابتلعها رمل الخراب، وضاع النداء من صوته،

دنت منها «**أم الشلاشل**» بردائها العربي المميز، وصوت صليل خلاخيلها يصم الآذان، ووقع الفزع تمكن من قلبه، و«**تها**» لا تحرك ساكنًا، حتى طوقتها في قوة، يسمع من هنا دك عظامها، «**تها**» تتوجع بلا صوت، يري فوق القمر انعكاس فزعها الصامت، قنفذ صغير غرس في حنجرته فتحول صوته إلى لهاث، حشرجة بلا كلمات، صدرت منه فكشفت عن مكمنه، ورأته.

اكتشفت «**أم الشلاشل**» هدر أنفاسه.

تركت فريستها المتجمدة كتمثال من ملح، وتوجهت إليه، صليلها يجتاح أذنيه، ويربك بواطنه، أعماه سنا الكردان اللامع الضخم، ظلها يغمر بقاياه، يصفد أطرافه، يحرق شرايين قلبه حتى استسلم للمصير المحتوم.

وقبل النهاية، غلبه فضوله القديم، أن يراها، يرى «**أم الشلاشل**»، نظرة وحيدة أخيرة قبل النهاية، انتظر حتى قربت وناهزت عنقه، ورفع عينيه نحوها، ليراها، مرة أولى، وأخيرة، وكانت هي آخر من دار في خلده، كانت....

«**يحيى**».

وفتح عينيه عندما وجد «**طه**» العطار ينادي على الطفل، وليس عليه، أخفى وجهه في راحتيه ليهدأ ما به من روع.

دقائق معدودة استرد فيها أبعاد الزمان والمكان واستوعب تمركزه، تثائب د. «**يحيى**» في قوة، حرك رأسه في حركة دائرية، مستعينًا براحته، التي

زحفت لتفرك جبهته وتدعك عينيه، ألقى ببصره نظرة على ساعة الحائط التي تجاوزت الثالثة فجرا، وسحب نفسه بصعوبة من المقعدين، انسحب إلى الحمام بعد أن ألقى تحية صامتة على « **عم طه**»، توضأ استعدادًا للصلاة، حدق إلى المرآة لحظة، يتفحص ملامحه ويرقب الشعيرات البيضاء التي تسللت إلى فوديه، استعاد كثيرًا من نشاطه بعدما نال سنة من النوم، لم يعكر صفوه سوى هذا الحلم الذي ينال منه في كل مرة، تمتم مستغفرًا، وعاد ليطمئن على الأم والوليد، دلف بعدها إلى باب المسجد وتمنى لو وجد « **أحمد منتصر** » هناك.

شيء ما داخله يؤنبه، خاصة وهو يعلم ما لحق بصديقه من ضرر، فما كان ليجادله في أمر أضاع بسببه حياته، لا يدعي أنه يملك الحقيقة، ولا ينكر أن ما سمعه يحمل الكثير من الكذب، ولكن رأيه الصادر عن معطيات لا تخالف المنطق، ربما نبش جزءًا ما من حقيقة غائبة في ذهن «**أحمد منتصر**» انتظر ليعتذر منه، تابع وجوه الوافدين، حتى ارتفع صوت الشيخ « **الضوي**» مقيما للصلاة، ألقى نظرة وراءه قبل تكبيرة الإحرام ثم توجه إلى الله وصوت الشيخ «**الضوي**» وهو يقول بعد فاتحة الكتاب:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾.

***

- «**أنا لا أخشى الموت ولا أرهبه يا منتصر**».

مصر قالت:

«**لا تبكي يا سليمان، أنت فعلت كل ما كنت أنتظره منك يا بني**».

«**البقاء لله**».

«**سليمان ...مات ...سليمان .... لا**».

في صرخة ملتاعة صدرت من حلقه ليكتشف بعدها مكانه وقد نال منه النوم في حين غفلة، ويكتشف نظرات الخوف في وجه الصغير الذي افزعته صرخته، كان راقدًا كما تذكر من لحظات ويده اليسرى ممتدة على استقامتها يستند عليها رأس الصغير.

- أنا خايف.

بحروف مزقتها أسنانه اللبنية، هوت كطلقات مدفع في صدر أبيه، الذي ضمه إليه في تحنان، وأشاح بوجهه، يخفي نزف جرح غائر في عينيه، قاومه وابتلع غصته، ليغمر الدمع قلبه ويفيض فوق روحه، ليتفتق جرحه قطبة بعد قطبة، يسمع إقامة صلاة الفجر، وما تركها إلا خوفًا على ولده من الفزع، لم يشأ أن يتركه وحيدًا.

مد يده المتصلبة العضلات، إلى الخوان المجاور للفراش، لا يستقر فوقه سوى صورتين، مؤطر بإطار ذهبي، التقط بأنامله صورتها، لم تنل نصيبها من الدنيا، انطفئت كشمس الشمال كانت حلم الجميع من شباب «**أكياد**»

وكانت حقيقته هو، كتب فيها الشعر وما هو بشاعر، ألقى أبياته الأولى على مسامع «**سليمان**» رحمه الله، تابع نظرات الإعجاب في عيني صديقه الذي أسبغ وجهه بابتسامة رائقة، نصحه بدراسة الشعر بعد أن ينهي سنوات معهد الكفاءة الإنتاجية، ما أراد الشعر بل أرادها هي، كانت حلمه الذي راوده، ولم يصدق نفسه عندما أتاه على الأمر مؤاتاة، جاء ردُّها في نفس اليوم قرار تعيينه في الجمعية الزراعية ب«**فاقوس**»، مع صديقه «**عبد الله فؤاد**» تزينت له الدنيا بثياب خضر، وحسب نفسه في جنة الدنيا من الخالدين، ولما لمست كفه اليمنى لتطوق حلقتها الفضية وأبجديتها التي لاصقت جلده، ويوم ميلاده الجديد ٤/ ١٠/ ١٩٨٥ تلقي التهاني من أهل قريته بعد صلاة الجمعة، لم يحزنه سوى غياب «**سليمان**» وما غاب «**سليمان**» إلا مضطرًّا، ولكن «**عبد الله**» لَمَ غاب؟

مؤكد أنه العمل، لا تستغني الإدارة في الجمعية عن «**عبد الله**» حتى في يوم الإجازة، ولو كان الأمر بيده لأجل الخطبة إلى حين، كي يصاحبه صديقًا للعمر، ولكن مر الأمر كما قدر، وكل شيء عنده بمقدار، خففت برقتها وفرحتها حزنه، وبددت كلمة:

«**أحبك**» التي قالتها على استحياء من وراء حجاب ما كدر في نفسه، حتى جاء الخبر المشئوم، الذي بدل حياتهم تبديلًا.

تنهد «**أحمد منتصر**» وقبل جبهه ولده «**سليمان**» الذي نام، لا يدري ماذا تُخبئ له الأيام، خاصة بعد ولادة السيدة «**زينات**» زوجة عم «**طه**» التي آوت طفله واتخذته ولدًا، وأنزلته أعز منزلة، وعوضته عن أمه، رحمة الله عليك يا «**غالية**»، انهارت مقاومته وفرت الدموع على فراقها، يد الوحدة والغربة والوحشة تعتصر قلبه، لا حيلة له فيما حدث، سحب ذراعه من تحت رأس الصغير الذي وسدها، أحكم تغطيته، وجلس على طرف الفراش واستعادت أنفاسه هدوءها، أعاد صورة زوجته مكانها، التقط الصورة الأخرى، تنهد في مرارة، علاه الوجوم، عندما تذكر كلمات الدكتور «**يحيى**» التي حوت من وجهه نظر صاحبها وجهه أخرى من الحقيقة، أربكت الكلمات أفكاره، نفضت غزله، وأزهقت كل ما كان.

طالع الصورة مرة أخرى، أخذته إلى عالم أثيري، مزيج من الذكريات، وندب عظيم الغور، كز على أسنانه، وروحه تميز من الغيظ، اغلق عينيه ولم يذق رقادًا، واستسلم لدموع هافت، وأعاد صورته التي تجمعه وصديقيه:

«**عبد الله فؤاد**» و«**سليمان خاطر**».

الفصل الثاني

استيقظت «**نجاة**» مبكرًا وربما لم تنم مطلقًا، توضأت على مهل، وهي ترفع عينيها بين الفينة والفينة إلى سقف المطبخ التي لم تألفه، ودارت عينيها تفحص جدرانه الغريبة عما اعتادت، كان جديدًا متماسكًا نقيًّا عكس سابقه الذي نالت منه السنون والرطوبة والسخام.

ولكنه كان ملكها هي.

كانت تسعي لترميمه وتجديده قبل أن يهلك الزلزال رجاءها، ردت عنها ذكرى بيتها الذي كان، وطردت من فورها ألم فراقه، صلت ركعتي الصبح بعد ان جاست في الوجوه النائمة، تحركت على أطراف أصابعها، تناست آلام فقرات ظهرها التي تصرخ ألمًا، ارتدت جلبابها الأزرق، وحجابها الرمادي الذي يحيط وجهها المكتمل الاستدارة، الذي يشي بجمال خبت نيرانه أو كادت، لولا تجاعيد رقيقة ارتسمت في جبهتها، وعينين اكتحلتا بإرهاق من هجره النوم ونقص فيتامينات ما بعد الأربعين، اصفرَّ بياض عينيها، ولم يتبق إلا بركة صغيرة من عسل مصفى، لعين عميقة النظرة، جافة الدموع.

راجعت ما تحمله من نقود، وعددت في صمت الاحتياجات الضرورية.

نزلت إلى الشارع الجديد، ترود ما فيه، صادفت هذا الشاب على درج السلم، تراجع خطوتين عندما رآها وخفض رأسه تأدبًا، تجاوزته وهي تلقي السلام هامسة، سمعت دمدمة خافتة منه، المسافات بين البنايات سمحت لأشعة الشمس للمرور، رد «**أحمد منتصر**» السلام في تهذيب، غطت وجهها بيدها لحظة ثم أظلت عينيها براحة مستقيمة، تلفتت يمينًا ويسارًا في حيرة، لا تعرف إلى أين تتجه ومن أين تبدأ، اختارت أن تبدأ باليمين، عبرت يمينا إلى الشارع، لاحظت وجود محل البقالة والعطارة إلى جوارها مباشرة، بداية مبشرة، ولكنها لم تفتح بعد، استقبلت الشارع المتعامد والأكثر اتساعًا، لاحظت وجود سوق صغيرة بجوار سور المسجد الضخم وألفت بعض البائعة الجائلين مبعثرين هنا وهناك، تقدمت من أحداهن لتشتري خيارًا وطماطم وفلفلًا وبطاطس وليمونًا وما تيسر من القثاء والبصل، وترددت قليلًا، ثم حسمت أمرها وجمعت مجموعة من أعواد خضر من الملوخية، نعم ستطبخ لهم الملوخية أخيرًا بعد أن توقفت عن أكلها وطبخها منذ مدة، بعدما صادفت تجربة علمية لنمو البكتيريا في إحدى حلقات «**العلم والإيمان**» للدكتور «**مصطفى محمود**»، رأتها تنمو في وسط أخضر لزج يشبه لون وقوام الملوخية، ومن يومها لا ترى أطباق الملوخية إلا مرصعة بمستعمرة من كائنات ترعى، فأصدرت تشريعها المطلق بلا طعن، المشتق من دستور الحاكم بأمر الله بتحريم الملوخية في منزل «**زينهم السمان**» وذيلت

عبارتها الحاسمة الرسمية بأننا لم نسمع عن أحدٍ مات دون أن يأكل الملوخية، واستغلت الذهول والصمت المطبق الذي حاصرهم وقتها وأردفت:

ولا أحد يسألني عن قصافة الأظفار!

ربما أرادت اليوم ان تخفف عنهم أو تشغلهم، تربك حسرتهم وتخترق حزنهم، لن تأكلها معهم ولكنهم يستحقون المواساة.

كانت هناك سيدة عجوز تدخن السجائر بشراهة، وتزن ما يجمعه الزبائن دون تدخل، تجمع ما انتقوا من وضع الجلوس، وتضعه على كف الميزان، وتضع الثقل المناسب على الجانب الآخر، وتراقب بحدقتين دقيقتين تأرجح المكيال، وتزيد وتنقص دون أن تنبس ببنت شفة، عرفت «**نجاة**» اسمها بعدما نادتها بعض النسوة:

- «**أم شداد**».

ظنت «**نجاة**» أنها صماء بكماء، لأنها لا ترد على أحد يسأل عن سعر أو يجادل أو يفاوض، جمعت ما ابتاعت في يديها، لم ترد عليها «**أم شداد**» عندما سألتها عن أقرب مطعم يبيع الفول، ولكنها اكتشفت أن «**أم شداد**» ذات الوجه المعدني المنقوش فوق التجاعيد ، تتكلم ولكن بصورة إليه فقط عندما تحسب الحسبة وتقول الكلمة النهائية أو السعر النهائي، وجاءت الإجابة عن سؤالها من إحدى السيدات التي تابعت بأن مطعم الفول على بُعد خطوات من هنا، فقط عليها أن تسير بمحاذاة سور المسجد وتتجاوز بابه وبوابة

المركز الطبي، وستجده في الجهة المقابلة، تمتمت «**نجاة**» بكلمات الشكر وقابلت ابتسامة السيدة التي ارتدت جلبابا حريريا أخضر يشبه لون عينيها، منقوشًا بالورد رصع جذعها المنتصب -بدت مختلفة عن الباقيات البدينات المتشحات بالسواد- وكلما تكلمت طوحت بذراعيها لينحسر أكمامه إلى مرفقها كاشفًا عن سوار من ذهب في يد وساعة رفيعة في اليد الأخرى ولاحظت «**نجاة**» بياضها الناصع وحاجبيها الرفيعين على شكل الرقم ثمانية وشفتيها اللتين تتحركان في ميعة، ورائحة اللبان سمارة تفوح منها، حملت «**نجاة**» ما ابتاعته ولكن استوقفتها السيدة أنها يمكن أن تذهب إلى مطعم الفول وتترك ما اشترت بجوار «**أم شداد**» ترددت «**نجاة**» لحظات ولكن إيماءة من رأس المرأة شجعتها، فلتذهب ولا تخف، ولا تتردد في طلب أي شيء منها، فهي تعرف انها اول يوم لها في المساكن، دهشت «**نجاة**» لحظات ولكن السيدة طمأنتها أنها تسكن معها في نفس البناية في الدور الرابع، عليها فقط أن تناديها في أي وقت وتقول:

«أم إسلام».

ثم أردفت بعد لحظات:

أو «رزة».

صافحتها «**نجاة**» بعد تردد، ثم ذهبت كما قالت.

ابتاعت «**نجاة**» كل ما أرادت من فطور وخبز وما تستطيع حمله وعرجت إلى «**أم شداد**» وقد حاولت شكرها حفظها لبضاعتها، ولكن «**أم شداد**» صامتة لا ترد، انشغلت عنها بمحاولة إشعال سيجارتها عكس سير الهواء البارد، مرت «**نجاة**» على متجر البقالة في طريق عودتها لتشتري ما خف وزنه من كبريت وشمع وجبن وقصافة أظفار، وجدت نفس الشاب الخلوق حياها مرحبًا، كان أكبر من ابنها «**علي**» بقليل وظهرت على ملامحه علامات الطيبة ومن اعتناء كلماته حدست أنه على درجة من العلم والخلق عادت أدراجها، قاومت تلاحق أنفاسها التي قطعها الحمل ودرجات السلم، لقد كانت تعيش في الدور الأرضي، وكانت تكرهه وعندما أتت إلى الدور الثاني كفرت به، فتحت الباب بالمفتاح الوحيد المتاح، أغلقته خلفها، ما زال «**سيد**» أخوها وابنها «**حمزة**» في نوم عميق بينما صوت زخات الماء من الحمام مع نوبات سعال متقطعة يشي بوجود «**زينهم**»، خلعت غطاء رأسها وجلست على المقعد الوحيد وقد احمرَّ وجهها ، نادت «**تحرير**» التي ردت عليها بصوت خفيض علامة يقظتها، اتجهت إلى المطبخ وتبعتها «**تحرير**» بعينين نصف مفتوحتين، واستعدتا لتجهيز الفطور، وكأنما نسيت شيئًا ما سألت «**تحرير**» عن «**علي**»، أجابتها «**تحرير**» وهي ما زالت تتثاءب أنها سمعت منذ قليل صوت الباب يغلق، سيطر القلق على «**نجاة**» ولم تزد.

***

انتزع «**زينهم السمان**» نفسه من مقعد الحافلة الثالثة بعد تيبس عضلات حوضه وصرخت فقرات ظهره من المسند الخشبي، وقد تغافل عن رأس المسمار الذي شقَّ خيوط الصوف المتعامدة في البلوفر الرمادي الذي يرتديه ونفذت من بقعة الكلور التي زينت القميص الأزرق الكتان الذي يرتديه من تحته، والمفرج عنه فقط في فصل الشتاء لينجو من المصير المحتوم التي ترسمه «**نجاة**» أن يتحول إلى ممسحة، ورضي منه بياقة نصف بالية، برزت من عنق البلوفر المثلثة.

تابع نداء إلى من المحصل- في الحافلة شبه الخاوية-ينادي بالمحطة قبل الأخيرة شارع «**القصر العيني**»، تحسس بيديه المعروقتين ركبتيه الصارختين ألمًا، من فوق سروال كتاني مهترئ الركبة، فوران حمضي يجتاح معدته، يقاوم رغبة عنيفة في ألقي، فطوره لم يهضم بعد، مذاقه كان يشي بهذه النتيجة، مختلف عن مثيله في «**أرض يعقوب**»، يبدو ان كل شيء سيتغير حتى طعم الفول.

لم يتخيل أن تكون المسافة بكل هذا البعد بين ملجؤه في مدينة «**السلام**» وعمله، في مكتب التموين بشارع «**علي يوسف**» المتفرع من شارع «**القصر العيني**»، استقل ثلاث حافلات للنقل العام من «**السلام**» إلى «**الالف مسكن**» وأخرى إلى «**العتبة**» والثالثة إلى «**القصر العيني**»، حشر نفسه بين الأجساد المكدسة، ولولا «**سيد**» ما وجد لنفسه موطأ قدم ولا مقعد يؤويه كل هذه

المسافة، أثره «**سيد**» على نفسه، وغادره منذ قليل ليستقل حافلة أخري تعبر به «**كوبري زينهم**» من «**أبو الريش**» وحتى «**مساكن زينهم**» حيث عمله، وصل إلى المكتب قبيل أذان الظهر بقليل، ارتقى السلالم الضيقة ثم عبر الباب الخشبي المتهالك، المفتوح على مصراعيه، اقتحم ضجه حوارهم المنفعل، لم يتخيل زملاءه في العمل أن يأتي اليوم، دهشوا عندما جاء، أقبلوا نحوه في تأثر، وقلبوا شفاهم في رثائه، لقد بدا أكثر عمرًا مما كان، اكتشفوا تلال الهم على وجهه بارتفاع المقطم، وقد نال الشيب من رأسه، فلم يبقِ ولا ولم يذر، تقدم نحوهم وقد زر كتفيه متمتمًا بكلمات شكر، وعزاء من ضاعت نفسه هدرًا.

لم يكن «**زينهم السمان**» بالموظف المحبوب بين زملائه، على الرغم من تنقله بين مكاتب التموين، اجتمعوا على أمانته والتزامه وطهر يديه، وعفة لسانه، وأنه جعل القناعة مذهبًا وسبيلًا، لم يسرق أو يرشُ أو يفسد وفي الوقت ذاته لا ينفعل أو يعترض على فساد ينسج أمام عينيه، يبغض الفاسدون عفته، ويمقت الصالحون صمته وما بين ملاك ساذج وشيطان أخرس تمر ساعات اليوم السبعة وأيام الأسبوع الستة وسنون العمل الثماني عشرة.

كان يضع نفسه دائمًا على الحياد صنع الفلك الاختياري حتى لا يغرقه الطوفان.

وبعد دقائق قليلة سطر فيها طلب إجازته، أسبوع واحد مؤقتًا يدبر فيه حاله، عاد كل منهم أدراجه، غمس الأستاذ «**مراد**» عمود آخر من البقسماط في كوب الشاي باللبن وانزعج بشدة وعقد حاجبيه عندما اكتشف انهيار درجة الحرارة وربما لعن «**زينهم السمان**» في سره وبيته والزلزال و«**بنداري**» واللبن المغشوش وزوجته، وعادت السيدة «**عنايات**» إلى ورقتها تراجع خوارزمية الجمعية حسب عدد الأسماء والتوصيات، لا تدري هل تعرف موسوعة «**جينيس**» للأرقام القياسية كم جمعية نظمت؟ إنها تنتظر ذكر اسمها من السيد «**جلال علام**» في إحدى حلقات برنامجه «**مواقف وطرائف**». تنهدت بعد أن تذكرت الحاحها على «**زينهم السمان**» أن يقتحم عالم الجمعيات لمرة أولى في حياته، ولكنه أبى كعادته، غبي، لم يحسب المقادير، كانت فرجت كربته وعدلت ميله، تمتمت بكلمات غير مفهومة وكأنها استعادت جزءًا من كبرياء المنجمين بعدما لم يستجب التابعون، مطت شفتيها وهي تقدم «**بنداري**» مركزين إلى الأمام، ارتفع صوتها عندما ذكرت «**إليونيسف**» وأحقيتها في منصب سفيرة النيات الحسنة، لم يسمعها الأستاذ «**رياض**» وهو يمرر أصابعه في لحيته القصيرة المهذبة مندمجا في قراءة جريدة الشعب، وتتحول عيناه بين سطور مقال السيد «**مجدي أحمد حسين**» وتصريحات الدكتور «**إبراهيم شكري**» رئيس حزب العمل وهو يحمل الحكومة مسئولية كارثة الزلزال وتبعاته.

لاحظ «**زينهم**» ذلك الشاب التائه بين ثلاثتهم يشكو أنه لم يتسلم بطاقته التموينية، خبره «**مراد**» في صوت لا يخلو من الحدة إنها أرسلت إلى التاجر، رد الشاب بصوت ضعيف منهك أنه ذهب إلى التاجر وأخبره أنها لم تصل، أنهت «**عنايات**» الجدل مبكرًا أن يمر عليهم الأسبوع القادم حتى يأتي الأستاذ «**زينهم**» وغمزت ل«**زينهم**» من خلف كتف الشاب، الذي زر كتفيه ونكس رأسه، بينما ودعهم «**زينهم السمان**» بإشارة من يده، غادرهم وصدى وصيه «**رياض**» يشيعه أن يتوجه إلى هيئة التعاونيات ليسجل اسمه ويثبت تضرره من الزلزال مخالفا لما يعتقد أن الحكومة لا تجود لها سحابة ولن تدعى فتجيب، انصرف «**زينهم**» وهو يحدس أن في هيئة حكومية أخرى مثل هيئة التعاونيات حتمًا سيجد من يحتد عليه ك«**مراد**» ومن يسوفه مثل «**عنايات**» ومن يحبطه مثل «**رياض**» ومن يخذله بصمته وحياده مثل ....مثله هو.

واليوم المفتوح للمتاهة يبدأ أولى برامجه، لا يدري من أين يبدأ وإلامَ ينتهي؟ وهل يتوه مثل تيه هذا الشاب؟ مؤكد.

سمع من « **بنداري**» عامل النظافة وهو يشيعه ان شارع «**القصر العيني**» على فوهة الغليان، مظاهرات من الأهالي خاصة أهالي «**السيدة زينب**»، رافضين خيم الإيواء، منددين بموقف الحكومة الهزيل، وإهمال الأحياء وهيئة التعاونيات ومحافظة القاهرة.

تبرع بالدم.

استقبلهم نفس الرجل الذي يرتدي معطف أبيض متسخ الاكمام الذي يقف يوميًّا في نفس المكان في شارع القصر العيني، يقول عنه «**بنداري**» إنه تاجر أكياس الدم، إنه يشتري الدم من المتبرع بعشرين جنيهًا كاملة، والكثير من الناس يقع في فخ الخديعة ويتبرع بلا مقابل، لاحظ «**زينهم**» هذا الرجل النحيل الشاحب الذي قام على الفور من كرسي التبرع بعدما انتزعوا مسبارًا من ذراعه، ويتناول بيد علبة عصير «**بست**» وبالأخرى يخفي ورقات مالية بين ملابسه.

تمتم «**بنداري**» بكلمات غير مفهومة تفوح منها رائحة السخرية، سمعها «**زينهم**» في غير انصات، ولم يلحظ جملة «**بنداري**» الأخيرة ربما سأله هل يشترك معهم في التظاهر والاعتراض؟

لا يعرف «**زينهم**» هل طرق برأسه خصيصى كي لا يواجه نظرة «**بنداري**» الساخرة دنيئة التمكن، يحرص «**بنداري**» أن يختم حديثه بجملة تشبه المطرقة تصيب مكمن من يحاور، تنال منه، يحظى بلحظة انتصار خفية عندما ينكأ جرحًا، نقطة ضعف، لحظة خزي، لا يبتز بها أحدًا، ولكنه يثبت للجميع مدى حضوره، وعلو قدره.

يعتقد «**بنداري**» أن التظاهر والاعتراض أبعد ما يكون عن «**زينهم السمان**»، فهو رجل «طيب» يكررها «**بنداري**» دائمًا في حديثه مع « **زينهم**» يشعر بعدها

بالإهانة حتى لو جاءت في سياق المدح، وفي قرارة نفسه يعتقد «**بنداري**» أن «**زينهم**» ليس رجلًا شريفًا كما يبدو فهو بالأحرى رجل جبان، يضيع من عمره سنوات في الخوف وزملاؤه يهنؤون بخير وظيفتهم التي تكفل لهم الكثير، مما اضطره أن يستبدل معاشه من أجل خطوبة ابنته، وعليه الآن أن يبيع ملابسه كي يزوجها، وقَلَبَ شفتيه وهو يتمم لو أبقى الزلزال ما يستحق.

الموقف الوحيد الشجاع الذي شهده «**بنداري**» لـ«**زينهم**» كان هنا في شارع «**القصر العيني**» تحديدًا عند محطة انتظار أتوبيس النقل العام، عندما توقفت سيارة «**فولفو**» يقودها ممثل شهير طاعن في السن أمام طالبة في القصر العيني وفتح الباب المجاور له ودعاها للركوب، تصلبت مكانها كشجرة تساقطت أوراقها من الذهول، أشار إليها مرة أخرى، دارت بعينيها في الوجوه الحاضرة تستغيث، وكان «**زينهم**» إلى جوارها يترقب، وقد سكنت نظرتها الحائرة فوق وجهه، حسم أمره وتقدم نحو الباب المفتوح وأغلقه مما استثار الممثل الذي اربدَّ وجهه وزالت عنه هيبته التي تصنعها الكاميرا وسلق «**زينهم**» ببذاءة لسانه وعاود فتح الباب مصرًّا، ولكنه اكتشف اختفاء الفتاة التي تراجعت خلف كومة من المنتظرين الذين حركتهم النخوة وتشجع أحدهم وصفق الباب في قوة خلعت قلب الممثل، وقبل ان يوبخه تجرأ آخر وسخر من شعره المصبوغ وسلسلته الذهبية التي انعكس ضوؤها في عين

«**بنداري**» التي ما زالت ترقب «**زينهم**» الذي تراجع خطوتين إلى جوار الفتاة التي كانت تبكي بلا توقف، حتى بعد انسحاب الممثل المتصابي، تبادل الجمع نظرات الظفر الممزوج بالأسف، على التحرش في وضح النهار، حكي «**بنداري**» الحكاية لكل من قابله بعدها، مغلفة بخلطة «**بنداري**» السحرية في الحكي مؤكدًا موقف «**زينهم**» الشجاع والذي لم يكتمل كالعادة، يضيف «**بنداري**» جملته الأخيرة بنبرة صوت منخفضة علامة الأسى والخذلان.

ترجل «**زينهم السمان**» على غير هدى، عبر كوبري «**زينهم**»، منحسر في فقاعته، تحيطه أعمدة الدخان الصاعدة من أسفل الكوبري عابرة خلال الفواصل المعدنية، يشقه ركب السيارات، تنزلق كعفريت بعث من القمقم ليغزو بلاد الأساطير، هل تبرع أحدهم بحرق القمامة تحت الكوبري، أم هي غضبة أرض، تزلزلت وتصدعت وها هو زفيرها يفور، حانقة على من مروا من هنا.

عبر شارع «**بيرم التونسي**» حتى وجد نفسه على مشارف شارع «**مهدلي**» ورأى البيت رقم **٥٤** وهو على وشك السقوط.

تملصت دمعة ساخنة من بين جفونه، فكت شيفرة رتاج قديم صدئ، لصندوق محتقن الذكريات، انفكت أوراق الرزنامة المضغوطة تحمل سنين عمره الخمسين، تبعثرت، شهور وأيام ودقائق ولحظات، قضاها هنا بين

الجدران، يرى فوق البيت صورة أبيه ممددًا فوق فراشه، شاحبًا، منقطع الأنفاس، منسحب الروح، نفس الجدار التي تصدره عبارة:

«حج مبرور وذنب مغفور للحاج محمود السمان».

وتحتها صورة خافتة للبيت الحرام ، تقدم «**زينهم**» خطوتين من الباب الخشبي الطويل، تحسس رائحة الرطوبة، لم يزعجه الصرير الصادر عن فتح ضفته، والتي تهدلت بفعل الزمن حتى صارت تحتك بأرضيته الإسمنتية غير المنتظمة، دلف إلى البيت ورائحة الغبار تسكن مدخله، دوي الصمت يحتل ناصيته بعد أن كان يصرخ بالضجيج، لم يتبق سوى صوت قطيرات صغيرة متباعدة تصدر عن الصنبور التي تهالكت جلبته، وحار في أمر وجوده منذ زمن، كلما فاتح الحاج «**مرعي**» صاحب البيت أن يلغي هذا الصنبور الذي يحتل وحوضه صدر الجدار المقابل لشقته في الدور الأرضي ويزحم مدخل البيت بلا فائدة، وتسببها في نشع الرطوبة في الجدار، لم يتلق جوابًا، مات الحاج « **مرعي**» وما زال الصنبور ينزف، هل هذا الصنبور الدائم النزف هو سبب انهيار البيت؟ هل تجاهل الحاج « **مرعي**» رحمه الله وورثته من بعده أمر هذا الصنبور عنوة أم ائتمر القوم لإخلاء البيت من قاطنيه، حتى يخلو لهم وجه الأرض، وتشييد بناية تؤتي أُكلها بدلًا من الدراهم المعدودة التي لا تسمن، هذه الدنيا، لقد أسدى الزلزال صنيعًا لبعضهم كما أدى الهلاك إليه،

تراخت يده عن فتح باب الشقة، لا يقوى أن يراها خاوية على عروشها، يكاد أن يسقط مغشيًّا عليه لولا تلك اليد التي ربتت على كتفه، وشدت عضده، التفت خلفه و..

وجد نفسه في صدر صديقه: «**محمد أبو ستيت**».

ولم تكن سوى دقائق معدودة حتى اكتملت المائدة، بعدما رصت الحاجة «**تحية**» آخر الأطباق أمام «**زينهم السمان**»، تحيطها ابتسامة رضا من زوجها الحاج «**محمد أبو ستيت**»، وهو ينقل ناظريه بين أطباق الفتة وصينية الطحال والنفوس المطعمة بالفلفل الحار أو ما يطلق عليها في ربوع المذبح اسم «**التسوية**» يعشقها كلاهما، كانت الأكلة الوحيدة التي يجيدها «**محمد أبو ستيت**» تشبع منها «**زينهم السمان**» في السنة الوحيدة التي قضاها في الخليج، بالإضافة إلى الشعرية بالسكر واللبن، تبادلا النظرات كمن دهمها نفس قطار الذكري عندما كانا في «**بريدة**» كانت شقة الحاج «**محمد أبو ستيت**» في البيت الذي يملكه في شارع «**بسيوني**» تنم عن سعة، بأثاثها المذهب ومقاعدها الوثيرة وطاولتها ضخمة المتسع، والتلفزيون الملون صاحب الحادية وعشرين بوصة «**سيكام**» الذي يحتل قلب المكتبة الزان البنية المستندة على جدران الصالة المطلية بالزيت بألوانها الحاضرة، لا شية فيها تسر الزائرين، والفضل بعد الله لهذا الرجل الذي تحتل صورته المؤطر بإطار ذهبي نصف الجدار الاخر

الحاج «**أنور أبو ستيت**» -رحمه الله- أشهر سلاخ في مذبح مصر وقد ورث مهنته لابنه الوحيد «**محمد**» - رغم اعتراضه في البداية وتمرده الذي لم يستمر طويلًا- انصاع بعدها لرغبة أبيه وحسنًا فعل، ولم يورث فقط مهنته وأمواله وبيته وقامته الطويلة وأنفه الأقنى وعينيه البنيتين الدقيقتين، وشاربه الرفيع، وجبهته العريضة وتشجيع نادي الزمالك، بل ورثه مهابته ومكانته، وكان الاستثناء الوحيد في هذا الإرث هو حب المقامرة أكثر ما اشتهر به الحاج «**أنور أبو ستيت**» في مباريات الكرة، الأمر الذي اشتُهر به معلمو المذبح في تلك الفترة، يتذكر «**زينهم السمان**» ملامح وجه «**محمد أبو ستيت**» عندما خسر والده أكثر من مائتي جنيه في مباراة الكأس بين الأهلي والزمالك عام ١٩٧٨، لم تصب آفة المقامرة «**محمد أبو ستيت**» وهو الولد الوحيد، لم تجعله يحيد عن طريق الرشاد، فزادت ثروته وتمددت ممتلكاته وبقي طوال حياته بلا نقطة ضعف اللهم إلا «**أمير**» ولده البكر.

تبادلت الحاجة «**تحية**» كلمات موجزة مع «**زينهم السمان**» عن «**نجاة**» والأولاد، وما حدث مع أسفها عما آلت إليه الأمور، وخصت بالذكر «**علي**» صديق ابنها «**أمير**»، وجدها «**زينهم**» فرصة للاطمئنان على «**أمير**» أخواته البنات، استعدت «**تحية**» أن تبوح بشيء لولا نظرة معاتبة من عيني الحاج «**محمد**» يعيها «**زينهم**» جيدًا، ولكنه تظاهر بالعكس، بترت «**تحية**» جملتها، ولملمت شتاتها في ابتسامة خجلى، وأومأت برأسها معتذرة منهم بأن الطعام

قد يبرد، ودعتهما واختفت إلى الداخل، قطعت نظرات «**زينهم**» معزوفة «**محمد أبو ستيت**» في شرب الحساء من طبقه العميق وتوقفت قطعة لزجة من الكوارع على حدود شفتيه:

كانت عاوزة تشكيلك مني لأني منعته من دخول البيت ...

قالها «**محمد أبو ستيت**» وهو يشمر طرف كم جلبابه ويتناول قطعة من «**العكاوي**» التي وضعت أمامه، ويضعها في يد صديقه، مشجعًا ومحفزًا، وتناول رغيفًا من الخبز البلدي ووضع في رحمه قطعة من الكرشة الغارقة في الصلصة الحارة كما يحبها رغم التهاب البواسير المزمن الذي يعانيه، وقبل أن يقضمها توقف لحظة وكأنه يعقد أمره.

انا هبيع شقة مصر الجديدة والعربية كمان.

هم «**زينهم**» أن يقول شيئًا ليهدأ صديقه ولكن أخذ الحاج «**محمد**» على يده، يعرفه دائمًا عندما لا يرغب في استكمال أمر ما، لا قوة ترده، اعتذر منه الحاج «**محمد**» ولكنه يعرف ابنه «**أمير**» أكثر منه وان سفره الدائم إلى بلاد الخليج أثر سلبًا على تربية ولده الوحيد، حتى أنه لم يلقِ بالًا لهم ولم يتصل للاطمئنان عليهم بعد الزلزال عكس أخواته البنات.

تنهد «**محمد أبو ستيت**» في عمق كمن تجرع علقم الذكرى بعدما سخر من صديقه الذي لم يطيق الغربة سنة واحدة، يعود بعدها ليحيا بين أولاده،

فقيرًا موظفًا، ولكن دفء بيته أغناه، بينما فضل هو جمع الدينار فوق الريال والدرهم ولكنه فقد شيئًا ما لا يدركه رغم المال والقدرة والمكانة والتمكن، ولكن دافعًا ما غير المال يدفعه بعيدًا، لا يدري هل اعتاد الغربة؟

هل ألفها إلى هذا الحد؟

هل ما بقي من العمر يستحق كل تلك المعاناة؟

هل قرار عودته إلى «**مصر**» نهائي؟

صوت داخله يؤكد هذا، يكفيه ما قضى من العمر بعيدًا عن زوجته وبيته وأولاده، ومخاطرة العمل في الخليج ما زالت موجودة بوجود «**صدام**» على رأس السلطة في «**العراق**» ورغبته في الانتقام بعد حرب تحرير «**الكويت**»، لا أمان في السياسة، ربما ترضى عنه «**أمريكا**»، ويجتاح الخليج مرة أخرى. ولكن صوتًا آخر مفعم السخرية يذكره بمكالمة الخواجة « **توماس**» الذي يرغب بشدة في استقدامه إلى مجزر « **الدمام**» ووعده برد قريب.

يشعر أحيانًا أنه يحسد صديقه على حياته، تمتم مستغفرًا بصوت مسموع، يرمق صديقه الذي طمح ببصره، زاد هم صديقه، ولكن هكذا اعتادا، لا اعتبارات بينهما، البيت واحد، والعائلة واحدة، والعمر واحد، لقد تحمل «**زينهم**» كثيرًا، وما زال مؤهلًا لمعاناة جديدة ولكن يبقى في عينيه رضا مجهول المصدر.

- مفيش أخبار عن «عرفان»!

يسأل «**زينهم**» كي يحول دفة الحديث، توقف بعدها الحاج «**محمد**» عن التقام قطعة المبار وعبس وجهه فجأة، وصرحت ملامحه الدقيقة والعرق الذي يقطر من مسام أنفه الأقنى -عندما يصيبه التوتر- في إعلان غير كتمان، رصاصة طائشة أصابت هدف غير منشود، وكانت الإجابة حاضرة:

لقد أصيب «**إبراهيم عرفان**» في الزلزال.

طلت علامات الفزع من عيني «**زينهم**» ولكن طمأنه الحاج «**محمد**» أنه بخير لولا كسر في الذراع وكدمات بعد أن انهار عليه جزء من مسجد «**السلطان الحنفي**».

توقف كلاهما عن الطعام، أحس الحاج «**محمد**» بذنب هائل، وأنه تسرع في إخبار «**زينهم**» فهو لديه ما يكفي، ولكن «**زينهم**» أبى إلا أن يذهب ليطمئن على «**عرفان**» حاول الحاج «**محمد**» إثناءه دون فائدة، فقد عزم على الذهاب، لم يجد «**محمد أبو ستيت**» من بد، فرك يده في مفرش المائدة، وتناول عباءته الصوف ولحق بصديقه، واوصد الباب خلفه وركبا سيارة الحاج «**محمد أبو ستيت**» ماركة بيجو ٥٠٤ وانطلقا إلى شارع «**مراسينا**» في «**السيدة زينب**».

بينما استوت الحاجة «**تحية**» على مقعدها بعدما تيقنت أن زوجها وصاحبه قد غادرا ودارت أصابعها السمينة في فتحات قرص الهاتف وانتظرت حتى

جاءها صوت الهاتف ورنين في الجانب الآخر. هادئًا ورتيبًا ...ولا مجيب لندائها.

***

هنا آخر الرحلة.

هنا لا فرق بين رجل وامرأة وطفل.

الكل واحد في مشرحة «**زينهم**».

على الرغم من الزحام الشديد حول البوابة الخارجية والأصوات العالية المتداخلة والأيدي المتشبثة في القضبان والصراخ الذي يملأ المكان، جلس «**رمضان**» حارس البوابة على الجانب الآخر يتوسد الأريكة الخشبية، يلتهم سيجارته غير مبالٍ ولا معنيٍّ بالمشاحنات والصراعات التي نشبت بين الحشد، بعد منعهم من الدخول.

«**رمضان**» الحارس، مارد هارب من بلاد الأساطير بملامحه الغليظة وأسنانه السوداء النصف متهالكة وقامته الشاهقة، ورأسه نصف الأصلع، إلا من خصلات ناعمة طويلة امتدت بطول رأسه، فشلت أن تكسو رأسًا غلبه التجريف، يقوم لهم بين الفينة والفينة مزمجرًا بصوت جهوري، يزوم كثور فيجمد الدم في العروق، مهددًا ومنذرًا، حتى تصدر كلمات تروم

إرضاءه تأتي من جهة صوت عاقل، يعود بعدها «**رمضان**» لهدأته بعد غضبته المفتعلة، حكاية كر وفر مكررة بينه وبين أهالي الضحايا في مشرحة «**زينهم**» ولكن اليوم العدد مضاعف بسبب الزلزال، لم يعد هذه المرة إلى الأريكة عندما ظهر من خلفهم هذا الشاب النحيل المرسومة على وجهه ابتسامة ساخرة.

عض «**رمضان**» على شفته السفلى عندما رآه وقد اضطر لفتح البوابة، ألقى سيجارته واقترب من مزلاج البوابة، وسط ترقب وتزاحم الحشد، وقد استعدوا للاقتحام، بينما حذرهم «**رمضان**» بدمدمة تحذيرية، شمر عن عضلاته المفتولة، وختمها بإنذار مباشر أنه لن يتورع أبدًا عن إيذاء من تسول له نفسه الاقتحام، سواء كان رجلًا أم امرأة، شيخًا أم عجوزًا؛ لأنه غير مسموح إلا بدخول الموظفين، والموظفين فقط، سرت همهمة بين الحشد واستعد بعضهم لاتخاذ القرار بالاقتحام، ولكن هيهات، فبمجرد أن فتح «**رمضان**» المزلاج وفتح البوابة، وصنع من صدره جدارًا ودرعًا حال بينهم وبين البوابة، دلف الشاب النحيف من بين يديه، أغلق بعدها البوابة بسرعة رغمًا عن الأيدي المتصارعة والأصوات المتلاحقة، واختفى الشاب الذي عبر الرواق، حاول «**رمضان**» نداءه، دون فائدة، فقد مر من البوابة الداخلية.

دلف «**سيد**» إلى قلب المكان وحول عينيه بين الحجرتين المفتوحتين بداخل بعضهما البعض، يجتمع فيهما الجميع، الأحياء بجوار الأموات، ألقى

تحية على الجميع، ردوها بوجوه عابسة، أرهقها العمل منذ بداية الأحداث، غير ما أصاب بعضهم أو أصاب ذويهم من أثر الزلزال.

تابع زميله «**شحته**» وهو يحشر حالة في أحد الادراج الست من إحدى الثلاجات الثماني الواقعة في الغرفة الاولي، يبدو ان العمل على أشده، تابع المسير حتى غرفتي التجميد، وقد تم تخصيصهما لـ المجهولين غير المستدل على هوياتهم، أو الذين لم يأتِ من يتسلمهم من أهلهم للدفن، فيتم وضعهم بإحدى هاتين الغرفتين تجنبًا للتعفن، نظرًا لأنهم سيمكثون وقتًا طويلًا داخل المشرحة.

أما الغرفة الثانية يوجد بداخلها دولاب به أكفان في مقابله سرير صغير، وفى المنتصف بينهما توجد منضدة عليها سخان، وأوراق، وشمع أحمر، يتم استخدامه لتشميع أي حرز يتم التحفظ عليه، أو التحفظ على العينات التي تُؤخذ من الجثث بعد تشريحها يتخللها مقعد وحيد، وبجوارها خوان خشبي صغير متهالك عليه أدوات إعداد الشاي.

جلس على المقعد الحديدي الصدئ في هدوء وبدأ في إعداد كوب من الشاي، يخفف من الصداع الذي سببه قله النوم والمشوار الطويل من مدينة «**السلام**» وحتى عمله في مشرحة «**زينهم**»، رشف أول رشفات الشاي الساخنة وقد لحق به «**شحته**» مغاضبًا، وفي عينيه عتاب ولوم.

«**شحته**» حاضر من الدوام الليلي وكان عليه أن يغادر في الثامنة، والآن تجاوزت الحادية عشرة و«**سيد لبط**» بارد الإحساس، متبلد الشعور ما زال يعد الشاي، أشار له «**سيد**» مقاطعًا وهو يتنهد باصطناع، وحكي له سريعًا ما حدث، وأنه اضطرَّ أن ينتقل إلى مدينة «**السلام**» مع أخته بعد أن شارف البيت على الانهيار، هدأ «**شحته**» قليلًا متفهمًا.

يمتلك «**سيد**» مفاتيح «**شحته**»، دائمًا يثور بسرعة ويهدأ بنفس السرعة.

«**شحته**» فني التشريح مثل «**سيد**» تمامًا.

وفني التشريح هو مساعد الطبيب الشرعي يقوم بإمداده بالأدوات اللازمة في أثناء بداية التشريح، ويساعده أيضًا في تشريح الجثة، ويعاون الطبيب في كل مهامه ولا يكون في الحجرة سوى الطبيب الشرعي وفني التشريح والجثة فقط، وتكمن مهمة الطبيب في تشريح الجثة ومعاينتها وكتابة التقرير الطبي.

وعلى الرغم من التناقض الواضح بين الشخصيتين فإن ثمة صداقة قوية نبتت بينهما، ربما كان الاختلاف واحد من أسبابها، «**شحته**» عصبي ومتدين وملتزم ومنظم ومتزوج بينما «**سيد**» هادئ مستهتر فوضوي متعدد العلاقات، عندما يغضب «**شحته**» يسحبه «**سيد**» إلى حكاياته، ربما يجد «**شحته**» في الإنصات إليه نوع من اللذة الغامضة المفقودة، وبعد أن يغرق

في بئر «**سيد**» المسحورة، ومغامراته ويتيه لحظات في عالمه المسحور، يفيق «**شحته**» كملسوع، مستغفرًا، وذاكرًا، وطالبًا الهداية لـ «**سيد**» ويهجره موبخًا، بعدها تشيعه ضحكة «**سيد لبط**» الشيطانية.

يعتقد «**شحته**» في طيب أصل «**سيد**»، لا عار عليه ولا سبة إلا انفلات سلوكه المحدود، عسى الله أن يهديه، ومع الوقت سوف يعرف بنت الحلال التي ستقوده حتمًا إلى الصراط المستقيم.

ارتدى «**سيد**» ثوب العمل الطبي، ولاحظ بالفعل ارتفاع وتيرة العمل، ودع صديقه الذي غادر هادئ النفس فرحًا ببشري «**سيد**» انه سوف يبيت الليلة في المشرحة وسيتحمل الورديات الليلية القادمة حتى يتسنى لـ «**شحته**» المبيت بين زوجته وأولاده تحسبًا لزلزال آخر، شكره «**شحته**» ولسانه يلهج بالسعادة، وجدها «**سيد**» فرصة في تخفيف العبء عن المنزل قليل المتسع، سوف يبيت في المشرحة ويعود في الصباح والبيت حتمًا سيقل عدد أفراده، ولكنه كان يراها فرصة أن يكتشف المنطقة هناك نهارًا، ليست المنطقة ككل بل الجنية المسحورة التي شقت الظلام وظهرت له، ولكن هل تظهر الجنيات نهارًا ربما؟

يعمل «**سيد**» داخل مشرحة «**زينهم**» منذ ثلاث سنوات ما أكسبه خبرة عالية في التشريح بوجه عام، وأصبح يُعتمد عليه في التشريح بشكل أساسي.

يرى «**سيد**» أن الإنسان لا قيمة له هو هنا مجرد رقم، خاصة مجهولي الهوية، مرت عليه آلاف الجثث المقتولة والمذبوحة والغارقة والمحروقة، كان يتقزز منها بداية، ثم مع الوقت اعتاد عليها، وربما يستمتع بها، يجاهر بعمله في جرأة يحسده عليها «**شحته**» الذي يخفي عمله خوفًا من نظرة الناس له.

كل ما حوله يدعو للتأمل حد الدهشة، للبكاء حد السخرية، خاصة عم «**عياد**» مغسل المشرحة رجل طويل القامة، أحدب نحيف تجاوز عمره الثمانين، تختفي ملامح وجهه تحت لحيته الكثيفة البيضاء، لا ينطق بأي جملة دون أن تسبقها آية قرآنية، أو حديث نبوي شريف، ويعمل «**عم عياد**» منذ أكثر من ٥٠ عامًا في غسل الموتى وتكفينهم داخل مشرحة «**زينهم**»، وقد ورث المهنة عن أبيه، وأبوه ورثها عن جده.

يتذكر «**سيد**» أول لياليه في المشرحة.

كانت المشرحة التي تضج في الحركة نهارًا، غارقة في بحر السكون ليلًا، جلس وقتها إلى جوار «**عم عياد**» الذي وضع قطعه من الأفيون تحت لسانه، ومضغها، وبدا شاردًا وكان صوته رخيمًا متعدد الصدى، يأتي من بئر خاوية سحيقة:

الموتى هنا يتكلمون، يسمعون، لا يراهم بعينيه، بل يشعر بهم، كلما شعر بتلك الرعدة في أوصاله، يعرف أن الروح حضرت، إنها العلاقة الأبدية التي

نمت بينه وبينهم، علاقة وصل لا يخالطها منفعة، ولا يرهقها ضر، لا مطمع لها في الارتقاء، ولا مخافة أن يطولها مذلة، نور من الروح يسطع يداعب سناه حبل الوريد، الموتى أرواح هائمة تتميز عن الأحياء بحق الاختيار، فهي تتواصل مع من تحب، وقتما تحب، كيفما تحب، التواصل والمودة اختيار، يعرف ذلك منهم، يسمع حسيسهم وهمسهم، يشكو إليهم ويشكون إليه.

يبكي « **عم عياد**» عندما يتذكر ولده الصغير فقد كان يغسله بدموع عينيه، ولكن ما هون عليه ألم فراق الجسد، هو خلود الروح ومن ملك سر التواصل.

كان يسمع «**سيد**» حكاياته بداية، بخوف وتوجس ثم تحول مع الوقت إلى سخرية واستهزاء، الميت شخص راقد بلا حراك، نائم بلا يقظة، مستسلم، يعريه، يحركه كيفما يشاء، يقلب فيه، يتحسس أطرافه، يجذبه، يهيئ وضعه لأخذ العينة كما يريد، بلا مقاومة، لولا اللزوجة التي تشبه ملمس العجين.

كان «**شحته**» محقًّا، الضحايا أكثر من اللازم لماذا يأتون بهم إلى هنا؟

ليأخذوهم إلى مدافن الصدقة، سأل د.«**عطية**» الذي يساعده، فرد عليه الأخير وهو يغرس مشرطه في أحد الضحايا، لا بد من التيقن من سبب الوفاة حتى لا يرتكب أحدهم جريمة ويلصقها زورًا في الزلزال، وأنت تعرف طبيعة الشعب وألاعيبه المبتكرة التي لا تنتهي، قالها وخرج يلتهم سيجارة

أخرى، د.«**عطية**» مدخن شره، يستعيد نشاطه وتركيزه فقط عندما يعاقر لفافة التبغ، يعرفه «**سيد**» دائمًا لما تهاجمه نوبة صداع مفاجئة يقول وقتها.

اسحب جثة واشتغل فيها يا د. سيد.

يثق «**د.عطية**» في قدرات سيد ومهاراته وعندما يمنحه لقب الدكتور فهو يشركه في المسئولية التي دائمًا ما يكون عند قدرها، في العمل فقط يتحول «**سيد**» الى كائن أسطوري بعدما يرتدي معطفه الطبي.

سحب «**سيد**» الجثة التالية لإحدى المجهولات والتي اختفت ملامحها، تأملها تبدو فتاة شابة ووضعها في الثلاجة حتى يستدل عليها، لو تعرف كل فتاة شكلها وهي على طاولة الموت، ما اغترت واستكبرت وغالت وتمنعت.

رأى الفزع مرة في عيني الفتاة التي ظن وقتها أنه يحبها عندما صارحها بطبيعة عمله، رأى عينيها تحدقان إلى الفراغ، ويدها كومة لحم مرتعد، وذهبت للحمام من سنتين، ومن يومها وهو يزعم -للبنات فقط-عمله في مركز صحة «**زينهم**»، يستقيم للجميع ذكر الأحياء وتتقوس الشفاه لذكر الأموات، يولون الدبر وهم له منتهون.

رأى من فتحة الباب «**رمضان**» يشير إليه، استأذن الدكتور «**عطية**»، وخرج إليه مستفسرًا، همس له «**رمضان**» أن ثمة أحدًا يريده بالخارج.

يعرف «**سيد**» **أنه لا** فائدة من التهرب منه.

المعلم «**الكحكي**» سمسار الجثث.

الذي ما زال يطارده.

استفسر عمن يسأل عنه في حذر.

أخبره «**رمضان**» أنها تقول إنها أخته.

دهش «**سيد**» ما الذي أتى بـ«**سمية**» هنا؟

لقد اطمأنَّ عليها من قبل، إنها وزوجها بخير، وبيتهم في «**عين الصيرة**» من المباني الجديدة التي لم تتأثر بالزلزال، خرج إليها، عابرًا البوابة والأكوام البشرية المحتشدة، كانت عيناها تمتلئان بالجزع ووجهها يتحامى، حياها بقلق ما الذي حدث وجاءت الإجابة من الشخص الذي يقف إلى جوارها:

إنه زوج ابنتها «**صابرين**»

ثقيل الظل الذي لا يحبه «**سيد**» أبدًا.

ربما لجديته المبالغ فيها أو لأنه اسمه « **فكري**» وهو لا يستسيغ هذا الاسم.

وربما لأنه لم يقدم له خدمة لأحد المعارف من الجمارك، فهو يعمل موظف في جمرك مطار القاهرة.

صابرين.... اختفت!

قالها الزوج بصوت مكسور ونكست «**سمية**» رأسها كمصلوب، وفتح «**سيد**» فمه بلا أدنى كلمة.

***

تابع العد والحساب، وقد تشاغل عن خصمه الذي نفد صبره أو كاد، وقد مرت الثواني دهرًا، تمتم بأرقام مسموعة، يردفها باستنتاجات متعددة، زادت من حنق الآخر الذي زفر تغيظًا، تحيطه نظرات حذرة مترقبة، وقبل أن يفقد الخصم ما بقي من صبر، ابتسم ابتسامته الظافرة، فلقد حسم أمره أخيرًا، طرق على الطاولة وهو يلقي بورقته الأخيرة مدعيًا أن لا خيار له:

قفلت.

لحظات من صمت، تتطلع خصمه مبهوتًا إلى تلك الورقة التي ذيلت قطار الدومينو الملتو، أظهر «**إبراهيم عرفان**» ما تبقى من أوراقه تاركًا المعلم «**بحبح**» يزفر في حنق وقد ظهر خانعًا مستسلمًا لهزيمته:

تكسب يا حاج «عرفان».

صاح «**إبراهيم عرفان**» في ظفر وسط دهشة المتابعين، فلقد نال من خصمه، كالعادة، رغم ذراعه المدثرة في جبيرة من جبس، ألقى في فيه ما تبقى من كوب الحلبة، والمعلم «**بحبح**» يبرر خسارته للشامتين والساخرين، المتهكمين

لخسارته، من زائري قهوة «**عنبة**» ب «**الناصرية**» والمقيمين الدائمين، وبينما يغادر استعدادًا لصلاة المغرب، سمع صوتًا مميزًا يأتي من خلفه:

«**جحا**».

ضحك «**إبراهيم عرفان**» ضحكته الصخبة المميزة التي ألفها أهالي «**الناصرية**» و«**السيدة زينب**» كلها عندما وجد أمامه «**محمد أبو ستيت**» و«**زينهم السمان**»، تعانق الرفقاء، حمدوا الله أنه ما زال بخير فقد مرا على بيته في شارع «**مراسينا**» (**عبد المجيد اللبان**) فدلتهما ابنته أنه هنا يمارس رياضته المفضلة « **الدومينو**» بعد إصابة يده.

«**إبراهيم عرفان**» أشهر «مكوجي رجل» بشارع «**المبتديان**» بجوار المستشفى العباسي.

تلاقت عيونهم لحظات.

جمعهم هو الدليل الوحيد أن في الحياة حياة.

رغم الشيب الذي زحف والمرض الذي أعيا ووميض الحزن المستتر خلف هالات حصينة، برعوا في نسجها، منهم خلقها من وقار وآخر من صبر وثالث من هذر، ولكنهم وقت اللقاء يرتدون على آثارهم، يتخذون من آلة الزمن مهربًا، يتناسون ما علق في صدورهم من هم وما في رؤوسهم من شيب. وقفوا ثلاثتهم كجذوع سنديانة يشد بعضها بعضًا.

حكى لهم «**عرفان**» ما حدث في سنة العصر، وأنه كاد أن يفقد حياته، ولكنه قدر الله.

الله أكبر. الله أكبر.

عادوا إلى المقهى بعد صلاة المغرب، رغب في البداية «**زينهم**» أن ينسحب فرحلته بعيدة، رفضًا في حسم، فلن تتكرر الجلسة كثيرا، وقد أخبرهم انه حصل على إجازة من عمله أسبوع يرتب فيه حاله، إذا فاليوم خمر وغدًا أمر، وتعهد الحاج «**أبو ستيت**» أن يوفده إلى أقرب مكان، ارتضي «**زينهم**» بعد تردد وهو لين في مقاومته، غير جاد في رفضه، يرفض شعور الاغتراب والذهاب بعيدًا عن أرض الأجداد أو أرض السباع كما سُميت من قبل.

كانوا رفقاء الشباب في «**أرض يعقوب**» ولم يتفرقوا حتى غادرها «**عرفان**» الذي عاش في بيت أهل زوجته الراحلة في شارع «**مراسينا**»، ولدوا في نفس العام تقريبًا، أحبوا نفس الفتاة مؤكدًا.

«**سميرة**».

مزيج رائع من «**ماجدة الصباحي**» و«**أودري هيبورن**» جمعت بينهما في قالب واحد، فاتنة ستينيات «**أرض يعقوب**» من قمة «**جبل يشكر**» حتى «**فم الخليج المصري**» كانت تسير في انتظام وتؤدة، خطوتها تنزع فتيلًا طائشًا يرجف له صخر «**المقطم**»، وإن حانت منها التفاتة لتفحص كعب حذائها

-كما حرصت واعتادت وتمكنت - يسهر لها «**سور مجرى العيون**» وتذبل عيونه أرقًا وسهدًا، وترتد خصلات شعرها الأمامية في الاتجاه المعاكس لتخفي نصف وجهها وتمنح لبسمتها المصاحبة لعينيها نصف المغلقتين نظرة إغراء، تتوقف معها القلوب التي في الصدور فتتمرد على النبض بينما تتوقف النظرات المتابعة في المسافة بين عينيها وكعب حذائها وابتسامتها العابثة.

يتذكر «**زينهم**»، عندما اعترض «**عرفان**» طريقها وغني لها «**يا حلو صبح يا حلو طل**» وهي تنظر له نظرات مستخفة، وهي تكتم ضحكة ساخرة حسبها «**عرفان**» وقتها أنها ضحكة إعجاب، أطلقت عليه وقتها لقب «**جحا**»، ورآه وقتها عمها «**عباس جعرة**» الراعي الرسمي لتجارة الحشيش في المنطقة وكاد أن يفتك به.

«**عباس جعرة**» إمبراطور شارع «**مهدلي**» ما رآه «**زينهم**» إلا ويرتدي فانلة بيضاء حمالات وسروالًا أبيض متوسط الطول، هائل الحجم، يحتوي على كومة لحم غير منتظمة، يشغل الشرفة التي يوجد بها ليل نهار، يتردد عليه بعض الفنانين ونجوم الكرة، حتى لو جاؤوا متخفين، وبعد أن توفاه الله أكمل أولاده المسيرة في عزبة «**أبو قرن**» المتاخمة لمنطقة «**أبو السعود**»، مع أبناء «**الخواجة**» الوكيل المعتمد للبلطجة والإرهاب في المنطقة.

غادرهم «**عرفان**» لحظات عندما ناداه أحدهم رجل نحيف رديء الهيئة، اختفى بعدها كعمود من ضباب وكأنما ابتلعته أرض «**الناصرية**»، يظن

«**زينهم**» أنه رأى هذا الرجل في مكان ما، لا يتذكر. شحذ ذاكرته بلا فائدة يتذكره بهذا البلوفر الأحمر المميز.

لاحظ هذه النظرة من صديق العمر «**عرفان**»، نظرة خبث سريعة التكوين، أعياها الزمن بعض الشيء، ولكنها أبدية قديمة ظاهرة، حتى لو بدت شاحبة، وأشار إلى صدره وما خفي تحت جلبابه، قطعة حشيش أتت توًّا من «**الجيارة**»، تمتم «**عرفان**» في ظفر، ثم أردف بعدما لاحظ نظرات «**زينهم**» المطاردة للرجل:

مسكين «ضاحي» بيعمل أي حاجة علشان يأكل ولاده، ده بيبيع دمه تلت مرات في الشهر علشان يكفيهم. العيشة بقت صعبة.

تذكره «**زينهم السمان**» نعم أنه الرجل الذي كان يتبرع بالدم صباحًا في شارع «**القصر العيني**»، يعمل أيضًا في توريد الحشيش وما خفي كان أعظم.

أي حاجة تقود الإنسان لهذا المصير؟

هل من حقنا أن نحكم على الناس؟

هل خلقنا ليقيم بعضنا بعضا؟

هل نجحنا في كل اختبارات الحياة أم ما زلنا نخوض التجربة تلو التجربة حتى نحصل على شهادة التخرج!

تبادل الحاج «**أبو ستيت**» و«**زينهم السمان**» نظرات رافضة بداءة، تحولت سرعان إلى تمتمات غير جادة، واستقرت في نظرة رضا، في عيون تتوق لإكسير النسيان الرسمي، الحشيش.

كان «**عرفان**» دائم الشرب أما «**محمد أبو ستيت**» فكان لا يأتي الحشيش إلا قليلًا، في المناسبات الخاصة حفظًا لهيبته، بينما لا يقربه «**زينهم**» إلا نادرًا.

تذكروا أول مرة شربوا الحشيش كان يوم خطوبة «**سميرة**».

لما خطبت «**سميرة**» وقتها لكبير عائلة «**الخواجة**» في صفقة دبلوماسية بين الرأس «**عباس جعرة**» والعضلات «**زاهر الخواجة**»، لتكوين حلف ناتو جديد يطوق أبناء كتكت في الجيارة وأبناء شلبي في «**قلعة الكبش**»، وكانت «**سميرة**» هي عروس «**أرض يعقوب**» التي قدمت قربانًا وأضحية لتأمين التجارة في ربوع «**القاهرة**»، فذابت قلوب العاشقين عند سماع الخبر، وذهبت عقولهم في حفل تأبين الحب الذي كان.

دارت ساقية النارجيلة بينهم، تخمش العقول، إنها آفة الحشيش، يثير عاصفة غبراء من كل شيء ولا شيء، كأنها ريح رمل عاتية، تثير الخامد المطمئن، تهيج المسكوت عنه والمنسي، توقظ الفتنة والرغبة والشغب، وعند ذروة الاحتراق يهدأ كل شيء وتفوح رائحة النرجس.

وضع «**عرفان**» المسجل على منضدة صغيرة، ومد السلك حتى يتصل بمصدر الكهرباء الوحيد الموجود على السطح، وضغط زر المسجل الذي بدأ

في الدوران بصوت موسيقى وتصفيق حاد وقتها التقط «**محمد أبو ستيت**» ذراع الجوزة المصنوعة من الغاب، بعد أن ضغط على الحجر المشتعل بالماشة الحديدية.

دائمًا يكون هو الفاتح حتى يطقطق الحجر ويزيده اشعالًا مستغلًا نفسه القوي وصدره المتسع، كما كان يؤكد «**ربيع الزيني**» رحمه الله وتعالى صوت القرقرة الذي غطى فوق صوت «**عزيزة جلال**» التي بدأت تشدو عبر الكاسيت المفقود بابه.

(لما حبينا وحسينا بوجودنا... قولتلي يومها النهاردة احنا اتولدنا).

تذكر «**محمد أبو ستيت**» لما تخلى عن جلبابه واستخدم الفازلين لأول مرة كي ينال رضاها، تذكر عندما شجعته نظرتها، تدللت فاقترب، ناهز حدودها فارتبكت، كاد اندفاعه وتهوره يفسد كل شيء، تلقى بعدها صفعة من الحاج «**أبو ستيت**» أعادت له اتزانه، تنهد بعدها «**محمد أبو ستيت**» في مرارة أنه لم يطق غضب أبيه وقرر وقتها ألا يرتدي سوي الجلباب المميز، لأحد كبار سلاخي مذبح «**مصر**» وتعلم ألا يفرط في هيبته مهما تكن المغريات باستثناء ما حدث بعدها مع أرملة «**ربيع الزيني**»، هناك عندما كان هناك أب يدين له الجميع بالاحترام.

(واتخاصمنا وانت الغلطان مش انا... خايفة بكرة الحب يهرب مننا).

وأتى دور «**عرفان**» تصاعدت أنفاسه المتلاحقة والضبابيات الصادرة من صدره عبر أنفه وثغره وحكاياته عن يوم الزلزال، وقتها نطق الشهادتين قبل أن يفيق على كومة من الناس تحمله إلى البيت، وبعدما رأى الرعب في عيون الجميع كأنه يوم الجمع، كان لا يخشى الموت، فقد فسح له القدر مرات، ولكنه كان يخشى عليها هي «**رحمة**» ابنته الوحيدة.

تألم «**عرفان**» لذكرها وأنه السبب في خيبتها.

هل يتنازل له عن الدكان الذي يستره، هل يرضى أن يتحول الدكان إلى نادي فيديو كما يخطط «**وحيد الزيني**»؟

هل يفك الدكان عقدة الخصام بين ابنته وزوجها؟

وهل كتابة الدكان باسم «**رحمة**» يحميها من نذالته؟

هل الدكان أهم أم ابنته؟

إنه روحه ودنياه وتاريخه؟

هل انقرضت مهنة مكوجي الرجل وأصبح ديناصورًا منقرضًا؟

تذكر عندما دهس كبرياءه وسأل «**محمد أبو ستيت**» عنه «**وحيد ربيع الزيني**».

إنه يعرف أنه لا يفارق ولده «**أمير**» فهل تحدث معه بشأنها؟

هل سيعود أم يطلقها ويذهب في غير رجعة؟

لم يجد «**أبو ستيت**» ما يقوله لصديق العمر، هل يقول إنه لا يرى ولده نفسه؟

يعتقد بعض الناس أن إنجاب البنات يجلب العار، بينما العار كله في ولده وبناته أكرم منه وأطهر، لا يدري ماذا يفعل معه، سبه ولعنه وخاصمه ونهره، ردعه ما ارتدع، تفاحة فاسدة أفسدت ما حوله ومن حوله بما فيهم «**وحيد الزيني**».

(لما بتخاصمني روحي بتخاصمني.... والقى نفسي تايهة والدنيا تايهة مني)

سعل «**زينهم**» -فهو لم يعاقر الحشيش منذ زمن-حتى احمرت وجنتاه وابتسم لقد راح البيت الذي يؤويه وتركه أخوه وانتقل إلى مكان موحش مقبض، كان يتمنى أن يجد «**عليًّا**» بقوته يسنده كما اعتاد، لماذا يبدو هكذا لا يدري.

صمتهم لم يدم، تشجعت عليهم الذكريات حلوها ومرها، تذكروا تلك الليلة من ليالٍ صيف ١٩٦٦ عندما قامت معركة في سينما «**إيزيس**» بسبب «**عرفان**» وصمد ثلاثتهم في وجه العدوان « **محمد أبو ستيت**» « **زينهم السمان**» و «**ربيع الزيني**» بينما اختفى صاحب الشرارة الأولى « **إبراهيم عرفان**».

وبعد عودتهم اصطدموا بشيخ الحارة الذي أبلغهم بطلبهم إلى التجنيد كلهم عدا «**محمد أبو ستيت**».

وذهب «**إبراهيم عرفان**» و«**ربيع الزيني**» إلى اليمن، كان «**ربيع**» وحده المتزوج بينهم وبدأت بشائر الحمل تظهر على زوجته بينما بقي «**زينهم**» سعيد الحظ كما ظنوا في مصر يتذكر عندما عاد «**عرفان**» وحده زاره في أول زيارة كان شاردًا، لدرجة أنهم أخفوه فقد كان يسلم على ناس لا يعرفهم في الشوارع.

لقد مات «**ربيع**» في «**اليمن**» بلا ذنب ولا سبب، يحكي «**عرفان**» وسط شروده أنهما في إحدى الدوريات الليلية، وفجأة وفي لمح البصر ظهر شبح ملثم من خلف «**ربيع**» ونحره بخنجر، صرخ «**عرفان**» محذرًا، ولكن بعد فوات الأوان، تناول سلاحه بسرعة وأطلق طلقه أصابت الهواء، استيقظ الجميع على صراخه، وعاد بعدها إلى القاهرة بعد انهياره التام.

رفع «**عرفان**» صوت الموسيقا الصادرة من الكاسيت الخالي من بابه، وانطلق صوت «**عزيزة جلال**» لا راد له ولا مانع:

(عايشة في احساس غريب معرفش مالي...تايهة خايفة يجرى تاني اللي جرالي).

سحقتهم كلماتها والهواء البارد ودارت رؤوسهم لحظات أو ربما كانت التوابع التي حذروا منها، أن الأرض مالت وتريد أن تعدل ميلها.

لا يدري كل منهم أن قطعة الحشيش قد انتهت وأن كل ما يشربونه هو أحجار خالية ولكنها سكرة اللقاء ورؤوس أثقلها الفكر وأعياها هم الدنيا، فقررت أن تقتنص لحظات مسروقة، مغلفة كقطعة الحشيش بورق من السوليفان زائف، يلمع وهو أكثر الناس إظلام كوجه القمر يظهر عكس ما يبطن.

(خايفة لتصالح وتغضب من هنا.... وتخاصمني وانت الغلطان مش انا).

لملموا رحالهم ورؤوسهم المثقلة، شربوا مزيدًا من الماء وودعوا صديقهم وتمنوا لقاء قريبًا وودعتهم «**عزيزة جلال**» ونصيحتها:

«خايفة بكرة الحب يهرب مننا...يرجع تاني جرحي ومتهنّاش بفرحي... وبعدك عني غربة».

حسم الحاج «**محمد أبو ستيت**» أمره وبعد أن وصل ب «**زينهم**» إلى «**الألف مسكن**» انحرف إلى شارع «**فريد سميكة**» ومن بعدها اتجه مباشرة إلى شارع «**الحجاز**».

***

زجاج مهشم، أثاث منسحق مبعثر، بقايا أحجار وذكريات ودفء تتناثر على جانب شارع «**الحجاز**» ب «**هليوبوليس**»، وكأن الدمار والخراب

والضياع والفساد تجسد في صورة واحدة، سقطت الطوابق الأربعة عشر ما لها من قرار، سكانها وروادها وزائروها ضاعوا بين غمضة عين، طافت قوات الدفاع المدني والمطافئ والمجندين والشرطة والنيابة العامة حول ركامها الذي بدا كالطود، بعدما فقد الجميع الأمل في انتشال أي حي، ويبقى انتشال الجثث من تحت الرماد هو الهدف.

وقعت عين «**حمودة الشاذلي**» على أحد الجثث وقد تشبثت أصابعها فوق سماعة الهاتف، لا يعرف إن كانت لرجل وامرأة، إنه الموت يطل برأسه ساخرًا من انشغال البشر، فاتحًا ذراعيه لهم حتى لو كانوا في بروج مشيدة، وقف يساعد في رفع إحدى الجثث لامرأة ستينية، ربما أتاها الموت وهي نائمة أو كانت تصلي العصر ترى أين روحها الآن؟ هل ترى نفسها من مكان ما؟

تودع حياتها الدنيا؟

وبماذا تشعر؟

أم انطلقت في ملكوت الله؟

طفل صغير في حضن أمه، تتشبث به حتى بعد الموت، أي رعب مر عليهم؟ هل كان يلعب فشعر بالزلزال، ولم يجد إلا ذراعيها كي يطمئن؟ وهي هل حاولت أن تفر بوليدها أم استسلمت للمصير المحتوم؟

استسلم «**حمودة**» لدموعه الفارة، علمه عمه «**عوض**» أن الدموع حرمت على الرجال، ولكنه القهر، الذي لا غالب له إلا الله، لا يعرفهم، لم يراهم من قبل، حتى لو رآهم من قبل فلن يتعرفهم أبدًا، مع التراب والركام والحجارة تغيرت الملامح، والوجوه، والأجساد، ويبقى الموت واحدًا، يبقى حقيقة مؤلمة.

تراجع «**حمودة**» إلى أسفل وهو يتفصد عرقًا، وعبر إلى الرصيف المقابل وقد تم إغلاق الشارع من جهتيه بعدما وقف أهالي الضحايا وسكان المنطقة خلف الشريط المانع للمرور، جلس على الرصيف وهو يتناول زجاجة ماء يروي بها عطشه ويُهدئ من روعه، ويعود بعدها ليكمل ما بدأ.

بينما ظل «**علي السمان**» هناك.

يقف بينهم، جذع خاو، تائه النظرات، ضال الفكر، فارغ القلب، يتحرك مع الجمع دمية مشدودة بالحبال، يقترب ويبتعد معهم خلف الشريط المعلق بالقرب من مستشفى «**هليوبوليس**»، عيناه معلقتان بالعمارة التي أمست تلًّا من الخراب، انخلعت أوتادها، تطوف بها الكشافات والنداءات وقوات الأمن، بينما ترنو لها الأنظار وتتصاعد الأنفاس لاهثة بالدعاء، لا يقطعها سوى المشاحنات التي تتكرر بين الفينة والفينة بين الأهالي و قوات الأمن التي تأبي أن تترك فسحة أو ثغرة للحصار الذي ضربته حول البقعة المنكوبة

تأمينًا لعملية الإنقاذ التي تمضي على قدم و ساق، ومع نفير سيارة الإسعاف يتجدد الأمل في وجود أحياء، تعبر بينهم في المسافة القليلة إلى المستشفى، كلما صدر النفير هموا خلفها خوفًا وطمعًا، وسرعان ما عادوا ناكصي الأعقاب، منكسي الرؤوس.

لا يدري كم من الوقت مر عليه؟

لا تعدو عيناه عن الركام تريد العودة، تمنى أن يخرجا من هذا الزخم ويفعل الله ما يريد، فقط يعودا سالمين.

تأتي الأخبار متقطعة، تسحق قلوب الأملين، وتسحب الدم من وجوه المرتقبين، لا حي بقي هناك إلا من كانوا في الطابق الأخير، أما باقي السكان ومرتادو الكافيتريا وحانة الطعام لم يتبق منهم أحد.

تهوي القلوب التي في الصدور مع انحسار الأمل وهو في فقاعته لا يعرف ماذا يفعل؟

هل يتكلم أم يصمت؟

هل انتهى الأمر هكذا؟

صوت يأتي من حوله يسأل نفس السؤال؟

صوته محايد يشي أنه صحفي أو فضولي.

يجيبه صوت آخر من نفس الفئة-الورقة والقلم والكاميرا تفضح ستره -انتشال الجثث سيأخذ مزيدًا من الوقت وسوف تسلم إلى مشرحة «**زينهم**»، وهناك تبدأ مرحلة التعرف عليها، وستسلم كل جثة إلى ذويها بينما يُدفن مجهولي الهوية المباشرة في مدافن الصدقة.

يزوم كثور صريع، نحره سكين كليل، ترتعد قدماه، يد غريبة تربت على كتفه، وكان هو.

رأى صديق العمر، وجهه مضرج بالدماء، ويبتسم ابتسامته الساخرة العابثة، يسأله دون أن يحرك شفتيه:

هل تبحث عني؟

ود لو صرخ في وجهه:

(أبحث عنك كي أقتلك يا صديق العمر، يا رفيق الصبا والشباب، قتلتني وأنت ميت، أعلنت عليَّ الحرب وأنت في العالم الآخر، سقطت في يدك لا حول لي ولا قوة، بعد أن أغرت بيننا العداوة والبغضاء، ولكن لا لن تفلت بفعلتك سأقتلك).

أنت بخير!

تغيرت الملامح، اختفت الدماء، تغير الوجه الذي أمامه، أصبح وجهًا نحيلًا لرجل شيخ.

انزوى «**علي**» في ركن غير بعيد، مرت هي من أمامه، هكذا ظن، زر كتفيه وتكوم في بؤرة غامضة بعد أن قضى النهار كله بلا جدوى، لملم أشلاءه، سحب قدميه وما تبقى منه، أجفل جفونه كي لا يراها، ملامحها ودموعها على وجوه النساء في الميكروباص المتجه إلى «**مدينة السلام**»، تتمتم بكلمات غير مفهومة تأتيه كفحيح، تعتذر وتنتحب وتبكي، فتح عينيه، وجهها محتقن البياض كما كانت، شعرها ينعم بسواد الليل وشجونه، تزينه بتلات من زهر، لم تتغير ملامحها، ولكنها صارت رأس بلا جسد، نزل من الحافلة بعد صرخات متتابعة من السائق لم يسمعها وكأنها دوي مكتوم، تدفعه خارجًا كموجات، ترجل في غير هدى كسكير عاقر الخمر دهرًا، ويد صديق العمر تعتصر كفه، تقوده إلى مصير مجهول، تدفعه نحو الحافة، ترتقي به سلمًا إلى السماء، وجهه ذئب مفقوء العينين، مشقوق الظهر، وانفتحت البوابة، وألفى أمه لدي الباب، بين حاجبيها وشمت علامات الاستفهام، لا ترى ما يراه، شبحها خلف أمه مباشرة ، تبكي وتتمتم، وتعتذر، نشيجها يعلو، يصم الآذان، نظرات أمه الملتاعة تلاحقه، يلقي نفسه على الفراش، ويصفع الباب خلفه، يراه راقدًا إلى جواره، وجهه مأوى للثعابين، وشفتيه ساخرة عابثة قاسية، يتحرر «**علي السمان**» من جموده، يده تمتد في الهواء المضغوط عالي اللزوجة، يجاهد حتي تصل أصابعه إلى عنقه، يتمكن منه، يعتصر العنق في تحد ، فما زالت عيناه تبصقان مزيدًا من الثعابين، وابتسامته العابثة تزداد

قسوة، يطأ بأصابعه ملمس القصبة الهوائية، وهو يصرخ، وتصرخ الثعابين، يحاول أن يتفلت من أصابعه التي ماتت على عنقه، كلابة انتقام لا ترحم، تجاهل الأيدي التي تشبثت بكتفيه، ترده عن سحق العنق الذي يحمل رأس شيطان ، يزيده دفعها إصرارًا، تتعدد مصادر الصرخات، تأتي من كل فج، والشفاه الساخرة وحدها تنال من عزيمته، حتى دفعته يد قوية إلى الخلف، انتزعته بعيدًا، خارت قواه وتهدلت عضلاته، وصرخ صرخة واحدة، تحمل كل آلام الدنيا، أطلقها قبل فوات الأوان.

الفصل الثالث

الحمد لله. اطمئنوا.

قالها **د.«يحيى العديسي»** في هدوء، وهو يضع جهاز الضغط والسماعة في حقيبته الطبية قبل أن يغلقها في إحكام وغادر طرف فراش **«علي السمان»** الذي سقط في نوم عميق، لاحظ العيون القلقة وقد تراص أصحابها متجاورين، مترقبين، الأم التي تحاول أن تكون أقوى مما ينبغي، والابنة التي ضجرت من كل شيء مبكرًا، في مكان يفترض أنها ستبقى فيه خالدة.

لم يتبق سواه.

«حمزة» الذي ما برحت نظرات الرعب قسماته وقد اربدَّ وجهه واحمرت ملامحه، وصار يتحسس بأصابعه آثار يد **«علي»** التي كادت تعتصر رقبته وتزهق روحه، لم تنس أمه -في فرط ولعها وخوفها على ابنها البكر-أن تطمئن على الصغير وتهدئ من روعه، تركته يحتسي كوب الليمونادة وهي تسأله لمرة أخيرة: هل حدث بينه وبين أخيه ما يجعله يقدم على هذا؟

أجابها **«حمزة»** وهو يغالب دموعه التي أبى أن تغلبه، فزادته غصة المقاومة اختناقًا بعده اختناق، نفي أن يكون قد ضايقه يومًا، فهي تعرف

تعلقه واحترامه لـ«**علي**» لقد حاول بالفعل بالأمس أن يتكلم معه ويعرف ماذا يشغله ولكن عندما آثر الصمت لم يحمل عليه، وأنه فوجئ به يخنقه وهو نائم.

تعرف «**نجاة**» الوشائج التي تربط ولديها؛ «**حمزة**» يتخذ من أخيه الأكبر قدوة ومثلًا وصديقًا، أوصت «**عليًّا**» بـ«**حمزة**» فطمأنها أن أخاه الأصغر لا خوف عليه، لا يداري عنه شيئًا، وقد تميز برجاحة العقل، تعلم أن ناقوس الخطر للأولاد هو دخولهم في مرحلة الثانوية، وإن كان «**زينهم**» اهتم بـ«**علي**» منذ سنوات، فلقد صار اليوم أكبر سنًّا وأكثر همًّا، ففوض «**عليًّا**» عن غير اتفاق أن يحل محله كرقيب وشاهد على فورة «**حمزة**» وعنفوانه مراهقته.

حدث كل شيء في لحظة دخول «**علي**» إلى الشقة تائهًا، تابعته وهو يدخل غرفته، حتى سمعت صرخة «**حمزة**» المفاجأة القصيرة وجهاده في التخلص من أصابع أخيه المتشبثة برقبته، ولم يسعفه إلا مغادرتها فقاعة الذهول بفعل الغريزة، ودفعت بكرها بعيدًا، ثم تلتها صرخة «**علي**» المدوية، انطلقت بعدها لتشاهد «**حمزة**» المفزوع يعاني أثر الاختناق و«**علي**» المتهاوي على الفراش عيناه محدقتان إلى لا شيء، وقد استحال إلى كومة لحم مرتعد، انحنت فوق ابنها البكر، تناديه وتمسح صدره تارة، وتحتضنه تارة أخرى، ثم زعقت في ابنتها التي تسمرت كتمثال من شمع لدى الباب أن تبحث عن

طبيب، ترددت «**تحرير**» لحظات ثم تناولت حجابها وعقدته وهي تهرول إلى الخارج، لا تدري أين تذهب، عرفت من أمها من قبل أنها ابتاعت حاجاتها بجوار المسجد الملحق به مركز طبي، خرجت من باب البناية تتلفت يمنة ويسرة، ثم اتجهت إلى أقرب متجر، سألت الشاب الواقف فيه عن المركز الطبي الذي أجابها متسائلًا:

خير إن شاء الله.

لا تكره في حياتها مثل الفضوليين، يزداد حنقها وغضبها منهم، وهذا الشاب الذي يعمل هنا منهم، قطبت جبينها وعقدت حاجبيها في ضيق، وكادت أن تصرخ في وجهه أن الأمر كله لا يعنيه، وعليه أن يُجيب فقط، أشار إليها «**أحمد منتصر**» في سرعة على طريق المركز الطبي، وكأنه حدس ما تفكر، فبادر بالإجابة، لم يدرك بعدما انصرفت أنها شكرته أم أشاحت في وجهه، عاد إلى داخل المحل وهو يتبعها بعينيه حتى أحس بالأصابع الصغيرة التي تتشبث بسرواله، نظر إلى الأسفل ورأى ابتسامه ابنه الصغير « **سليمان**» آخر ما يمتلك «**أحمد منتصر**» من الدنيا.

عرفت «**تحرير**» فيما بعد لماذا طلب منها الطبيب أن تطرق الباب على الشقة المقابلة وتنادي «**زمزم**»، فتح لها شاب في عمر أخيها «**حمزة**»، ارتبكت لحظة وسألت عن «**زمزم**» وأن الطبيب يريدها في شقتهم، الشقة المقابلة،

ناداها الشاب الصغير في يسر وهو يلقي نظرة على باب الشقة التي رآها مفتوحة لأول مرة، كانت لهجة الطبيب وبشرته تشيان أنه من الصعيد، وربما من «**أسوان**» تحديدًا، استمع لهم الطبيب في عناية، كان وجه «**علي**» شاحب ونظراته المحدقة وأطرافه المرتجفة، وريقه الذي يسيل بلا إرادة، علامات لصدمة عصبية حادة داهمته.

لحقت به «**زمزم**» قبل أن يُخرج جهاز الضغط، لم يشعروا بها إلا وهي بينهم، تقدمت لتضع الحقيبة على الخوان المجاور للفراش، فساعدته وفتحت الجهاز وعدلت الأنابيب البلاستيكية المتشابكة بينما هو التقط السماعة واقترب من «**علي**» المستسلم المحدق إلى الفراغ، لاحظ د.«**يحيى**» ارتفاع ضغط الدم سألهم إن كان تعرض لأزمة أو ضغط نفسي، أجابت الأم أن حالته منذ وقوع الزلزال هي الصمت المطبق ولا تعرف ما حدث له، هز د.«**يحيى**» رأسه متفهماً أنه يتعرض إلى نوبه هلع مفاجأة أصابت جهازه العصبي ربما من خوف أو ذعر مما حدث، وأشار إلى «**زمزم**» أن تأتي بحقنة «**فاليوم**» من المركز الطبي، ولكن «**زمزم**» أجابته أنها تحتفظ بها في الشقة في علاج أمها، أسرعت إلى شقتها في سرعة وعادت ومعها الحقنة مع شريط «**كالميام**» المهدئ، قالت ربما يحتاجه، هز الطبيب رأسه في إعجاب وقال: إنها أصبحت ممرضة خبيرة؛ لأنه سوف يكتب نفس النوع في الروشتة، وكان يخشى ألا يجدوه في الصيدليات المجاورة، شكرتها «**نجاة**» وهي تراقب ابنها الذي بدأ يغمض عينيه بعد أن

سحب الطبيب الإبرة من وريده وهدأت أطرافه رويدًا رويدًا، بدأت «**زمزم**» تلملم بقايا الحقنة الفارغة والسرنجة المستخدمة وتبحث بعينيها عن أقرب سلة للمهملات، تناولتها منها «**تحرير**» شاكرة إياها، وخرجت لتلقي بالبقية في كيس المهملات بالمطبخ، ولم تلحظ نظرات «**حمزة**» التي تتابع «**زمزم**» خلسةً بعد أن انتزعته إطلالتها من الفزع الذي كان، انتحى د.«**يحيى**» بـ «**نجاة**» وأوصاها أن تتابع «**عليًّا**» ولا تعرضه للضغط العصبي ولا تضغط عليه كي يتكلم، وأنه في المركز الطبي حتى منتصف الليل إن احتاجت إليه، ولكنه يظن أن الحقنة ستبقيه نائمًا لفترة، وسيأتي يطمئن عليه في الغد، صدمها أنه رفض أن يأخذ مقابلًا، مدعيًا أنها أول مرة، وهي تحية لهم وتعارف، وعندما سألته أن تُراضي الممرضة ولكن د.«**يحيى**» حذرها أن تفعل لأن «**زمزم**» فتاة ذات كبرياء على الرغم من حالتها المادية، وأنه جزء من عملها في المركز التي تتقاضي مقابلًا عنه، وأنها سترفض حتمًا حتى ثمن شريط الدواء، وأنه يفضل ألا تحرجها، حاولت «**نجاة**» ولكن إشارة حاسمة من الطبيب أوقفتها، وأنه كصعيدي يحب أن يقول كلمته مرة واحدة، لهج لسانها بالشكر، وتقدم خارجًا وهو يتنحنح وربت على كتف «**حمزة**» وهو يوصله حتى باب الشقة الذي بقي مفتوحًا، وسأله عن اسمه وتفحص رقبته واطمأن عليه وطمأنه أنه بخير إلا من احمرار بسيط من أثر أصابع أخيه، خرج الطبيب بعدما ألقى التحية وتبعته «**زمزم**» وقد قبلتها «**تحرير**» وكأنها تعرفها وودعتها وأنها تنتظر

زيارتها في وقت قريب، ربما وجدت فيها «**تحرير**» صديقة محتملة، خرجت «**زمزم**» من الباب وهي تهز رأسها تحيي «**حمزة**» وكأنها اكتشفت وجوده، تابعها الأخير حتى دخلت إلى شقتها المقابلة وأغلقت الباب ..جميلة هي، ولكن تبًّا لفارق السنوات، تمنى لو كبر فجأة ..

وقبل أن يغلق الباب فوجئ بهذه السيدة التي تتقدم أمام الباب وتسأل عن أمه وقبل أن يجيبها سمع أمه تحييها بلهجة حذرة:

أم إسلام، أهلًا وسهلًا.

كانت باشة الوجه والملامح، اعتذرت أنها نزلت دون موعد، ولكنها رأت الدكتور «**يحيى**» فخشت أن يكون هناك مكروه، وأرادت أن تطمئن، وقبل أن تشكرها «**نجاة**» وتدعوها للدخول، فتح «**حمزة**» عينيه في ذهول عندما ألفى خلفها تلك الفتاة الصغيرة بيضاء كثلج، نورانية الطلة، شعرها كشمس وعيناها حقل أخضر واسع لو كانت «**زمزم**» جميلة فهذه الفتاة كانت فاتنة، وكانت تصغره بالتأكيد، كانت تتبع أمها في خجل، وتحمل في يدها طبقًا مسطحًا يختفي ما به تحت ورقة جريدة، و«**حمزة**» يمسك ضلفة الباب في هيام، وكانت عيناه تتأملانها:

«**ماريا**».

***

انسحبت «**أم إسلام**» وابنتها بعد سماعهما لهذا الصوت المميز لحافلة زوجها «**عبده**» وقد أتى قبل موعده، لملمت ربيبتها وتساؤلها وصعدت أدراج السلم كي تستقبل زوجها بشقتها، رأت «**إسلاما**» توأم «**ماريا**» ممددًا على الأريكة، يتابع التلفاز وهو يلتهم ثمرة جوافة أخرى، وما زالت آثار سابقتها تلوث خديه، كان نسخة مكررة من «**ماريا**» نفس العينين الخضراوين والشعر البني المجعد قليلًا وإن تكورت أعضاؤه لتماهي شكل أبيه، نهرته أمه لينظف مكانه، ونال نظرات شزرة من توأمه، وكاد أن يشتبك معها لولا تكة صدرت من باب الشقة آذنت بدخول أبيه، وقفوا جميعا لرؤيته وتناولت «**ماريا**» الكيس الأسود البلاستيكي الذي يحمله، ألقى عليهم السلام وقد لمعت عيناه بحزن غريب، انتصب «**إسلام**» أمامه وعدل من وضعية الفانلة ذات الحمالتين التي يرتديها، ولكن شيئًا ما يشغله، شغله عن رؤية «**إسلام**» بملابسه الداخلية وقد نهره قبلها، فلقد كبر وكبرت أخته، وعليه أن يحتشم، صفعها حينها «**إسلام**» هازئًا، انسحب «**عبده**» إلى غرفته تبعته زوجته، وقلبها يخفق بين ضلوعها لقد حدث أمر جلل، بينما انطلق «**إسلام**» إلى المطبخ ليكتشف ما في الكيس الأسود.

جلس «**عبده**» على طرف السرير وقد زر كتفيه، ونكس رأسه، بينما جثت هي على ركبتيها، لترى عينيه، وتستوضح ما به، سألته عن تلك الغزة التي داهمته من شهرين، هل صادفته حادثة؟

فحصت قدميه إن كان أصابه خدش، هل الميكروباص على ما يرام؟

هل ضايقه أحد في الموقف؟

هل احتك به «**أشرف الخواجة**» هناك ثانيًا؟

أقسمت بالقرآن والإنجيل إن كان قد فعل ستأكل أحشاءه، هل ضايقه أحد في المرور؟ لا شيء، لا شيء.

فقط يهز رأسه نافيًا، تقطعت بها السبل، لا تدري ما سر حزنه إذًا، ما داموا هو وهي والتوأم بخير فلا شيء بعدها، انتظرت قليلًا وقد نال منها التعب والفضول والريبة إذًا هل وصلته أخبار من هناك من «**المنيا**» هل أمها بخير.

تنهد وانتظر لحظات يقاوم فورة انفعاله ويبحث في عقله عن سبب آخر ومخرج لورطته.

عبده.

انتزعته لهفتها من سنين مرت وتذكر عينيها المتسائلتين، اعتذر منها، فلم يكن أمامه خيار، لقد احتاج «**عم جداوي**» إلى جزء من المال الذي ادخر كي يأتي بالسلسلة الذهبية التي وعد بها، وأنه في أقرب وقت سوف يأتي بها، وضعت يدها على شفتيه وبترت كلماته وتنهدت في عمق:

أنت عندي أغلى من الدنيا.

لم يقل لها إنهم منعوه من تحميل الركاب في الموقف بإيعاز من «**أشرف الخواجة**» وقد هددوه مباشرة إن فعل، لم يجد من ينصره أو يعينه، هو لا يعرف ماذا يفعل، والأقساط لا تعرف العذر، سيبحث من الغد عن مسار آخر لسيارته ولكن، لا يعرف هل سينجح أم لا؟

غرس القنوط يحيط قلبه، لا يشعر بالوحدة قدر هذا اليوم.

لم تنازعه الحديث، كانت تعلم أنه يخفي شيئًا ما، لثمت يده بشفتيها، تعرف أن أقساط الميكروباص ترهقه، بعدما أضاع عمره في العمل لدى الآخرين.

نظرت في عينيه الخضراوين بتردد يفهمه، حثَّها على الحديث؛ فهو يعرفها عندما تريد شيء ما، وأخيرًا طلبت منه ان يذهب بها لتناول الخروب عند «**عم جداوي**»، سكت لحظة، شعرت أنها استغلت موقفه، حاولت أن تتراجع راسمة بسمة راضية على شفتيها استوقفها عندما فهم ما تصبو إليه.

– **الجمعة الجاية إن شاء الله.**

وترقرقت الدموع في عينيها وارتمت بين ذراعيه، تنهد بعد أن فلحت كذبته أو كما ظن، فقلبها لا يزال ينبض، وتسأل عما يخفيه حبيبيها التي تركت الدنيا من أجله وإن رضت مؤقتًا إلى مكان لقائهما الأول هناك في «**المقطم**».

على ناصية «**الدير**».

«**دير سمعان الخراز**».

وفي الخارج، توقف «**إسلام**» عن تناول كرات البقلاوة التي سفك نصفها، وانتحر عسلها وسكرها فوق أركان شفتيه، وتقدم نحو «**ماريا**» التي بدت شاردة تنظر إلى نقطة ما في العدم، نكزها وهو يدندن بأغنية جزائرية حديثة لا يدرك معناها فقط:

« **دي. دي وا**»

لم تنهَهُ كعادتها فقط نظرت إليه، وهي تتمتم بحروف ثقيلة، لقد كشفت ما رآه من قبل، لم تصدقه حينها، ولكنها رأته اليوم وهي تعدُّ كرات البقلاوة لتزور السكان الجدد، أومأ «**إسلام**» برأسه كمن ثبتت براءته بعد طول الاتهام، ولكن عليها ألا تخبر أحدًا، خاصة أمها، وإلا فستنال منها العذاب الأليم.

عادت «**ماريا**» إلى شرودها وهي تتذكر لما دخلت على أمها في المطبخ ووجدتها ترسم في الهواء. ...

صليبًا

***

ضحك «**طه**» العطار من حرارة اللقاء والدعابة المتبادلة بين «**د. يحيى العديسي**» و«**سليمان**» ابن «**أحمد منتصر**»، هذا التطور الملحوظ في سلوك

الصغير يعود فيه الفضل لله ثم لهذا الرجل ، هذا الطفل الذي عاني العزلة فصارت جزءًا من تكوينه، وسلوكه ورده فعله، كان يخشى الجميع، ظن بداية «**د.يحيى**» أنه يعاني مرضًا نفسيًّا اسمه «**التوحد**» ولكن مع الاهتمام الزائد منه ومن السيدة «**زينات**» زوجة «**طه العطار**»، تحسنت ردود الأفعال تدريجيًّا، أصبح لا يخشى الناس ويرتجف منهم، وبدأ يألف بعض الوجوه ويتبادل معها الكلمات حتي في أضيق الحدود، كان الطفل الذي لم يتجاوز الست سنوات وما زال هو البسمة الوحيدة التي عوضته هو وزوجته عن الحرمان حتى جاء «**يحيى**» الصغير ولن يغير من حبه وتعلقه بهذا الطفل، وقد اعتبره ابنه البكر جلس منذ قليل يحكي معه ويوصيه بأخيه الأصغر، كانت زوجه «**طه**» هي تعويض لأمه رحمها الله، كانت تطعمه وترعاه.

تذكر «**طه**» أمرًا منسيًّا، وأخبر «**د.يحيى**» أنهم اتصلوا به من «**أسوان**» منذ قليل.

غالَبَ «**د. يحيى العديسي**» توتره وطلب رقم بيتهم في أسوان، تابع خفقان قلبه مع رنات الهاتف المقابل، لا يدري هل يرد عليه أخوه «**حجاج**»، الذي اشتاق إليه، ولكن لا يغالب هذا الحاجز الجليدي بينهما، الذي راكمته الأيام والمسافات.

أم ترد «**تها**» وينتصب الماضي أمامه كمارد ضخم يلتهم ما تبقى منه و....

السلام عليكم.

رقَّ قلبه بعد سماع الصوت، وحمد الله أنها «**سعدة**»، أخته الصغرى، قرة عينه، لا تعترف بقول ألو، أغلى من أنجبت قرية «**الشراونة**».

«**أحيا**»

وكأنه لم يسمع اسمه منذ زمن، هناك في «**أسوان**»، ينطق «**أحيا**» تسهيلًا، يألفه أكثر من «**يحيى**»، لا سيما من أخته «**سعدة**»، و«**تها**».

«**سعدة**»، لا تخطئه أبدًا، وكأن حبلًا سريًّا بقي بينهما بطول المسافات يربطه حتمًا بالجنوب، لا تخطئ أنفاسه أبدًا، ابتسم رغمًا عنه، هي وبالرغم من طيبة قلبها وصفائها فهي أقرب الناس شبهًا بأمها الحاجة «**فهيمة**»، ورثت من جيناتها الحدس، نفس العينين اللتين تسبران أغوارك، وتكتشفان خباياك، مع أنهما تشبهان عيني دمية، بينما عينا الحاجة «**فهيمة**»، هما عينا عرافة.

«**أحيا**»

استدعته من المجهول، حيَّاها، واعتذر منها على بُعده، لم تجادله كعادتها، سألها وهو يتوجس خيفة: هل أمه بخير وحجاج وزوجها وأولادها و.... وتها؟

طمأنته على أخيهما الأكبر وزوجته «**تها**» وبنتيه، وإن كانت أمه بدأت تشتكي ألمًا دائمًا في بطنها، وهذا ما تكلمه بخصوصه، لقد اقترح الأطباء في «**أسوان**» أن تسافر «**أسيوط**» كي تقوم بإجراء بعض الإشاعات والتحاليل،

أذعن «**د.يحيى**» لكلامها منصتًا، وقد بدا القلق يساوره على أمه، رق قلبه، وتبين تقصيره معها، وعرض عليها أن تأتي أمه إلى «**القاهرة**» وليس «**أسيوط**» ليتابع حالتها بنفسه.

أجابته «**سعدة**» أن الحاجة «**فهيمة**» قد حسمت أمرها وعقدت العزم أن تذهب إليه، إلى «**القاهرة**».

الحاجة «**فهيمة**»، لا أحد يختار سواها، هي القاطرة التي تسحب الجميع، لو سقطوا من فوق السطح لسبقتهم من على الدرج، لا يجرؤ أحد على العصيان أو التمرد أو الانتقاء، الكل يخضع لها بالإذعان، وعلى قدر حبه لها كانت مخافته منها.

حرمته صغيرًا لعب الكرة مع أقرانه، أو أن يسبح في النيل مثلهم، حرمته أن يختار الهندسة التي يحبها، واختارت الطب، حرمته حب عمره «**تها**»، **ابنة** خالته، واختارت أن تزوجها بـ«**حجاج**» أخيه الأكبر، أي قسوة يحملها قلبك يا حاجة «**فهيمة**»! أسرها في نفسه لم يصرخ بها إلا في وجه «**سعدة**» التي هي نفسه، لا يملك هو حق المعارضة، ولم تملك «**تها**» يتيمة الأبوين حق الاختيار، ولم يملك «**حجاج**» إلا أن يقبل الجمال والعفاف والعفة.

إزيك يا وليدي؟

أرعش صوت الحاجة «**فهيمة**» نبضات قلبه، خامره ذلك الشعور الأبدي غير المفهوم، مزيج من الحب والرهبة، حشرجة حروفها المميزة تتسلل إلى

أعماقه فتضطرب، نبرتها الحاسمة الحازمة حتى لو بدت حانية، حتى لو صارت متعبة منهكة، سلم عليها بصوت محرج، لم يتصل بها بعد الزلزال كان يحضر حجته بحكاية ميلاد ابن «**طه**» **الذي سماه** «**يحيى**» على اسمه، تهيَّأ عذره وادعاؤه أن تأثير الزلزال لم يتجاوز «**أسيوط**»، لم يتفوه بكلمة، ولكنه تخيل بسمتها بعد أن قرأت بطريقتها ما جال بخاطره وتمتمت أنه لا عليه:

أتوحشتك يا وليدي ...إيه مش عاوز تشوف أمك؟

إنها الحاجة «**فهيمة**» منيعة الأركان، عظيمة «**الشروانة**»، تشير بعصاها فتخر رؤوس الرجال، تنحني الهامات إجلالًا، تتحول إرادتهم الصخرية إلى رفات، لا ترد مضطرًّا، ولا تخيب داعيًا، تجلس في ساحة البيت الكبير، أو في المنظرة، تسمع الشكوى وتنظم الحال وتدرس الأحوال وتحل الإشكالات، يخضع لها رجال عائلة «**العديسي**» ونساؤها، تسمع فلا يذوب جامدها إلا من تمتمات تصحبها نقرات كريات سبحتها، الممتدة خمسة أمتار بطول البيت والتي تعلقها على جذع نخل غير مكتمل في جدار البيت القديم، أو تحتجب تحت ظلة السقيفة المجاورة للدار على حافة أرض «**العديسي**» المتصلة مباشرة بشاطئ النيل.

صوتها يأتي من جوف كهف مسحور، حتي مع المرض والسن وزيادة نفوذ «**حجاج**»، الذي ارتدى عباءة كبير العائلة، وجلس بدلًا منها في المنظرة وقد بدأ يستأثر باتخاذ قرارته، كان بمباركة منها ودعم، حتي صارت مع

الزمن على هامش الحياة، أوت إلى ركنها وانزوت بما تبقى في وعائها من نشوق، وبلسانها ما به من تسبيح، لم يبق في دائرتها التي اضمحلت أو كادت، إلا بنتا «حجاج»، و«**سعدة**» التي ما شغلها زوجها وأولادها عن متابعة أمها، بينما تحيطها «**تها**» – كما سمع من «**سعدة**»– بنظرات خاوية ولا تتبادل معها سوى كلمات قليلة، وكأن كلًّا منهما يرسل للآخر شيفرات سرية، بين اللوم والعتب والعناد والقهر ترد بعد فض محتواها بنظرات آسفة، مذنبة، مدانة لا يعرف فحوي الرسائل إلا «**سعدة**»، فقد كانت حاضرة على المأساة التي كان ضحاياه الثلاث أقرب مما ظنوا صاروا على حواف العالم من البعد والاغتراب.

وأنت كمان والله يا أمي.

راقب في مرآة العرض التي أمامه خدوشًا وندباتٍ وخطوطًا سوداء غيرت ملامحه وغضب وحيرة ولهاثًا صاهروا قسمات وجهه، عقدوا حاجبيه في خط مرسوم على حدود جبين أغرقه العرق وحوته الدهشة.

تنهد «**د.يحيى**» وفي قلبه غرس عقرب المأساة ذيله، وتاهت مشاعره في المسافة بين توقه إلى أمه التي لم يَرَها منذ شهور، وبين اغترابه الاختياري بعيدًا عن «**الشراونة**» و**إدفو** وأسوان كلها، لا، بل بعيدًا عن «**تها**».

في عيد الأضحى الماضي، زار «**الشراونة**» ليلتين، لم يقوَ كالعادة أن يرى «**تها**» حب العمر تبيت ليلتها في مخدع أخيه، يضطرب لمجرد أنها على بُعد

غرفتين بين ذراعي أخيه، نار مستعرة تحرق ضلوعه، وهو يرى «**حجاجًا**» يذبحه وسط الأضاحي، ويُراق دمه بلا موت فقط الألم، ردها صاعين في المنام، ترى هل يتعاطف الآن مع «**قابيل**»؟ الآن بعدما استسلم لنار الغيرة؟

هل نزغ الشيطان بينه وبين أخيه فتمنى لو رماه مكبلًا في النيل كي لا يلتقطه لا السيارة ولا البحارة؟

استعاذ بالله وعاقب نفسه الأمارة بالسوء بالنفي إلى عالم التيه في القاهرة، متعللًا بتجهيز العيادة الجديدة له في شارع «**طومان باي**» في الزيتون، مؤجلًا كعادته أطروحة أخيه «**حجاج**» أن يبني له مستشفى صغيرًا في «**الشراونة**» أو في «**أدفو**» إن أراد، لم يكن صادقًا في دعواه كما يتذكر « **يحيى**» وما يعرفه من نظرات أخيه التي لم يفته تحليلها، لا يعرف لماذا ؟ ولكن نظر « **يحيى**» في ليلتيه كان يتوقف عند بنتي «**حجاج**» التوأم ولم تعبرا السنتين، كلتاهما تحمل هذا المزيج المدهش من الملامح ، مزيج بين «**حجاج**» و«**تها**»، يؤلمه هذا الفكر.

أغلق الهاتف ودق قلبه بعدما أخبرته «**سعدة**» إنها وزوجها «**بكري**» سوف يأتيان إلى القاهرة مع أمهما.

كان يردد في نفسه:

(ماذا فعلنا بك يا حاجة فهيمة كي تصدري حكمك على ثلاثتنا بالعذاب الأبدي؟ فرقتِ من رغبوا اللقاء وجمعتي من رغبوا عنه، مضى حكمك كمدية

متعرجة الحافة، لا تكتفي بالموت صنعًا، بل تتلذذ بالعذاب، لم تحسني الذبح يا أمي، ونقشتِ فوق ضلوعنا طلسمًا فرعونيًّا يحمل بين خطوطه وأرقامه أبجدية جرثومة، تقرض الذكرى من تحت جلودنا وتأتينا لعنتها في كل ساعة).

كان «**طه العطار**» ينظر إليه في دهشة، لا يعرف «**د. يحيى**» هل كان يفكر بصوت عال، هل غادرت الكلمات حدود نفسه، هل يبرر أم يصمت أم ينسحب؟

بابا...

قالها «**سليمان**» الصغير عندما رأى والده يخطو مقتربًا من مدخل الدكان، تهللت أساريره، وانسل من بين يدي «**طه**» وعبر البوابة الخشبية بجوار قدم «**د. يحيى**» وارتمى في حضن أبيه.

الذي حمله وقبله واتجه مباشرة إلى «**د. يحيى**» وفي عينيه أسف وأسى.

أنا آسف يا دكتور.

ربت «**د. يحيى**» على كتف «**أحمد منتصر**» مبتسمًا راضيًا ومبادلًا الاعتذار، وداعب شعر «**سليمان**» الصغير الذي غطى عينيه والتفت «**أحمد منتصر**» ملقيًا التحية على عم «**طه**» الذي فتح عينيه دهشًا:

لماذا يعتذر «**أحمد منتصر**» إلى «**د. يحيى**»؟

يعرف الصداقة التي نمت بينهما منذ أن انتقل «**أحمد منتصر**» للعمل معه، حتى أنه لم يجد غضاضة أن يحكي له الحكاية، يعرف أن «**د. يحيى**» لا يكشف سرًّا، فقد أمِنَه «**أحمد منتصر**» على سرِّه، وأسهم «**د. يحيى**» في تحسن حالة «**سليمان**» الصغير.

ترى ماذا حدث؟

لا يعرف «**طه العطار**» أنهما لا يختلفان إلا في مناقشة قضية واحدة... «**سليمان خاطر**».

تنازعا الأمر بينهما بالأمس، اتهم «**أحمد منتصر**» صديقه انه يتبنى وجهه نظر الحكومة التي تريد أن تشوِّه ما فعله **سليمان** في حماية الحدود؟

تمتم بعدها **د. يحيى** أن «**رأس برجة**» ب «**نويبع**» ليست على الحدود، رد «**أحمد منتصر**» متفهمًا: ولكنها منطقة عسكرية وإذا بمجموعة من «السياح الإسرائيليين» يحاولون تسلق الهضبة التي تقع عليها نقطة حراسته، فحاول منعهم وأخبرهم بالإنجليزية، أن هذه المنطقة ممنوع العبور فيها قائلًا: «stop no passing» إلا أنهم لم يلزموا التعليمات، وواصلوا سيرهم باتجاه نقطة الحراسة التي تحوي أجهزة وأسلحة خاصة غير مسموح الاطلاع عليها، فما كان منه إلا أن أطلق عليهم الرصاص.

«ولكن كان بينهم نساء وأطفال» قالها «**د. يحيى**» بقناعته الخاصة.

«عبر التاريخ النساء هن سلاح اليهود» قالها «**أحمد منتصر**» ثم تابع «وقبل واقعة سليمان بأسابيع قليلة تمكنت امرأة صهيونية من اجتياز نقطة مماثلة لنقطة حراسة خاطر وتمكنت من المبيت فيها، وتمت محاكمة عسكري النقطة بعدها لإفشائه أسرارًا عسكرية وعدم الحفاظ على مكان حراسته» هكذا همس له «**سليمان**» قبل محاكمته قالها «**أحمد منتصر**» في حده وأنهما شهدا حادث بحر البقر، ألم يكونوا أطفالًا؟ ثم ختم كلامه منفعلًا على «**د. يحيى**» يبدو أنه من مؤيدي «**كامب ديفيد**».

نفض عم «**طه**» ما في رأسه من أفكار، مؤمنًا أنه مهما يحدث بينهما من اختلاف سيظلان صديقين.

تأهب هو أن يذهب إلى المركز الطبي ليتطمئنَّ على زوجته وولده قبل أن يخترق هدأتهم دوي موتور دراجة بخارية توقفت أمامهم فجأة، ونزل منها في بطء مستفز «**أشرف الخواجة**» تقدم في المسافة التي تفصل بين «**أحمد منتصر**» و«**د. يحيى**»، حاشرًا نفسه بينهما، حتى كاد بجذعه أن يفرك قدم الصغير، اربد وجه «**أحمد منتصر**» وتحفزت عضلاته لولا يد «**د. يحيى**» التي منعته من التهور، قابله «**أيمن هندي**» المستند بقدم واحدة وهو ما زال ممسكًا بمقود الدراجة البخارية بنظرته المستهترة أعقبها ببصقة على الأرض، وما زالت عيناه تقابل عيني «**أحمد منتصر**» في تحدٍّ بينما تقدم «**أشرف الخواجة**» مواجها عم «**طه**» وسأله علبة سجائر «**مارلبورو**»، تنهد «**طه**» في حذر وأتى

بواحدة وأعطاها «**أشرف الخواجة**» الذي ابتسم في جذل، وانتظر حتى أخرج سيجارة منها، أشعلها في بطء وقد تنقلت نظراته بين «**طه**» و«**د. يحيى**» و«**أحمد منتصر**»، استطعم طعم الدخان لحظات، ثم ألقى ثلاثة جنيهات على الرف الرخامي دون أن ينبس ببنت شفة، كاد «**أحمد منتصر**» أن يتشاجر معه وأن يخبره أن ثمن السجائر أصبح ثلاثة جنيهات ونصفًا، ولكنه تراجع بعد نظرة «**طه**» المحذرة، بينما راقب «**د.يحيى**» الوشم الذي سطره «**أشرف الخواجة**» فوق ذراعه في نقش أخضر رديء والذي يحمل اسم:

«**زمزم**»

***

«**السلام عليكم**».

لم يسمع «**أشرف الخواجة**» النداء، حتى لو سمع ما رد التحية حتى بأسوأ منها، جلس على الدرجة الأخيرة ساندًا ظهره إلى مبنى حجري لغرفة الكهرباء، مد قدميه على الدرج متجاهلًا دويًّا مزعجًا لزجاجة «**البراندي**» الفارغة، صاحبها دوي مكتوم أطلق من قولون منتفخ، أجفل عينيه ولم يلحظ نظرة ذعر عابرة في عيني «**أيمن هندي**» الذي توقف لحظات عن قضم شطيرة الكبدة الإسكندراني، وانتظر حتى أودت الريح بالرائحة النتنة، وهو يحمد الله أن حدثه مر صوتًا ورائحة دون اكتشاف، وعاود يعاقر شطيرته، ونظر للفتى المغمضة عيناه.

أغرب شقي رآه في حياته.

«**أشرف الخواجة**» أصغر عائلة «**زاهر الخواجة**» بلطجي مصر القديمة الأول في النصف الثاني من القرن العشرين، وسفير العائلة في شرق القاهرة، وأمين صندوق موقف «**المرج**» للحافلات الخاصة، يجلس ملكًا متوجًا على عرش «**مصطفى كظماني**» الملك المخلوع طوعًا بعد حملة أولاد «**الخواجة**» بأوامر من زعيمهم «**رضا زاهر الخواجة**» القائد الحالي للعائلة بعد وفاة المؤسس الأول، آثروا السلامة بعدما رضخوا لحملة تترية مكتملة الأركان من أسلحة ورجال وعتاد ورضا أمني، حتى أصوات المقاومة تراخت أحبالها تؤثر سلامة الأبدان وتسلم مقاليد الموقف للأمير القادم من جنوب «**القاهرة**».

يجلس «**أشرف الخواجة**» متكئًا على قطعة من المخمل وضعت خصيصى له فوق الأريكة الخشبية، يبدو شكله الوسيم الطفولي ولحيته غير المكتملة وقوامه النحيف في غير هزال وذقنه المدبب بطابع الحسن غير متوافق مع دوره كقائد جديد للموقف والتعامل مع السائقين وطبيعتهم الخشنة خاصة سائقي حافلات «**القاهرة**» عكس أولئك القادمين من الأرياف طبيعتهم الريفية تغلب عليهم، كان عليه أن يعتاد السيطرة على الجميع في الأسبوع الأول الذي حرص المعلم «**رضا**» أن يبقي اثنين من رجاله الأشداء في حوزه

أخيه الأصغر، أفشى الرجلان الكثير من الأساطير عن عائلة «**الخواجة**» وخاصة هذا الفتى المتأنق شكلًا، غليظ القلب موضوعًا، توجس منه الجمع خيفة، وانفضوا من حوله إلا «**أيمن هندي**».

«**أيمن هندي**» الذي بدوره قد مارس الانحراف من سرقة منازل وسرقة بالإكراه واعتداء جسدي في عدة نزاعات، مما أهَّله لدور مهم في موقف «**المرج**»، ولكن لم يخترق جوقة «**كظماني**» برغم أنه من أهل الكفاءة، فلم يكن للأسف من أهل الثقة، ويل للتوريث الذي يضيع الحق!

وعندما ارتقى «**أشرف الخواجة**» العرش، نافقه «**أيمن هندي**» حتى أمسى في زمرته، نعم العصيان الذي يعيد الحق لأصحابه، ومن يومها لم يفترقا، انفكت عقدة لسان «**أشرف الخواجة**» وكان يحكي حكايات بصوت حرص أن يبدو رخيمًا كصوت إخوته وكانه يلتبس روحهم، وراعى في حكاياته إبراز دوره وتأثيره على الرغم من صغر سنه في اتخاذ القرار، لم يجد «**أيمن هندي**» أيًّا من هذه الكرامات فقط حركات صبيانية، غير مفهومة، يحاول أن يتجاوز نظرات «**مصطفى كظماني**» المستخفة، تمهد حتمًا للانقلاب، وسينال من الجزاء ما لا يطيق، توقف «**أيمن هندي**» عن تناول شطيرته بعد أن فزعته الرؤيا، أو الكابوس حرص على رفضها ونفضها خارجًا، لن يمسه أحد ما بقيت عائلة «**الخواجة**».

يحار «**أيمن هندي**» من حرص «**أشرف الخواجة**» على الاعتناء بنفسه والنظافة التي تكاد تصل إلى مرحلة الوسوسة، فلقد راه مرة يغسل الصابونة بأخري، لا يأكل من أي مكان، لا يتبول في الشارع، مرة عندما شرب كمية هائلة من البيرة اقتحم منزل الحاجة «**أم نادية**»، ودخل مرحاضها، ولكن أغرب ما في الموضوع هو خوفه من «**عبده أبو إسلام**» يشعر برجفته عندما يمر، هل لضخامة جسمه أم لثقته بنفسه وعدم خوفه، ينظر إليه في نظرات مريبة، ولكنه كتابع لا يستطيع ان يتجاوز، يندم بعدها على ما فرط منه، حتى حبه لتلك الفتاة «**زمزم**» ..الفتاة جميلة بلا شك، لدرجة وشم اسمها فوق ذراعه ذهبا إلى «**البساتين**» خصيصى من أجل هذا، ما دامت تعجبه، فماذا يمنعه من اغتصابها ؟

لم يأبه «**أشرف الخواجة**» لوجوده، غاص في عالم آخر، عالم ضبابي بعيد لا يعود منه إلا ليلتقط نفس آخر من سيجارته، فقط يغرسها بين شفتيها في حركة إليه، يلتقط الأنفاس في صمت، تخرج ضبابها إلى الجمجمة مباشرة، تتجسد في أشخاص وأحداث ذكريات عدة وطنت في نفسه، وتوقفت الملامح عند «**عبده**»، لن يتركه أبدًا، حتى هذا الغبي الذي يدعى الولاء الكامل، يدرك أنه يتملق وينافق ، يصطنع الإعجاب به، وهو كاذب يتحرى الكذب، كان يظنه قنوعًا هيابًا، ولكنه تابع قذر دنيء التمكن، ربما يخونه أو يفشي أسراره لأحدهم «**مصطفى كظماني**»، أو حتى «**رضا الخواجة**» نفسه،

اللعنة على الجميع، يوما ما سيعرف الجميع قيمته، وأنه لن يدوم حاله كما أرادوا، بل ما يريده هو، لو تعرف «**زمزم**» كم يحبها، لو تعرف أنه ما ارتضى لنفسه امرأة غيرها، هل تعرف أنه رهن إشارة منها، فيترك الدنيا كلها، لو تحسست الممشى بين عينيها وقلبه لكشفت قدر حبها الموشوم بين قلبه وروحه، لو ذاقت من نبع شوقه لارتوت عطفًا وحنانًا ومودة، هل تعلم أن أزهار اللوز الممتدة في طريق رضاه يوازيها ثمار الحنظل مصفوفة إن بغت العناد و لن تنال عندئذ إلا المر.

يزعجه ارتباك الرؤية في العالم الافتراضي الذي صنعه، يرى نفسه كما تمنى، قويًّا، شجاعًا، لا يلوي على شيء، لا يخاف الموت، لا يهاب الدم ونزيفه، يتقدم عن إخوته خطوتين، في رحلة إثبات الذات، لن يقبل أن ينادوه إلا «**أشرف زاهر الخواجة**» وليس كما اعتادوا:

«**أشرف بن سميرة**»

الفصل الرابع

«أيها الرب الإله، أعترف بأني أخطأت إليك في كلامي وأفعالي وأفكاري وتعدّيت على وصاياك ، نور طريقي يا رب، واحفظني وزوجي وأولادي من شر كل شرير، واهدني يا رب طريقًا أبديًّا، احفظ نفسي كما حفظت نفس عبدك أيوب، حول إرادتي نحو الرغبة في رضاك، تلك الإرادة المائلة للضعف، الحائرة حتى لا أسقط، عضدني يا رب حتى لا أهلك وأسكن الجحيم، إنك معيني وناصري وملجئي وقت الضيق، والمحارب معي فلن أجزع ولن أعاند ولن أرتد إلى الوراء،، أتكل عليك واضعًا ثقتي بك لأنك لن تتركني، أطلبك في سلطانك اسمك وفي حقي فتمد يديك لاحتياجي، أسبحك، يا ربي».

بكت قبل أن تكمل:

«لتكن يا رب إرادتك».

كانت تجلس على إحدى درجات المذبح، وعيناها معلقتان بصورة العذراء التي تتوسط الهيكل، قابضة بيد معروقة صليبها النحاسي الذي أتت به من بلدتها «**جبل الطير**» التابعة لمركز «**سمالوط**» محافظة «**المنيا**» عندما كانت في

«**دير العذراء**» أهداها لها أحد القساوسة كانت مع أمها، لم تتجاوز العاشرة، احتفظت به أكثر من عشرين عامًا، أخفته قديمًا حرصًا على بقائه بعيدًا عن عبث أخواتها، وأخفته حديثًا مخافة اكتشافه من ولديها، وينفضح السر الذي أخفت، دائمًا لا يخلو عالمها من القيود والتضييق.

هنا فقط.

تتحول إلى غجرية حرة، تخلع عنها كل القيود التي ارتضت أن تحيا بها، وقنعت بتفاصيلها، وعاشت فيها، ملتزمة كممثل محترف، أتقن دوره حد الاندماج، لا تنكر حبها لهذا الدور وتحب من فيه، ولكنها تعيش فيه بجزء من كيانها ووجودها، أما الجزء المظلم غير المرئي لا يظهر إلا هنا في دير «**سمعان الخراز**».

حيث اللقاء الأول.

غادرت «**سمالوط**» لأول مرة في زيارها لخالها «**ملاك**» في «**منشأة ناصر**» المتاخمة لجبل المقطم خالها «**ملاك**» أو «**الريس استوبينة**» كما يطلق عليه السائقين الذين يرتادون ورشة السمكرة التي يؤجرها، كان فرحًا بها أراد أن يطوف بها بر «**مصر**» زارت «**الكنيسة المعلقة**» و«**حديقة الحيوان**» و«**أهرام الجيزة**» ودير «**سمعان الخراز**» في «**المقطم**»، سمعت منه معجزة نقل الجبل التي تمت دحرًا لمؤامرة اليهودي «**ابن كلس**» على يد «**سمعان**» الرجل الصالح الذي تخصص في دباغة الجلود وتصليح الأحذية وحضرت إليه سيدة تطلب منه

تصليح حذائها، فوقعت عيناه على ساقها وهي تقوم بخلعه وأراد أن يعاقب نفسه فقام بقلع عينه ب«**المخراز**» منفذًا وصاية المسيح التي يقول فيها:

«**إن كانت عينك اليمنى تعثرك، فاقلعها، وألقها عنك. لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك، ولا يُلقى جسدك كله في جهنم**».

سامحه الكهنة على ما فعل بعدما نفذ وصية المسيح حرفيًّا.

قالت لنفسها:

أو كلما أتينا ذنبًا بترنا الجزء الذي أذنب، حينها ما بقي منا شيء.

التقط الحديث وقتها صديقه «**عم جداوي**» صاحب العربة الحديدية يبيع عليها الخروب والسوبيا على طريق الدير وهو يتقمص شخصية المرشد السياحي كما يشاهدهم وسمع منهم دوريًا بطول جبل «**المقطم**».

إن جبل «**المقطم**» يحتضن القاهرة كابنته، يحميها ويدافع عنها، «**المقطم**» هو الشيخ الشاهد على عز القاهرة وذلها ونصرها وكسرها ومكائدها، المقطم جواد كريم ضحى بما يملك من زروع وشجر ومياه، ضحى بكل شيء، ونال ما يستحق أن يكون على سفحه غراس أهل الجنة، هو الجبل المقدس عند الجميع بكنائسه ومساجده.

لكنة «**عم جداوي**» تبدو صعيدية وإن دارى، تعتقد أنه من جنوب مصر، وإن أنكر، لم تندهش من إنكاره وتهربه من سؤلها بقدر اندهاشها من هذا

الشاب المتأنق الذي اقتحم تجمعهم، وعبارات الترحاب التي تبادلها مع خالها و«**عم جداوي**»، ونظرته المحدقة فيها وكأنها تسبر أغوارها:

«**تريزا بنت أختي**».

قالها الخال، مد يده إليها، ترددت، عانقت أصابعه الضخمة، ضاعت في كفه، كذوب لحم مرتعد، ترى ما اسمه قالت في نفسها.

«**ريمون**»....

أجابها كأنه قرأ ما يدور بخلدها، خافت أن يقرأ ما هو أكثر، أشاحت بوجهها عن عينيه الخضراوين النضرتين وقامته الشاهقة التي احتلت المكان، كشجرة عملاقة تحتويها وتضم نظراتها.

«**ريمون**».

كررت اسمه في سرها، ولكن ضمة شفتيها كاشفت وبينت لعين لم تغادر بعد تفاصيل وجهها، تخترق ملامحها، كمكتشف في أرض خطرة، مزروعة بألف لغم، تلعثمت عندما انشغل عنها الشيخان، وصارت محاصرة، معتقلة تحت بريق عينيه، مطوقة تحت لهيب أنفاسه.

اصطنعت الجدية لتفك الحصار، حركت قدميها التي أحبت الغرس عند حدوده، طوحت بيديها، لتثبت أنها غير مسلوبة الإرادة، وهمت أن تنصرف لتدخل الدير، بادرها بمنحها سعفة فاليوم «**أحد الشعانين**»، تشجعت على أخذها بابتسامة خالها الراضية.

«**ريمون ده ابني. زي ماجد بالضبط**».

قالها الخال موثقًا لحالة من القبول نالت الاعتماد، لم تقل له:

«**وأين سعفتك؟**»

ولم يرد:

« **لقد كفته نظرتها فرحًا إلى ما بعد العيد**».

وكانت السعفة على شكل قلب، صدفة أو قدر.

انسحبت مؤقتًا من جذب الذكريات، والزمن الذي مر ولم يغير، يبقى شغفها بالمكان حاضرًا، أدت صلاتها كما تمنت، وأفرجت عما تبقى في صدرها من نزف وغادرت بعدما سطرت في ورقتها دعاءها بخط رديء، طوتها في غير اتقان ومنحتها للقديس تبرُّكًا ورجوة.

وخرجت لتجد زوجها في انتظارها.

إلى جوار «**عم جداوي**».

الذي لم يتغير سوى من شيب تناثر على فوديه وصلع غزا ناصيته، ولم تغير جلسته الأيام، اللهم إلا سقيفة من الخوص سمح له ببنائها والنوم فيها، تغطيها فرش من بلاستيك وخيش، تدفع عنه المطر والقيظ.

أهداه الأنبا «**أسطفانيوس**» أريكتين من خشب وكساهما «**عبده**»، رصهما متعامدتين يجلس الأخير على إحداها، منتظرًا زوجته التي غابت في الدير،

يرشف رشفات متباعدة من كوب الشاي المطعم بالقرنفل وقد فاح أريجه في السقيفة معانقًا خيوط الشمس النافذة عبر فتحاتها، حتى تجلى نورها فانسحبت خيوط الشمس تأدبًا، وأسبغت وجهها بابتسامة، جاءت شاحبة مرغمة، جلستهم لا ينقصها سوى خالها **الريس استوبينة**.

واساها عم «**جداوي**» في مرض خالها **الريس استوبينة**، لم يلحظ ارتباك «**عبده**» ووجهه الذي اربدَّ، رفعت حاجبيها المشكلين على الرقم ثمانية في دهشة، واكتشف «**جداوي**» متأخرًا جهلها بالأمر. لم يقل لها «**عبده**» انه حاول زيارته وان «**عم جداوي**» جس نبض «**ماجد**» في زيارتها وزيارة «**عبده**» ولكنه رفض.

هل غيرتنا الأيام هكذا يا صديقي؟

قالها «**عبده**» في نفسه عندما تذكر «**ماجد**»، أعز الأصدقاء، والعمر الذي كان.

لم تنتزعها المطبات الصناعية والطبيعية المتناثرة بطول طريق «**الأوتوستراد**» من أفكارها وسلامها الروحي الذي اكتسبته بعد زيارتها للدير لولا مرض خالها وقلقها عليه، راقبت زوجها الذي جلس خلف عجلة القيادة، تطلعت إلى الآيات القرآنية المعلقة على جانبي مرآة المنتصف، والورقة المعلقة فوقها وقد خط عليها:

« **الأرامل واليتامى لا أجرة عليهم وأجرنا على الله**».

نفس الجملة المكتوبة على ظهر الحافلة، أكثر ما جذبها إليه، قلبه الممتد على اتساع الكون، لامست أنامله التي تقبض على ناقل الحركة، بادلها ابتسامة بطعم الورد عانقت جيدها، فابتسمت كما اعتادت، ولكن تذكرت مرض خالها، فاضطربت وفض غزلها أدركت أن سلامها الروحي لن يتمم ليلته، ما دام في الدنيا أناس ترمي الشوك في طريق الآلام.

***

عزيزتي/ «**ليلى**»

بعد التحية ..اكتب إليك في أقسى لحظات حياتي ..لقد كنت على وشك الموت أو هكذا ظننت، ربما مت فعلًا أو ماتت الحياة في عيني، بعد أيام عقدت لساني ولا يدرك عقلي سوى استعادة المنظر الأخير، لا أجرؤ على الكلام، هل أخبرهم أنها ماتت في مكان بعيد ومع من مع صديق عمري الذي خان، ونحيا جميعًا بعارها وتشقى ابنتها بسيرة أمها الأولى يبحثون عنها في كل مكان بينما هي قد ماتت معه، كان يحكي لي عنها وكأنه يتلذذ بجهلي ونفوري من حكايته مع المرأة المتزوجة، ما دام يحكي لي من زمان عن بنات وسيدات يستمتع بحبهن وسقوطهن في شباكه، « **أمير أبو ستيت**» يملك من حلو الحديث وحسن الخلقة والمال ما يؤثر في الفتيات، حسدته يومًا ربما، تمردت على ظروفي وظروف أبي مرات، ولكن أن يطأ بقدمه رقبتي أين هي العشرة؟ ابنة خالتي المتزوجة ماتت معه. بركان هادر في صدري لا أعرف

أتكلم أم أصمت إلى الأبد. أعرف أنك تمرين أيضًا بظروف خاصة، وأن والدك مريض، ولكن ليس لي من صديق أبوح بسري إليه سواك.

ملحوظة العنوان الجديد هنا وعلى الظرف من الخارج. إلى لقاء.

علي السمان

بلوك ٩٢ – عمارات سبيكو – مدينة السلام – القاهرة – مصر

***

ألقت نظرة نصف دائرية على الشقة، وكأنها تكتشف أبعادها وسقفها وجدرانها الحديثة العهد، لم تأتِ هنا إلا مرة واحدة بعد خطوبتها مباشرة، وقتها لم تر شيئًا فقد كانت تحت تأثير الصدمة، صدمة الارتباط بشخص لا تعرفه، نعم يشترك معها في الاسم ولكن ما أبعد عمها وأولاده وبناته عنها وعن إخوتها، تدرك الهوة الكبيرة التي نشأت من جانب عمها «**فوزي**» وأبيها، ربما تدركها أكثر من أبيها نفسه المتشبث بآخر حبال المودة والإخوة التي هانت على من سواه، وهو يدعي أن للرحم فروضًا ولا مذلة عليه في إقامتها.

للرحم رقة وحنان ومودة، لم تشعر بهم مع «**علاء**» فهي لم تره **سوى** مرات معدودة لا تتخيل أن يجمعها معه مستقبل وبيت وفراش و ...

تكورت في مكانها عندما شطح خيالها، لا تزال تنكر هذه الحقيقة المؤجلة، تتناساها، عندما تلامس محبسه الذهبي الذي يطوق عنقها قبل خنصرها، واسمه الذي أصر أن ينقشه بظاهر المحبس، وليس باطنه على سبيل التغيير.

ترى حاضرها ومستقبلها في أبجدية حروفه

كلما وقع كفها في مجال الرؤية.

تراه.

في أكلها وشربها وغسلها.

تراه.

وهي تشير أو تهدد أو تدعو.

تراه.

يثقل أصبعها ويؤلمها.

وحيثما تخلع محبسه، تبقى حلقته على جلدها وشم، يذكرها، فتخلعها، ثم ترتديها، ترى اسمه عدلًا أو معكوسًا كحالها.

ولكن هل تملك من الأمر شيئًا؟

ولو كان الاختيار متاحًا من قبل، هل بقي لها الآن سوى الرضا؟

هل سمح لها القدر بالاعتياد على هذه الجدران والمكان والجيران في وجود أهلها لتألف غربتها المؤبدة؟

ولكن هل تتوقف غربتها عند الجدران فقط؟

أم تمتد للحياة بين ذراعي رجل لا تحبه؟

ما انسحبت الشمس من خلف الستارة القديمة الناجية من الزلزلة حتى دق الباب واندفعت «**تحرير**» خارج درقتها، تفتح الباب لأمها وخالها «**سيد**»، وقد بدا عليهما الإعياء، ارتمت «**نجاة**» على أقرب مقعد، تركت «**تحرير**» الباب قليلًا متوقعة وصول أبيها، ولكن «**نجاة**» أشارت لها بإغلاقه فلا يزال أبوها في «**أرض يعقوب**» رفض العودة معهما، بعد صلاة الجمعة، اقتربت منها «**تحرير**» لتطمأن عما حدث لـ«**صابرين**» ابنه خالتها ولكن أمها هزت رأسها نافيه أي خبر منها أو عنها لقد اختفت.

سألوا عنها الأقسام والمستشفيات وراجع خالها «**سيد**» كافة الأسماء التي وصلت إلى المشرحة بلا فائدة، زفر «**سيد**» في ضيق ودخل إلى المطبخ باحثًا عن لقيمات يقمن صلبه، فلم تسمح الظروف عند أخته في «**عين الصيرة**» أن يتناول شيء، بينما ظلت «**نجاة**» تقص على ابنتها ما تعانيه خالتها «**سمية**» وزوجها المسكين المتردد بين البيت لعله يأتيه خبر، وبين المسجد ملتمسا دعوة مستجابة، يسأل الله ألا يكون قد حدث لها مكروه، واعتصر «**سيد**» زوجها «**فكري**» بالسؤال: هل تشاجرا؟

هل تركت البيت غاضبة؟

لا جواب.

ثم تنهدت وكأن مصير «**صابرين**» صار أكثر غموضًا أما حال ابنتها الصغيرة التي تبكي أمها طوال الوقت وتسأل عنها في كل لحظة، هو الأكثر

إيلامًا، تصدع قلب «**تحرير**» المتعلقة بالصغيرة، وطلبت من أمها أن تذهب لرؤيتها، أومأت «**نجاة**» برأسها موافقة، وتمتمت عندما يعودون من السفر، اندهشت **تحرير** أي سفر هذا؟

إلى أين؟

في هذه الظروف؟

قالت «**نجاة**» إن السفر من أجل هذه الظروف، قالت وهي تدير رأسها للمكان الساكن، وسألت عن ابنيها، إجابتها «**تحرير**» والفضول يكاد يقتلها إن «**حمزة**» تناول فطوره بعد صلاة الجمعة ونزل إلى الشارع يتبادل لعب الكرة مع ولدين في نفس سنه تحت العمارة، بينما هي تعد الشوربة ل «**علي**» كي يتناول الدواء، أجابت بسرعة لتعود لموضوع السفر، مسحت «**نجاة**» رقبتها وكأنها تفك قيدًا محكمًا فوق عنقها، إن خالتها وزوجها و«**فكري**» سوف يتوجهون إلى «**شبراخيت**» تحديدًا قرية «**محلة بشر**»، هناك من سيدلهما على طريق «**صابرين**» أو مصيرها ثم تنهدت قبل أن تدير رأسها لتتحاشى النظر إلى ابنتها.

هنفتح المندل.

مندل .... سحر ...دجل.

رددتها «**تحرير**» في غضب مكتوم، أصابت عند أمها مكمن التأنيب، لم تحاول «**نجاة**» منع أختها طرق كل السبل، في رحلة البحث عن ابنتها

الوحيدة، وقد بلغ بها القنوط ما بلغ، طرقت «**تحرير**» برأسها، وعانق الصمت الوجوه حتى سألت «**نجاة**» عن حال «**علي**»، اجابتها «**تحرير**» هامسة إنها رأته يصلي الجمعة ظهرًا، وتبادلت معه بعض الكلمات، شكي لها الصداع الذي لا يفارقه ولكنها خشيت أن تجتذبه لحديث لا يروقه وينتكس، لا تدري «**نجاة**» ماذا أصاب بكرها، ولكنها لا تملك الا الصبر والدعاء.

اقتحم «**سيد**» مستفسرًا عن الغداء، لقد تجاوزت الخامسة، ابتسمت «**نجاة**» رغم المعاناة بعدما لاحظت في يده شطيرة من جبن وفي يده الأخرى حبة طماطم قضم نصفها وسال على شفتيه دمها، قاومت «**نجاة**» ألم عظامها الذي دكتها المسافة والمعاناة ودخلت تطمأن على «**علي**» ثم تجهزت لتلحق بصلاة العصر.

بينما دلف «**سيد**» إلى غرفة «**على**» ممتدحًا المكان هنا، والجو الهادئ غير زحام وضجيج «**أرض يعقوب**»، علت الدهشة وجه «علي» لحظات منذ متي ويحب خاله الجو الهادئ؟

وكانت الإجابة على لسان «**تحرير**» التي دخلت الغرفة مسبوقة بإناء عميق يعلوه بخار متصاعد، وضعته أمام أخيها ورمت كلمتها وهي في طريق الخروج.

زمزم.

عقد «**علي**» حاجبيه في دهشة وهو يتابع نظرة الهيام في عيني «**سيد**» الذي أمسك بالكراسة التي بجواره واستخدمها كمروحة، انتزعها «علي» في سرعة، أنها «**ليلى**» الإسبانية، لا شك في ذلك همس له «**سيد**» بخبث، «**ليلى**» وإسبانية معًا هو لا يفهم وترسل له بالعربية، وعلى الرغم من شرحه له الف مرة أثر «علي» الصمت بينما عاد «**سيد**» لموضوع «**زمزم**» الممرضة التي تسكن الجوار، وبدأ في وصف عينيها وبشرتها وبياضها وقوامها حتي دخلت «**تحرير**» بطبق أخر يحتوي على صدر فرخة مسلوقة، مد «**سيد**» يده إليها حاولت «**تحرير**» أن تمنعه وأن غداه سوف يعد لاحقًا ولكن «**عليًّا**» أشار لها أن تتركه، فهو يفتقد الشهية، وأنه لن يأكل الدجاج المسلوق على أي حال، نظرت لخالها نظرتها الحارقة وسأل « **علي**» عن أبوه فقالت «**تحرير**» إنه لم يأت معهما.

في أرض يعقوب. عند الحاج أبو ستيت.

دهش « **على**» ليس من عادة أبيه أن يترك أمه وحدها حتى لو معها أخوها، ويبقى هناك، لا يقوى على فراق مسقط رأسه، وكأنه يستغيث بهواها عوضًا عن أرضها التي انتزعها الزلزال من تحت قدميه ولم ينزعها من قلبه.

استخرج «**سيد**» بصعوبة قطعة اللحم التي علقت بين أسنانه قبل أن تدخل «**تحرير**» بقطعة فراخ أخرى محمرة قليلًا، وضعتها أمام «**علي**»، داعبها «**سيد**» بعدما مد يده إلى قطعة الفراخ طرقت عليها بالملعقة.

وابتسم «**علي**» لأول مرة.

يحسده «**علي**» على عالمه وقناعته بنفسه وثقته غير محدودة بإمكاناته الضعيفة رغم ذكائه وتقديره الذاتي لنفسه دون مراعاة للآخرين، يسخر من كل شيء، لا يكترث لما هو أبعد من أنفه .. مد يده إلى قطعة اللحم وناولها إلى «**علي**» وحثه على تناولها، قضم «**علي**» قطعة صغيرة ثم تناولت «**تحرير**» طبق الشوربة وبدأت تحث «**عليًّا**» على تناوله، رشفها في رشفات متباعدة، مرة بعد مرة حتى انتهى، ورفض أن يتناول المهدئ لأنه يصيبه بالفتور ويثقل رأسه والتفت يسأل عن «**حمزة**» الذى لم يسمع صوته، أخبرته «**تحرير**» أنه يستفيد من العطلة الإجبارية بسبب الزلزال، ويلعب مع أخي الفتاة الممرضة، وولد آخر تعتقد انه ابن السيدة المتأنقة «**رزة**» ..لا يعرف «**علي**» أيًّا من الأسماء التي ذكرت، بينما سرح «**سيد**» في هيام وسأل «**تحرير**» أنه تصيب يديه رعشة، وأنه يريد أن يأخذ حقنة، عليها أن تنادي الممرضة «**زمزم**»، ضربته على رأسه ثم انصرفت تلبي نداء أمها لتستدعي «**حمزة**»، ولكن «**سيدًا**» أخبرها انه سينزل إلى الشارع بعدما يئس من تناول الغذاء، قرر أن يجلس قليلًا على المقهى، وينادي «**حمزة**».

***

كان لقاؤهم بريئًا، جمعتهم السن المتقاربة ف«**حمزة**» و«**عمر**» بالصف الأول الثانوي بينما «**إسلام**» في الصف الثالث الإعدادي، يبدو «**عمر**»

أطولهم قامة وأكثرهم رجولة بهذا الشارب الخفيف المائل للخضار فوق شفتيه، لولا العرج في قدمه، بينما «**إسلام**» هو الأكثر بدانةً، لاحظ «**حمزة**» أنه يحمل نفس ملامح وعيني «**ماريا**»، ولكن مع انتفاخ وشعر جعد، تعارفوا سريعًا، تكلموا عن كل شيء، جلسوا على درجات غرفة الكهرباء، تكلم «**حمزة**» عن «**أرض يعقوب**» ومدرسته الخديوية الثانوية العسكرية المؤسسة في عصر «**محمد علي باشا**»، وهواية المراسلة الذي بدأها مؤخرًا اقتداء بأخيه وأحداث النهاية التي اقتربت وأولها الزلزال، وأن القيامة صارت على الأبواب وتحدث «**عمر**» عن بلدتهم «**قطور**» والمساحات الخضراء وروايات مصرية للجيب الذي يستبدلها من مكتبة «**الشيخ الضوي**»، ومدرسته التي لم تبلغ الخمس سنوات، وعن حرب «**البوسنة والهرسك**» التي لا يفهمها حتى اليوم، وتحدث «**إسلام**» عن مباراة المنتخب مع «**أنجولا**»، والمخروطة باللبن والأسرار التي يعرفها عن كل البيوت عندما يتحول إلى قط في الليل، نظر إليه «**حمزة**» في دهشة وهو يقولها بكل بساطة، أمَّن «**عمر**» على كلامه بإيماءة من رأسه، كعالم جليل يعتمد حقيقة علمية.

بدؤوا في تناقل الكرة سأله «**عمر**» بجدية عما حدث لبيتهم وقت الزلزال وهل يستمرون كثيرًا هنا رد عليه «**حمزة**» وقص لهما ما حدث في «**أرض يعقوب**» ثم ضحك «**إسلام**» عندما ذكر أن «**عمر**» نزل من العمارة بملابسه الداخلية، لملم «**حمزة**» ابتسامته في حرج بعدما راقب وجه «**عمر**»

المحتقن كرجل صغير أهينت رجولته، ولكنه تماسك وقال في جدية إنه كان عائدًا للتو من المدرسة بينما هو أي «**إسلام**» فقد نزل إلى الشارع حاملًا في جيبه عددًا هائلًا من حبات الجوافة، ضحك «**إسلام**» ضحكة مدوية، إنه اعتقد في انهيار العمارة فقرر أن يضمن الغداء والعشاء، ضحكوا معًا، وقبل أن يستعيدوا تبادل الكرة وجدوا أمامهم «**أشرف الخواجة**» انقلبت سحنة «**إسلام**» و«**عمر**» إلى غضب مفاجئ لم يفهمه «**حمزة**» ، وقبل أن يتفوه بكلمة مد «**أشرف الخواجة**» يده ل «**حمزة**» أن يعطه الكرة ولكن «**عمر**» منعه.

قابله «**أشرف الخواجة**» بابتسامة ساخرة، توجَّه بعدها إلى المقهى حيث ينتظره «**أيمن هندي**» مؤمنًا ما تبقى من ترتيب.

سمعه في اهتمام حتى توقف أمامهما هذا الشاب النحيف وعلى وجهه ابتسامة سخيفة.

- أشرف الخواجة!

ردها «**أشرف**» بدهشة:

سيد لبط!

***

جلس على الأريكة يشعل سيجارته العاشرة.

«**رزة**».

مسكينة فرحتها بزيارة الدير لم تكتمل، تحضر العشاء للولدين والحزن يملأ عينيها، كانت خائفة، صدقت، الحزن اقرب إلى الباب من الفرح، جلست تمارس هوايتها بصنع الحلويات، اقترب منه «**إسلام**» و«**ماريا**» يلتفتان حولهما كلصين مبتدئين، راقبهما «**عبده**» في ابتسام، وقف التوأم يتنازعان الحديث، حتى تهيأ «**إسلام**» للمواجهة وتراجعت «**ماريا**» خلف ظهر أخيها وقد ألقت ببصرها ترقب أمها التي قد تأتي بين لحظة وأخرى، وتتأخر فورة الشجاعة مرة أخرى، كما تأجلت من قبل ، ولم يخل لهما وجه أبيهم، عقد «**عبده**» حاجبيه هادئًا يترقب، وعندما توثقت «**ماريا**» من انشغال أمها في المطبخ، تجرد «**إسلام**» للأمر وهمس لأبيه في صوت لم يخل من صرامة لم يعتدها، إنه و«**ماريا**» اكتشفا شيئًا غامضًا وخطيرًا، أقبل عليه أبوه بقلب واجم يحثهما داعيًا من الله ألا يكون ما في باله صحيحًا، راقب وجه «**إسلام**» الذي بدا كمن فقد بوصلته ولا يدري من أين يبدأ، تكور «**عبده**» في مكانه، يعرف أن اللحظة آتية لا ريب، ولكنه ما ظنها بهذا القرب، تنفس بصعوبة كمن على قلبه ثقل جبل، وهو في درقته مخطوفًا، حتى انطلقت صرخة كانت بر النجاة لسفينة «**عبده**» التائهة بلا مرفأ، صرخة أودت بهم جميعا إلى الشارع، وعاد الذعر يحتل ناصية الجميع ألا «**عبده**» التي أخرجته الزلزلة من شرك محكم نصبه له ولداه، لم يكن يدري أن هناك فخًّا أكبر يرسم خطوطه شيطان خائف طريد تحرضه نظرات تابع أرعن، لم يثق قط في أستاذه.

***

كلما دقت الساعة زاد قلق «**نجاة**»، التي زرعت الغرفة جيئة وذهابًا في انتظار زوجها، تهاجمها الظنون، «**أم كلثوم**» توقفت عن الشدو في غرفتها منذ العاشرة اختفت معها «**تحرير**»، لا صوت يصدر عن غرفة الرجال، لا تعرف أن «**سيدًا**» يحكي همسًا لـ«**حمزة**» و«علي» حكاية «**أشرف الخواجة**» المعروف سريًّا بـ«**أشرف**» ابن «**سميرة**».

والصورة المرسومة له هنا في المنطقة لا يعرف أهل المكان أنه مطرود من «**مصر القديمة**»، بعدما تشاجر مع مجموعة من الشباب من منطقة «**الخيالة**» بالقرب من جامع «**عمرو**» لم يعرفوه، ضايقوه، فأخرج مديته فأوسعوه ركلًا وضربًا، استوطؤوا قدره وأهانوه، ولكن ما برح أبناء «**الخواجة**» بعدها أن نالوا منهم، وتمكنوا منهم دنيء التمكن، سامهم «**رضا الخواجة**» سوء العذاب، حتى وطئهم بقدمه، ولكن بعد فوات الأوان فقد ذاعت أخبار الشجار «**مصر القديمة**» وضواحيها وصار «**أشرف الخواجة**» في موقف «**السيدة عائشة**» مجال همز و لمز، وارتسمت بين شفاه السائقين وآذانهم خطوط من تهكم، وبعدها اختفى «**أشرف الخواجة**» تمامًا من مصر القديمة.

«**جبرتي أرض يعقوب**».

همس بها «**حمزة**» في أذن أخيه الذي ابتسم وقد أخذته الحكاية.

وتابع «**سيد**» - متغافلًا عن تعليق «**حمزة**» مستمتعًا بإذعان «**علي**»- عن توتر «**أشرف الخواجة**» عندما رآه وكأنما رأى عفريتًا، ولكنه طمأنه بعيدًا عن

تابعه، اسمه «**أيمن هندي**»، نعم، اسمه هكذا، ربما لأنه يشبه الهنود في ملامحه السمراء وشعره الأسود المرجل، جلسوا على المقهى وبعد نظرة معينة أغلق المقهى من الداخل على عدد محدود من سماره وتحول إلى نادي فيديو، يقدم الأفلام الممنوعة من العرض، وهمس لهم أنه ينوي أن يسهر معهما يوميًا، ولكن أكثر ما ضايقه هو اسم «**زمزم**» الموشوم على ذراعه، ترى هل ثمة علاقة بين ملاك الرحمة والشيطان المطرود؟

هم «**حمزة**» أن يقول شيئًا، ولكن صوت باب الشقة الذي فتح وعودة أبيه وصوت تنهيد أمه جمعهم في الصالة وقد قاربت الساعة تعلن انتصاف الليل.

بدا على «**زينهم**» أمارات التعب، ألقى نفسه فوق الأريكة، بعدما طرح إلى جانبه الطبعة الأولى من جريدة الأخبار التي يحرص «**حمزة**» على قراءتها، أخبرهم بعدما التقط أنفاسه لأنه خرج بعد صلاة العصر مع الحاج «**محمد أبو ستيت**» وذهب معه إلى مستشفى «**هليوبوليس**» في مصر الجديدة، بعدما تلقى مكالمة من بواب عمارة مصر الجديدة التي يسكنها «**أمير**»، توجع بلا صوت من آلام الركبة، تطلع إليه الجميع في دهشة وعقد «علي» حاجبيه، واضطرب، لقد عرفوا بموته أخيرًا، واستفسرت «**نجاة**» لماذا؟ جاوبهم وهو يئن من ألم ركبته وهو يخلع جوربه:

«**أمير ابنه في غيبوبة**».

وأردف في أسًى:

«**بين الحياة والموت**».

بهت الجميع وكأنهم تحولوا إلى تماثيل من ملح، تماسك «**علي**» بصعوبة وقاوم الدوار الذي داهمه وانسحب إلى غرفته، تحت ظلة عيناه تتابعانه معزية لألمه في صديقه الوحيد، هكذا ظنوا، بينما تسمر «**سيد**» في مكانه، لا يدري أي الانفعالات يبدي، هل الأسى الزائف على الفتى الذي يحتضر، أم تشفي في طاووس أرعن، قضى عمره في العبث واللهو والمجون ولم يشركه معه؟

«**فليذهب إلى الجحيم**».

هكذا صرخ «**سيد**» دونما كلمة.

وانسحب خلف «**علي**» محملًا بحقده على من كسب بلا عمل، وحصد مالم يزرع، ونال من المحرمات ما خطر على قلب بشر.

«**أمير أبو ستيت**».

الشيطان الذي لم يترك الجنة، جنة أبيه وما قد سلف، متوج على عرش الدعة والغنج، قارة من اللذة يتسكع في رحابها فيها، «**طرزان**» يتنقل بين الشجر، لا يميز بين شجرة مباركة وأخرى محرمة، مال ونساء وخمر، حشيش وسيارات وسفر وما خفي.

«**وحده**».

يكررها «**سيد**» في نفسه وربما بصوت عال.

لم يترك بجواره سوى «**وحيد الزيني**»، كلب تابع، بدرجة لص.

جلس «**سيد**» بجوار «**علي**» الممسك برأسه بين كفيه.

«**علي**» غر ساذج، راهنه يوما ما على تغيير « **أمير**» إلى الأفضل حبًّا وكرامة وعشرة، مسكين لا يعرف أن الإنسان أضعف من تغيير نفسه، ما بالك بتغيير غيره.

صوت نشيج «**علي**» المفاجئ يستدعيه من فقاعة الحسد الذي ملكته، رق قلبه لحال ابن أخته، أخيه الأصغر، تنحنح وخفض صوته مدعيًا الأسى، مرددًا، أن بين الموت والحياة لحظة، غفوة، صدمة، نتيجة تحليل، شارع مزدحم، زلزال، وأن «**أمير**» ما زال على قيد الحياة، وسيدعو الله – من أجله فقط – أن يستعيد وعيه ويعود كما كان.

«**كي يكمل ما بدأ من عربدة**».

ابتلع الجملة الأخيرة ولم يقلها، بينما سكنت يده تربت على كتف ابن أخته، لم يره بهذه الحالة قط.

«**علي**» زاد نحيبه وارتفع صوت بكائه، حتى سال ريقه، وهز رأسه بالنفي، لم يفهم «**سيد**» ما يعنيه، عقد «**سيد**» حاجبيه حتى تلامسا، وانتظر حتى استعاد «**علي**» هدأته، الذي بدأ يسكن ويمسح دموعه التي فاضت،

وقرر أن يفضي بكل ما حدث قبل أن يجهز السر عليه وتفيض روحه، طلب من «**سيد**» أن يغلق الباب جيدًا، تحرك «**سيد**» بدفع الفضول الممزوج ببعض التوتر، أحكم الباب غلقًا.

قص «**علي**» حكاية «**أمير أبو ستيت**» مع **صابرين** بأنفاس مقطوعة دحرها القهر والانفعال.

لم يقاطعه «**سيد**» الذي أربكته الصدمة وبدأ في عقله يمد الأمور على استقامتها، أحداث ومواقف ونظرات وهمزات تكشف الأمور على حقيقتها، لم يدرك وقتها أن نيران « **أمير أبو ستيت**» امتدت حتى مساكنهم، انقبضت قبضته في غيظ، ولعن صابرين أينما كانت.

وبينما شملهم صمت ما بعد كشف الحقيقة حتى سمعوا صرخة صحبتها هزة عنيفة مالت بهم هرول الجميع إلى الخارج، إنها زلزلة أخرى تحمل أمارات التهديد، تابعت الأقدام النزول إلا قدمان اثنتان تهرولان صاعدتين أعلى الدرج في الاتجاه المعاكس.

قدما «**أحمد منتصر**».

الذي ترك الدكان مفتوحًا، تابعه الجميع في دهشة بينما سمعت منه «**تحرير**» كلمة:

«**ابني**».

الفصل الخامس

أي خدمة يا عمي؟

حدج «**إبراهيم عرفان**» الشاب الذي تجاهل وجوده بنظرة قاسية قبل أن يشيح بوجهه بعيدا، بينما رد الحاج «**محمد أبو ستيت**» شاكرا بعد لحظات وكأنما استدعوه من عالم مواز، وحاول أن يقرن عباراته بابتسامة شكر أتت رغماً عنه شاحبة زائفة، منحه «**وحيد الزيني**» مفاتيح شقة مصر الجديدة بعدما أتمم إغلاقها ثم انسحب بعدها بعدما ألقى نظرة متوجة بالمكر الى «**إبراهيم عرفان**» الذي شيعه بأقذع اللعنات، وهو ينعت نفسه بمثلها، عندما ارتضى أن يزوج ابنته الوحيدة هذا الوغد «**وحيد الزيني**» الذي لم يصنها.

امتدت يده إلى علبة السجائر «**كنت**» الملقاة امام الحاج «**محمد أبو ستيت**» على طاولة كافتيريا مستشفى «**هليوبوليس**»، عاد «**محمد أبو ستيت**» إلى شروده، ينفث دخان سيجارته في بطء، تغرس الظنون في قلبه شوكها، كلما هدأت نفسه داهمه خوف مباغت، لقد صار عقبه في الدنيا مهدد بين لحظة وضحاها أن يبتر.

يكشف «**إبراهيم عرفان**» من نظرات صاحبه النازحة خارج المدار، **ما** يجوس داخله من غليان. ليس فقط من سقوط ابنه «**أمير**» في غيبوبة منذ أكثر من أسبوعين، ولكن من كلام الأطباء غير المفهوم.

نعم هم يبذلون جهدًا خارقًا في مساعدته في التئام جروح الرأس والظهر التي أصابته، ولكنه راقد بلا حراك.

إلى متى سوف تستمر هذه الغيبوبة؟

وما الذي يساعده على اجتيازها؟

انه لا يبدي أي رده فعل، لم يتبق منه سوى نفس يتردد، يأكل عن طريق أنبوب متصلة بمعدته عبر أنفه، يقدم من خلالها الأكل المهروس، بالإضافة إلى مسبار يخترق ذراعه يبدأ بعبوة من المحاليل، وأسلاك متصلة بأجهزة حيوية تشي أنه ما زال على قيد الحياة.

«**كلنا مساكين**».

قالها «**إبراهيم عرفان**» في نفسه عندما تذكر ابنته «**رحمة**» وجلستها باكية، **رحمة** ...

صوتها نشيج يؤرق نومه، نظراتها اتهام يقلق هدأته، انسحابها من عين الشامتين والسائلين واللائمين عذاب يومي يلاقيه، تسأل النسوة عن زوجها الذي خرج ولم يعد؟ هل طلقها أم تنتظر؟

هل تأخُّر الإنجاب هو السبب؟

هل أحب غيرها؟

نظراتها تجلده بسوط اللوم، تسومه سوء العذاب، يدافع عن نفسه بأنها هي التي اختارت، ثم يعترف في نفسه:

(لم أضع في سلة الاختيار سواه).

«**وحيد الزيني**» كان يحدثها عنه وذكريات أيه، وشهامته، ركون أمه لتربيته، ورفضها لبقية الرجال، حتى عمها «**محمد أبو ستيت**» أراد أن يتزوجها كرامة لصديقه ولكنها أبت كرامة ل «**تحية**» زوجته، صرح بها عرفان وفي صدره مكثت الخبيئة – فلم يقنع «**عرفان**» وقتها بحجه صديقه فلقد كانت أم **وحيد** جميلة حقًّا ووجدها خير عوض عن «**سميرة**» فاتنة أرض «**يعقوب**» حبهم الأول، تذكر عندما اقتحم غرفتها بعد جلسة حشيش استثنائية لولا الجيران أنقذوها، سقطة أخيرة ل «**محمد أبو ستيت**» أثر بعدها أن يبتعد إلى الخليج كي ينساها وقد فعل.

تنهد «**عرفان**» في أسي، لا يعرف هل اشترك فعليًّا في دمار ابنته؟

هل أتاها الهلاك من خلاله؟

نظر إلى صديقه الذي انكسر رماد سيجارته وهو هائم في شروده، ترى هل يفكر «**محمد أبو ستيت**» هكذا؟

هل جنى ولده عليه بسيرته السيئة؟

أما جنى هو عليه بترحاله؟

«**بل جنت الغربة والأموال على الجميع**».

قالتها الحاجة «**تحية**» من يومين في لحظة غضب نادرة.

كفرت بكل العشير دفعة واحدة، لم تكترث لهيبة زوجها أو لوجود بناته وازواجهن وصديقيه «**إبراهيم عرفان**» و«**زينهم السمان**» وحتى الطبيبة «**هداية**» المعالجة ل «**أمير**» وانفجرت فيه امام الجميع.

تهمته صراحة انه السبب في كل شيء، ادعت انه لم يسأل عنه بعد الزلزال، تناست في فورة غضب نسوية، انه ذهب إليه ولم يجده وسأل البواب الذي أنكر معرفته بسبب أو مكان غيابه، لم تصرح أيضًا أن البواب أخبره بعدما رشاه أنه كان بصحبه امرأة قبيل الزلزال لم يخبره من هي؟

من كثرتهم ربما يعرفها الأستاذ «**وحيد**» فهو لا يفارقه قط، أنكر بعدها «**وحيد**» علمه من هي، إذًا، هو يعربد في مكان ما، لا داعي للقلق.

هاجمته أنه لولا المصادفة و«**خلف**» عامل المستشفى الذي يعرف ابنها جيدًا ما تعرف عليه أحد، الوحيد الذي يستحق التقدير هو هذا الرجل الذي أنقذ ابنها من الإهمال؟

لولاه ما تعرفه أحد وظل مجهولًا، ثم وضعت يدها على خصرها واكتسب صوتها نبرة عتية صلفة هازئة:

هل إدارة المستشفى كانت لتبقي عليه وهو بلا أهل وبلا نقود؟

تحرجت الدكتورة «**هداية**» وانسحبت، لم تتوقف الحاجة «**تحية**» التي انطلقت كمدفع إلى مفقود السيطرة، يبعثر طلقاته البرونزية في قلب هدف واحد:

«**محمد أبو ستيت**».

لم تنل الصدمة من الحاج «**أبو ستيت**» فقط بل نالت من الجميع فلأول مرة تبدو الحاجة «**تحية**» بهذا الشكل، الكل يعرفها وديعة مذعنة مستسلمة.

هل جرأتها غربته؟

وزال قدعها بترحاله المستمر، ربما صدمة ولدها الوحيد الراقد بين الموت والحياة، أثروا سلبًا فيها وانفلتت أعصابها، والتمسوا لها العذر، وبعدها عادت واعتذرت وتعللت أنها المرة الأولى التي تتجاوز والأخيرة.

ولكن الحاج «**محمد أبو ستيت**» لم يرد على الإساءة ولا الاعتذار، صمت ولم يعاتب ولم يغضب ولم يشكُ.

سكت كما هو الآن، هل اصابت كلمتها الحقيقة؟

هل كانت غربته هناك في الخليج، أم صارت غربته هنا؟

لقد عاش هناك أكثر من هنا الإجازات السنوية التي لم تتعد الشهر لم تكن أساسية في تربية ولده وبناته، وحتى زوجته لم تعتد على وجوده أكثر من هذا؟

هل فقد بريق حضوره بعد الغياب؟

قطع الحاج «**أبو ستيت**» حالة الانتظار وتقدم يتبعه صديقه عائدًا إلى غرفة ابنه الممدد على فراشه وأمه الحاجة «**تحية**» تجلس إلى جواره كما اعتادت طوال الفترة الماضية تتأمل نصف وجهه الذي ما برحت الكدمات تشوه ملامحه التي صارت تشبه الطباشير البيضاء، لا تقوم إلا لتقبل برفق رأسه الملفوف بالشاش الأبيض، وتروي وجهه بدموعها الصامتة، لم تتحرك من جلستها حتى بعدما دلف «**محمد أبو ستيت**» و«**إبراهيم عرفان**» من الباب، جلست تمسك بيده بين راحتيها تقبلها بين الحين والآخر، كانت تحدثه تناجيه تقسم عليه أغلظ الأيمان أن يستيقظ ولا يتركها .

قالت لها «**د. هداية**» ذات مرة انه يشعر بها، لن يجيبها ولكنه يشعر بمن يحب حتى لو كان في غيبوبة عميقة، لأنها لاحظت نشاطا كهربيا في مخ «**أمير**» عندما تقترب أمه منه ومن يومها لم تتركه، سألت الطبيبة متوسلة هل هناك أمل؟

قالت لها إن اليقظة من الغيبوبة يعتمد على عدة عوامل الأول عمر المريض، الثاني سرعة شفاء المناطق المتضررة من الدماغ، وهو يتم الآن لأن الارتطام الصلب الذي تعرض له تسبب في ضرر في جذع الدماغ، وهذا في صالح حالة ابنها لم تقل لها العامل الثالث المدة التي قضاها المريض في الغيبوبة. إذ زادت المدة، قلت معها فرص النجاة زادت معها فرصة البقاء في الغيبوبة مدى الحياة، ويسمى مريض الغيبوبة الدائمة أو الغيبوبة النبوتية.

طمأنها «**إبراهيم عرفان**» بكلمات ثم أذن بالانصراف خرج معه الحاج «**أبو ستيت**» حتى باب المستشفى، تذكر «**إبراهيم عرفان**» القنينة التي أتى بها ومنحها للحاج «**أبو ستيت**» الذي تناولها في تردد.

قابلا «**خلف**» عامل المستشفى اقترب منه الحاج «**أبو ستيت**» وربت على كتفه، وتمتم شاكرًا للمرة المائة، ومنحه ورقة مالية حمراء، تحرج « **خلف**» ولم يخف فرحته، تردد، شجعه «**إبراهيم عرفان**» أن يد الحاج لا ترد، لا يخجل فهو مثل ابنه، دسها «**خلف**» في جيبه شاكرًا.

بينما أنهت الحاجة «**تحية**» صلاة العصر وابتهلت إلى الله أن يشفي ابنها، جلست إلى جواره ولامست يده التي تحركت فجأة، تراجعت بفعل الصدمة، تبينت مكانها، تثبتت أنها لم تكن تحلم أو تهيَّأ لها، عادت يده بلا حراك، لامستها، حركتها، قرصتها، لا فائدة، وقبل أن ينال منها اليأس تحركت اليد للمرة الثانية، صعقتها الفرحة، طارت بشحومها التي تجاوزت المائة كيلو

تبحث عن الدكتورة «**هداية**»، تعبر الردهة تلو الردهة بحثًا عنها بينما عادت إليد إلى سكونها تنتظر.

تنتظر شخصًا آخر غير الواقف أمام الباب.

وعبره إلى داخل الغرفة.

وبدأت تعلو أنفاسه.

ذئب جريح يعوي من الألم.

وجد ضالته أمامه راقدة فوق الفراش بلا حراك، وبينهما أقل من مترين، وبينهما ثأر ودم وخيانة.

هل يشعر به؟

وهل يرتعد لوجوده؟

أسئلة لا يقام لها وزن في عقل «**علي السمان**» الذي اقترب من صديق العمر الخائن والطريق ممهد لنيل العقاب.

***

في مكان ما، مضطرب كدوامة، صامت إلا من موجات صوتية متداخلة، مجهولة التمييز، مخيفة كثغاء نعاج تحتضر، صداها يتردد مرات عده وكأنها تغرق في بئر سحيقة، رأى «**أمير أبو ستيت**» نفسه نعم رآها بزاوية صقر محلق،

رآها تمشي بين جبلين في طريق وعرة مكبل اليدين والقدمين بسلاسل حديدية كأنه عبد، وعلى ملامحه تتجسد أمارات الخوف، ود لو يسرع الخطى ويتجاوز النفق حتي الوادي الفسيح الظاهر في الأفق، يتصبب عرقًا ونفسه يتصاعد كمرجل يحذوه الأمل أن يتجاوز، حتى بدأت زلزلة نالت من صخر الجبل، الذي بدأ يتساقط فوق رأسه رويدًا رويدًا، زادته المعاناة مقاومة، متناسيًا أغلاله، صوت ما يصدح من أخر النفق، يصرخ «أمير» طالبًا النجدة، الوجه مميز إلى حد بعيد، كلما تساقطت الصخور ضاعف الركض، الاغلال تعيق حركته، والصخور تمطره بلا رحمة، والوجه يقذف له بحبل كي ينقذه، حاول التقاطه وفشل، مرة أخرى فشل آخر، وأخيرًا يلتقط الحبل، انتزع طوق النجاة، ملمس الحبل لين، وليس خشنًا كالمعتاد، لا يهم، الملمس المخملي صار لزجًا، قطرات من نزف حار، تمطر فوق الحبل تمامًا، فوق الحبل فقط، النزف غامق لا يشبه الماء، نظر إلى أعلى، فوق الجبل ثمة أنثى تنزف من تحتها، وتبكي، صوتها كمواء قطة تنتحب، لا يرى وجهها، نزفها فقط، بطء، مركز، يتشبث بالحبل المبتل، ويطيل الركض، الصخور تزداد، والنفق يضيق، يكاد يعصره، وفحيح يصدر عنه، توقف «أمير» عن العدو، واستسلم للصخور التي تهوي فوق رأسه، وحدق إلى الحبل الذي حسبه طوق النجاة وقد تحول شيئًا فشيئًا إلى كائن حي، دوى فحيحه في الآفاق، فقد تحول إلى ثعبان.

***

- «**ثعبان**»

نطقها «**د. يحيى العديسي**» مذهولًا في ردهة مستشفى هليوبوليس، أومأت «**سعدة**» أخته الصغرى برأسها إيجابًا.

تراجع بظهره مستويًا على المقعد وهو يحك ذقنه بأنامله، وابتسم رغمًا عنه، لا تكتفي الحاجة «**فهيمة**» دائمًا في إبهاره، لا تتوقف أبدًا، دائمًا هي مسار إعجاب وتساؤل، كانت من قبل ترد وهي نائمة في منتهى التركيز، كانت تسمعه وإخوته يتهامسون في الحجرة المجاورة، وكانت تعيد عليهم كلامهم، مستوى الإدراك عندها يكشف دائمًا المستور، عينيها تدوران في محجريهما كعرافة محترفة.

لا يزعجه فيها إلا التناقض، يراها قاسية في حكمها حتى لا يهتز لها جفن، وفي صلاتها خاشعة باكية، لم يرَ دموعها عندما مات أبوه، وقفت كرمح أفريقي صامد، تقيم الليل في خمسين ركعة وتراها مستيقظة من بعد الفجر، حتى في المرة الوحيدة التي أصابتها الحمى، وتدثرت فوق فراشها، رأوا بما فيهم أبوهم امرأة غريبة تزورها، تجلس على طرف فراشها، لا يعرف أحدهم من أين جاءت، كانت تظهر أمامهم من ظهرها، تشبه أمهم من الخلف تمامًا، ترتدي زيًّا عربيًّا كبدو الصحراء، منعتهم امهم من تجاوز عتبة الباب، حتى اخترقت «**سعدة**» الحظر ولم تبلغ من السنين سته، وصرخت:

«**أمي تانية**».

واختفت الزائرة فجأة كما ظهرت فجأة، رأوها كلهم وأيديهم متسخة من بصل السخينة تمتم وقتها «**حجاج**» بذهول **سعدة** وكلماتها:

«**امي تانية**»

سمعها «**يحيى**» جيدًا وقتها وكان قد تجاوز العاشرة أنها قرينتها أتتها في زي «**أم الشلاشل**» لتطمئنَّ عليها، اكتشف «**يحيى**» نظره الرعب في عين أبيه، ومن يومها ما اعترض عليها وما جادل ولا ناقش.

كل هذا وإن ألف لكن تربي وتصاحب «**ثعبانًا**» اسمه «**سلامة**» قاطعت تفكيره «**سعدة**»، التي سوف تصبح مثل امه يوما ما، -لولا عيناها الصغيرتان كعيني دمية-همست أنها رأت أمها مرة في صورة «**أم الشلاشل**».

لم يقل إنه لا يراها إلا في صورة «**أم الشلاشل**».

ترى إلى اين تأخذنا دنياك يا حاجة «**فهيمة**»؟

تسامر مع «**سعدة**» في حال البلد قاتلًا الوقت.

هل يفكر «**حجاج**» حقا في خوض الانتخابات؟

أين له بالمال كي يصرف ومنافسه القوي الحاج «**أبو الخير**»؟

وهل المستشفى الذي يود بنائه ويوليه عليه جزءًا من الخطة؟

وذكر بنات «**حجاج**» دون أن يذكر أمهما، تنهدت «**سعدة**» بأن أخاهما الأكبر وجد ضالته في تهريب السمك من البحيرة الى السودان، يحرص على هذا السر حتى لا يعادي الحكومة، حتى «**تها**» نفسها لا تعرف.

قاسية هي «**سعدة**» تطأ قلبه باسمها والجرح مفتوح معد للنزف، أكملت أن «**حجاج**» **ينتظر** مولد الذكر، يعد الأيام وسيظل يعدها إلى ما بعد عيد الفطر حتى يأتيه النبأ اليقين، الحاجة «**فهيمة**» حملت ل «**حجاج**» البشرى في أوقات كلامهما القليلة أن بطن «**تها**» تحمل ولدًا، فملامحها تشي بذلك، سددت «**سعدة**» طعنة غائرة في صدر أخيها عندما ذكرت حبيبته وما تحمل من صلب أخيه.

ترى هل اكتشفت الحاجة «**فهيمة**» من ملامح «**تها**» ما يغيض به رحمها؟

ولم تدرك ما وقر في قلبها؟

سألته «**سعدة**» في خبث لماذا أتى بأمه لإجراء الفحص الطبي لها هنا وليس في المستشفى الحكومي الذي يعمل به، رد وقلبه وعقله هناك عند الشجرة التي شهدت حبه الوحيد وضحكة «**تها**» التي سطعت في سماءه، رد بأن أجهزة الأشعة هنا أفضل وأنه يعلم حياء الحاجة «**فهيمة**» أن يكون موجودً معها، فطلب ذلك من زميلة له يثق بها للدرجة التي تدفعه لمشاركتها في العيادة التي يجهزها **زميلة!**

قالتها «**سعدة**» وهي تعرف ما في قلبه، ربما كانت تتمنى أن يدق قلب أخيها بمن تليق به وينسى حكاية «**تها**» المؤلمة، الطبيبة جميلة وردية الملامح، في عينيها مودة لاحت عندما استقبلت أمها، وسلمت عليها واحتضنتها بترحاب، لولا نظارتها الطبية وشعرها المعقود كذيل حصان لبدت أكثر جمالًا، «**سعدة**» تفحصتها من أخمصي قدميها حتى رأسها، حقيقة لم تغب عن ذهن د. «**يحيى**»، كاد أن ينفي عن نفسه تهمة انشغال قلبه بغير «**تها**» قال وقتها بأي امرأة ترجمتها العرافة الصغيرة كما جالت في ذهن الموطن الأصلي.

أصعب ما في الحياة أن تعرض مشاعرك وأحاسيسك في قفص زجاجي، كحيوان أليف مستأنس غير قادر على التمرد، حتى لو صارت نسيًا منسيًّا، امرأة أخيه الذي يحبه ويقدره، لكزته «**سعدة**» التي قامت من مقعدها، تحكم وضع طرحتها السوداء على منبت شعرها وتعقد الملس الأسود حولها، تشبكه بالإبهام والسبابة تحت الذقن تمامًا، فقد عادت الحاجة «**فهيمة**» مستندة على ذراع الطبيبة زميلة أخيها، استلمت «**سعدة**» يد أمها التي استوت على المقعد وعلى جبينها انعقدت خيوط التعب والإرهاق، ساعدتها «**سعدة**» بينما انتحى «**يحيى**» بالطبيبة على بعد خطوات ليتابع حالة الحاجة «**فهيمة**» التي لم تخرج عن انسداد الشريان التاجي وعطب في الصمام الميترالي التي تمتمت:

بت زينة.

قالتها ولم تزد، فرحة ما طافت بذهن «**سعدة**» وقد نالت الطبيبة صك الرضا النادر من الحاجة «**فهيمة**» وتمنت من الله أن تكون الطبيبة تلاقى هوى أخيها، تتأملهما «**سعدة**» من زاوية مواجهة، بشرتها البيضاء الوردية وبشرته السمراء تمثلان تناسقًا غريبًا، يتحدثان كأن تناغمًا ما بينهما، لولا تلك السيدة البدينة التي اخترقت المناجاة، ثم انسحبت مسرعة بالطبيبة وعاد «**د. يحيى**» إذ تجلس الأم والأخت همت «**سعدة**» إن تقول شيئًا لولا أمها سبقتها.

اسمها إيه البنية يا وليدي!

اسمها «هداية» ...«د. هداية»

جاوبها «**د. يحيى**» مترددًا.

بينما عادت **د. هداية** مع الحاجة «**تحية**» إلى غرفة ابنها وما ان عبرت الباب أمامها حتى توقفت فجأة وكادت تصرخ من فرط الانفعال.

***

عاد منطفئ الوجه، متوَّجًا بالخيبة.

استدعاء الموت أصعب مما تصور، عندما رأى صديق العمر معتقلًا في حياة البرزخ، ملتصقًا بالفراش، متواصلًا مع الحياة عبر أنابيب بلاستيكية وقناع يمنح رئتيه الحياة، تنازعت الرغبات داخله، ما بين أسفه عليه وأسفه منه، وتبقى صورة «**صابرين**» التي احتلت المسافة بينهما، تقدم منه عازمًا الانتقام،

لن يحتمل قدرًا يسيرًا من الحظ يعود ب «**أمير أبو ستيت**» إلى سجلات الحياة، ويمنحه فرصة أخرى ليطغى، ود لو اقتلع المسبار من ذراعه، وانتزع الهواء من رئتيه، وزرع بين شفتيه حسرة وألم «**صابرين**» ودموعها، وابنتها الصغيرة وكسرة زوجها وقهره وحبه الذي كان.

نعم لم يعترف لأي شخص أن «**صابرين**» هي حبه الأول والأخير، إنها حلم الطفولة والصبا والشباب، السر الذي أخفاه عن نفسه ...كان يود أن ينتقم من صديق العمر الذي خانه مع حب العمر.

ولكنه توقف، تسمر في مكانه.

إزهاق الروح صعب، لم يتحرك أنملة، تجمد في نقطة ضياع ومعاناة واحتراق، ضم قبضتيه مع لهاث ثم أرخاهما مع تنهيد، تحرك كذوب لحم مرتعد، كأن زلزلة اختصته، وبرق صعقه في أن، تلاشى كأنه مصنوع من ضعف أو خذلان...

إزيك يا «علي»؟

أرعشه الصوت المباغت، صوت الحاج «**محمد أبو ستيت**»، الذي احتضنه وربت على كتفه في حنو، تمتم «**علي**» بكلمات غير مفهومة وكأنه فقد أبجديته، فسرها الحاج **أبو ستيت** أن الكلمات تلعثمت من فرط التأثر، تنهد في عمق، وجلس بعدها «**علي**» على السرير المقابل، يقيم جداره الذي ما أراد أن ينقض، تنفس ببطء كمن يكبت فورة انفعال.

أخرج **الحاج أبو ستيت** قنينة زجاجية جاء بها «**إبراهيم عرفان**» من المياه المباركة التي تتدفق تحت مسجد «**السلطان الحنفي**»، أخذ الحاج «**أبو ستيت**» يرش على ولده، ويمسح منها على وجهه ورأسه الملثم، تحت عيني «**علي**» الجالس كتمثال امتلكته الصدمة، لم يسمع «**علي**» استهجان الطبيبة، ولا رأى دموع الحاجة «**تحية**»، انسحب دونما كلمة.

عاد منطفئ الوجه، متوجًا بالخيبة.

دخل إلى غرفته دون أن يلقي التحية، لا يرى أحدًا، كان على وشك أن يتحول إلى قاتل.

مجرد من أبجدية الرحمة.

حتى لو على ألد الخصام.

كان «**سيد**» شبه مستيقظ يفتح عينيه بصعوبة، جلسة «**علي**» المكومة فوق الفراش ووجهه الشاحب يشي بأمر جلل، نعم لقد ذهب إلى **أمير أبو ستيت** عازمًا على قتله جزاء بما يستحق، ولكنه لم يستطع، جبن، نزعت اللحظة ما به من إقدام، زهق الروح ولو كانت روح شيطان صعب.

يدرك «**سيد عزوز**» آدمية ابن أخته وثقافته التي تردعه عن أي حمق، التهور لم يكن قط من صفاته، ولكن قهر الرجال والصدمة الموجهة من الأقربين تؤلمه، نقاء سريرته يجعله مثيرًا للشفقة.

لم يخبره «**سيد**» أن الأمر ازداد سوءًا، فلقد نال الدجال من سمعة «**صابرين**» وبذر الشك في نفس زوجها، لقد قال إنها موجودة في مكان بعيد وكان معها رجل واقترب من وجه «**فكرى**» مسح ملامحه بنظرة عميقة كجهاز أشعة، ترصد وتفحص وتوازن، وبعد رعدة خفيفة تلتها همهمة غامضة وصوت الساحر يهمس في أذن «**فكرى**» (**ولكنه ليس أنت**).

نالت الحكايات من سمعة «**صابرين**»، ملأت أذني زوجها المسالم أن زوجته ربما هربت مع أحدهم، وهو لا يملك من الأمر إلا تصديقًا، فغازلته الفكرة، وصار يهاجم «**سمية**» وزوجها، وانتزع البنت الصغيرة من **سمية** وهو يدرك مدى تعلقها بها وذهب بها إلى بيت أخته.

البنت الصغيرة مسكينة، يتيمة الأم، وصارت يتيمة الجدة، ولكن لا بد من مخرج، ولكن كيف؟

«**صابرين**» ماتت ودفنت في مكان ما، وأي وشاية بمكان موتها سيتحول إلى فضيحة وربما يؤكدها، إذًا لا بد أن تموت وتُدفن من جديد، كادت الفكرة تختمر في رأس «**سيد**»، احتوت رأسه قرابة الساعتين في المسافة بين **مدينة السلام** ومساكن **زينهم**، مر من البوابة متجاهلًا «**رمضان**» الحارس، وبعد حديث موجز مع «**شحته**» الذي أتم دوامه اتجه إلى ثلاجة الموتى، فتش فيها حتى وجد ما أراد.

***

دارت بعينيها في أركان المركز الطبي الذي يفتقده، تنكر الجدران فكرة غيابه، تستدعي وجوده الافتراضي كي تدب فيها الروح، مثلها تمامًا، فزهرها لا ينبت إلا بين كفيه، ربيعها لا يقبل إلا بعد التماس هلاله، لا تتخيل جفاف عمرها بعيدًا عن سمائه حتى لو جاء مطرها شحيحًا مقترًا، ترى نفسها صبارة راضية في صحراء الانتظار لا حانقة ولا غضبة.

ترى ماذا تفعل لو عزم الرحيل؟ تعتقد في مضيه إلى عيادته صارت قاب قوسين أو أدنى؟

هل سيأخذها معه كما قال؟

وماذا يقول الناس بعدها وأمارات الشك لم تبرحهم وهي هنا محط الأنظار؟

يدعى الناس وقتها أنها تحبه ولن تجد عن حبه ملتحد، والله إن قالوا فما كذبوا.

أو يقولون: هو يحبها وما استطاع منها فراقًا، ليتهم صدقوا.

حتى لو ذهبت إلى هناك فأي المسميات هي:

حبيبة، مساعدة، ممرضة، سكرتيره وربما خادمة؟

لو كان وحده ما ضجرت ولو كانت كل ما سبق أو بعضه، وان رغب زادت، ولكن زميلته الأخرى؟

لا ستبقى هنا، وتغزل من ذكراه حلم، تستدعيه كيفما شاءت في اليقظة، في المنام، تزرعه منصات مراقبة عند حدودها لا تسمح بالتسلل أو الاختراق،

تضبط موجتها على تردده ولا تستقبل إلا لهاث سفينته في مياهها الإقليمية، ترسم من شفتيها حروف اسمه بخطوط وألوان وقوس مطر.

«يحيى».

المكان دونه هنا لا يطاق، لا تدعي أنها في غير حاجة للعمل، ستذهب للعمل أينما كان ولكن المهم هو، هل سيأتي هنا كزائر أم ينسى المكان ومن فيه؟

تحبه.

نعم تحبه.

قنعت بأن تخفي ما حوى قلبها، كبحت نظرتها إليه ولهفتها عليه، وصوتها الذي يرعش رغبة في الاعتراف له، إنه ما وقر في قلبها: ما من حبيب سواه.

كلما مضت الأيام لا تزداد الا رغبة فيه، ترضى بقربه عن كنوز الدنيا، بحذر تحيا عند حرم قلبه، قلبه المشيد خلف سور حديدي صمول، سيفتح يومًا ما ويراها أمامه، منتظرة مائة عام، لولا ارتفاع السور كسور الصين لتسلقه وتجاوزت أكاليل الشوك التي تزين قمته، أو نقبته كنملة شجاعة تبحث عن مأمن يحميها من دهس جيش عظيم، يطاردها كغنيمة وهي لا ترضى إلا أن تكون له هو فقط.

د. «يحيى» قلبه لا يخلو من مساحات رحبه من مودة تمنح زهور اللوز للزائرين عن بعد، مرحب بك ما دمت لم تهتك السر أو تكشف الأمر أو تعبر

السور، لم تنس مرة عندما سأله «**طه العطار**» عن زواج أو خطبة أو علاقة، قالها بعفوية ولكن تجهم وجه د. «**يحيى**» **دفعه** للاعتذار وانسحب الرجل وقد تخضب وجهه من فرط الخجل، لم يعيدها أحد ولم يجرؤ، هو نفسه لم يعقب او يلوم وكأن الحوار لم يكن من الأساس.

تشعر بالملل ولم يؤذن بالظهر بعد، غيابه لم يتم اليومين، وهذا هو حالها، ألا يكفيه أن يضيع جزءًا من يومه في المستشفى، الحياة هنا لا تبدأ بدونه، الروح التي تسكن المركز هو صانعها، المرضى من شتى بقاع مدينة السلام تأتي له خصيصى، تثق به وتعتمد عليه، عيادته الجديدة ستنجح أيضًا وينشغل هناك و...و ينساها، وتقع هي فريسة لوغد مثل «**أشرف الخواجة**»، الذي لن يردعه أحد، ترى هل سيأتي اليوم أم يستمر في غيابه، لا تطيق الانتظار الى ما بعد العصر، يأبى قلبها الا ان يتم حضوره، جدران المركز أصبحت كئيبة وألوانها وحتى شروخها، وكأنها تكتشفها أول مرة، خرجت من البوابة مرت من الرواق الضيق الى دكان عم «**طه**» كان يجلس بداخله و«**أحمد منتصر**» يرتب بضاعة أتت حديثا، وكانت «**تحرير**» هناك تتكلم في التليفون، حيتها بإشارة صامتة وردت عليها «**تحرير**» بابتسامة وقد أكملت حديثها الهامس في الهاتف، سألت عم «**طه**» الموجود داخل الدكان عن حال السيدة «**زينات**» و«**يحيى**» الصغير، طمأنها بكلمات شاكرة حامدة، ورد بالاطمئنان على والدتها أجابته وقد انتهت «**تحرير**» من المكالمة، احتضنتها في مودة واتجهت **تحرير** لتدفع ثمن المكالمة، نقدت «**أحمد منتصر**» بعد إصرار على

الدفع، التقطت من يده خطاب قالت إنه لـ«علي» أخيها، لاحظت «**زمزم**» أن ثمة نظرة عابرة مرت أمامها بين «**تحرير**» و«**أحمد منتصر**»، كذبت حدسها بأن هناك بدأت حكاية، أو قد تبدأ، على الرغم من محبس ذهبي في أصبع «**تحرير**» مكتوب على سطحه: «**علاء**» .

وطفل وذكرى امرأة منقوشة فوق قلب «**أحمد منتصر**»، هكذا سمعته مرة يذكر امرأته ولكن هل يعرف الأمان طريق الرجل، الخيانة ذكورية، لقد خان أبوها أمها عدة مرات وادعت أن هذا أصابها بمس من الجن، وأن الجنية التي تعتليها ما هي الا متمردة على الخنوع الذي زرعه أبوها، أرادت أن تنتقم منه.

استغرقت النظرة لحظات ولكن ارتباك «**تحرير**» كان عين اليقين، انسحبت «**تحرير**» وتركت «**زمزم**» لشطحاتها، تسمرت في مكانها، حتى سألها «**أحمد منتصر**» لو عادت إلى البيت أن تستدعي «**سليمان**» الصغير لقد ناداه أكثر من مرة ولم يرد وهو يعرف أن «**عمر**» أخيها ما زال في المدرسة وهو لا يريد أن يسبب «**سليمان**» إزعاجًا للسيدة أم «**زمزم**»، دهشت «**زمزم**» هل ترك «**أحمد منتصر**» ولده مع أمها وحدهما؟

أجابها شاكرًا أنها طلبت ذلك حتى لا يتركه وحده، كما حدث يوم تابع الزلزال، خاصة وهو ذاهب إلى «**المرج**» لمحاسبة تاجر الجملة، خفق قلبها في سرعة تذكرت ما حدث مع «**ناجي**».

لا تنسى أبدًا الحدث الذي غير حياتهم، والغربة التي عانوا منها تذكرت عندما كانت تصيب أمها نوبات الصرع ظن أهل القرية أنها مس من الجن كانت تتشبث بأي شيء بقوة الف رجل، كانت تتحول عيناها وصوتها إلى صورة مرعبة، اختفت منها هي و«**عمر**» أكثر من مرة تفاديًا لنوبات الهياج والهلع، إلا هذه المرة فلقد اقترب منها «**ناجي**» الصغير ببراءة تشبثت به وهو يضحك ظنها تلاعبه، وتعانقه، لم تصدق «**زمزم**» ولا «**عمر**» انه ذاهب لحتفه بعدما طوقت الأم عنقه بأصابعها وهي تصرخ، وهو ساقط بين يديها، لا يقاوم ولا يبكي، مستسلمًا، حتى وصل الأب ورأى ولده الصغير وأمًّا مسلوبة الإرادة، انتزعه منها، ولكن بعد فوات الأوان تتذكر «**زمزم**» بروده جسمه عندما لمسته، عنقه الأزرق منقوش بشكل أصابعها، أوسعها الأب ركلًا وضربًا حتى سقطت مغشيًّا عليها، وبعدما فاقت أدركت ما فعلت، حاولت الانتحار أفرغت على نفسها محتوى مصباح الكيروسين، كسرت ما فوقه من ظلة فوق رأسها، بحثت عن عود ثقاب يخلصها من عذاب مقيم، ولكن أبت الأقدار أن تمنحها فرصة الخلاص وأنقذوها.

وبعدما انكشف الأمر، ابتعد الجميع عنها نساء وأطفالًا، كأنها جنية مخيفة، نداهة أكثر رعبًا من عفاريت «**سجين**»، تسكن الأرض وليس الماء، صارت كبيرة فزاعي أطفال القرية، قاتلة متمردة قاسية تقتل الابن الذي يخطأ، وما أخطأ «**ناجي**»، ولكن صارت غولة راعبة عند الصغار وأشأم من «**بسوس**» عند الكبار، سرى بهم أبوهم ليلًا تاركًا البيت والفرش والأهل والذكريات

و«**ناجي**» المدفون تحت التراب، ومنحهم الفرار من الماضي حق الحياة، ولكن أي حياة هذه ودبيب «**ناجي**» يوقظهم جميعا في عز الليل، أي حياة تلك التي تحجب عنها ذراعي أمها وهي على قيد الحياة، أي حياة، والذعر كله لو قام أحدهما من مرقده ووجدها إلى جواره، حتى بكاؤها صار مخيفًا، بكاء «**فيل**» مقهور، تدرك مدى حزنه، وتخشى الهلاك من فرط الدنو.

انطلقت «**زمزم**» وهي تبتهل إلى الله ألا يصاب الولد بمكروه ستكون نهاية أمها، ونهايتهم جميعا، لقد دفن «**ناجي**» دون مسائلة والآن، اجتازت الدرج في خطوات ناجزة، وفتحت الباب كان «**سليمان**» ممددا فوق الأريكة بلا حراك، وأمها قد تقوس ظهرها منحنية عند قدميه، أحست بـ «**زمزم**» فرفعت نحوها عينين غريقين في بحر من الدموع، تمنت «**زمزم**» لولا الخوف أن تلقي نفسها بين ذراعيها، حرمانها من حضن أمها، اغتراب قاتل نال منها، ذاب حنايا قلبها، ووطن خلاياها.

***

لم ير «**زمزم**» عندما انصرفت.

لم يسمع عم «**طه**» وهو يشكو زوجته المصرة على عمل «**العقيقة**» هناك في «**تليجة**». لم يسمعه وهو يشكو غربته وسط أهله الطامعون فيما يملك، وهجرته بعيدًا عنهم في حياة رتيبة داجنة، لم يسمع دعوته على أهله ودعائه لهم

في آن، قاسية هي الأرحام التي تلفظ محبيها، وتبت يدا ألف «**ابي لهب**» مادام للرحم قاطع، وللقرابة عاق، وللمحبة جاحد، وللحقيقة ضال مضل.

لم يشعر حتى أنه انصرف بلا وداع فقط لهاث شيخ مترجح بين حنق ورجاء، سحقه حنينه إلى من لفظوه، واستوطؤوا قدره، ومالوا على زوجته، التي لها ألف حق في حلم العودة فقد طرحت أرضها ولدًا.

لم يشعر «**أحمد منتصر**» بيده التي ترص العصائر فوق رفوف ثلاجة العرض.

كان يسترق السمع إلى دقة قلب متمردة، غافلته وحاصرت روحه، أتته مع طلتها.

«**تحرير**».

من بعد الزلزال الأخير، تعارفا ولم يعترفا، لم تجده فضوليًا كما ظنت، ولم يرها مغترة كما حدس.

اطمأنت على «**سليمان**» الصغير، بينما داهم عينيه لمعان محبسها الذهبي، سعيد هو من تنتظره هذه الفتاة، عرف أنها تدرس في معهد فني تجاري «**منيل الروضة**» وهو أخبرها أنه خريج معهد الكفاءة الإنتاجية بـ«**الزقازيق**»، دهشت لأنه يعادل تقريبًا درجه مهندس زراعي، فما الذي دفعه لهذا العمل؟

لم تقل ما الذي اضطره لهذا العمل، لم يجب، قادها الفضول فانقادت، اعتذرت، ظنت انه ابن عم «**طه**»، وهو يساعده، أخبرها أنه كان صديقًا لوالده رحمه الله، تبودلت الكلمات بينهما مرات، واستضافت «**سليمان**» مرات، وزارته في الحلم مرات.

يمتد بصره في المسافة بين الدكان ومدخل البناية حيثما اختفت، يكرر ذهنه المشهد أيما تكرار، وكأنه آلة أصابها العطب، حتى اقتحم «**سليمان**» الصغير بطلته البريئة المطابقة لملامح أمه مشهده، المشهد الذي أقسم يومًا ما أن يكون ممنوع من العرض على خاطره، خاطره الذي سكنته «**غالية**» وامتلكته بوثيقة أبدية لن يمحو الموت حروفها، خرج «**سليمان**» من بوابة البناية وهو يفرك عينه بإحدى يديه بينما تحمل الأخرى قطعة مربعة من « **البسيسة**» امتدت آثارها على جانبي ثغره، وارتمى بين ذراعيه، وكأنما صعقه، نفض غزله، رأى فيه «**غالية**» تذكره بحبها الذي كان، همس «**سليمان**» في أذنه بصوتها، جاءت نبرته هائلة النذير، علاه الوجوم بعدما تكشفت مشاعره الوليدة أمام نفسه.

رنين الهاتف يحرره من المتاهة، فك قيده الوهمي وتحرك من بين يدي ابنه، مبعوث «**غالية**»، والوارث الشرعي لكل حبها، ورد بصوت محشرج، جاءه الرد آليًّا غامضًا، بصعوبةٍ تبين كلمتين هما مستشفى «**الهلال**»، وبدت موجة الاتصال هائلة التشويش، خارقة الاضطراب، سهم مسموم مرق في صدر

أحدهم، وبالفعل، لم تكد سوى دقائق وانطلقت صرخة مدوية من البناية رقم ٩٢.

***

صديقي علي

كم شعرت بالأسى والأسف بعدما استقبلت رسالتك، قلبي معك في ما حدث، وأتمنى من الله أن تبقى أنت والأسرة الكريمة بخير، تحيرت مثلك في موضوع صابرين، أعرف أن خطابي هذا ربما تستقبله بعد حل المشكلة، وإن كنت تريد رأيي هو أن تشرك أحدهم في الحل ربما تجد أفكارًا أخرى، أعتذر منك. لتأخري في الرد فأبي كما تعرف حالته الصحية غير مستقرة، كان يريد أن يرى أبناء عمومته في الناظور ننتظر موافقة السلطات على ذلك، حنين غريب اجتاحه لزيارة تراب المغرب، نحن نعاني هنا الإقصاء والتهميش إلى أبعد الحدود، لن أشغلك بما نعانيه، ربما تعاني مثله بعد رحيلك من المكان الذي شهد مولدك وصباك وشبابك، أما هنا فالأمر أكثر قسوة، وأنت غريب في مدينتك وتعامل فيها كلاجئ، البقاء لله في وفاة صابرين، وكالعادة إنها الكلمات الوحيدة التي اكتبها بالعربية فسامحني لو جاءت أخطاء وإن كثرت

صديقتك ليلى

مليلية المحتلة

الفصل السادس

جلس خلف مكتبه مهمومًا، يراجع كلمات «**حمزة**» الصغير الذي صاحبه في الطريق، مدرسة «**حمزة**» هنا في شارع «**بورسعيد**»، سأله بعد تردد:

لماذا لم يكمل بعد الدراسة الثانوية؟

ولماذا لم يمتهن مهنة أبيه الدباغة مثل عمه «**فوزي**» صاحب المدبغة؟

وصمه الصغير بالفشل دون أن يعي لم ينجح في العلم ولا في العمل، إنه البين بين، كلمات ابنه اتهامات خضراء، طلقات طائشة أصابته في مقتل، اخترقت سترته الرمادية واستقرت في القلب تمامًا، تابع الصغير وقتها وكأنه يلتمس سحقه، لماذا عاد من السعودية بهذه السرعة؟ ولم يقض سوى عام واحد؟

لم يدخر من الغربة سوى مروحة وتلفزيون ناشيونال ١٤ بوصة أبيض وأسود، أما الحاج «**أبو ستيت**» صاحب السيارة الفارهة استمر، وما زال يرغب في السفر.

هل كما قالت الأم إنه لم يتحمل الغربة؟

وآثر البقاء بينهم؟

إنه حنون بما يكفي.

بهت، كمذنب ثبتت عليه التهمة، يد باردة تعتصر قلبه، مخلب الكلمات نال منه ومضى، ينهش العظم بعد الدم واللحم.

لا يعرف «**زينهم السمان**» هل قصد ابنه السخرية أو المدح، سحقًا لـ«**بنداري**» فهو فكرة لا تموت.

عاجز هو.

عاجز عن العودة إلى «**أرض يعقوب**».

عاجز عن مواءمة الشتات.

عاجز عن الفعل.

أصبح خانعًا صاغرًا بما يكفي، حتى كلمه حنون الأخيرة صارت كمدفع يهوي عليه بأطنان الورد.

لم يشعر بكوب الشاي البارد الممتلئ الذي رفعه «**بنداري**» من امامه، وهو يقسم أن يضيفه على مديونية «**زينهم**» المطولة الممتدة من قبل أيام الزلزال إلى ما لا نهاية، لم يلتفت «**زينهم**» لتمتمته التي يعرفها، ولا بتعليقات زميلته «**عنايات**» التي تبكته كل دقيقتين، توبخه لمصلحته كما تقول، لم يعتبر لهذا اليوم، ولم يلزم نفسه بجمعية تستر حاجته، نال ضحكة ساخرة من «**رياض**» لما أخبره أن الحكومة سوف توفر مساكن بديلة لمتضرري الزلزال في منطقة

المقطم و**حلوان** و**مدينة السلام** بحلول أول العام القادم، ولم يتبق عليه سوى أيام قليلات، اتهمه بالسذاجة لأنه يصدق صوت الحكومة وصحافتها.

أجال بصره في المكان، وكأنه يستغيث بوجوه الآخرين، يبحث عن أي شيء، أو عبارة طمأنينة تخفف الروع وتزيل الرهبة.

ممزق هو.

حتى أحلامه في الانتقال إلى مكان آخر، هي أحلام بائسة لا يعنيه أن تتحقق، أصبح الاغتراب عن «**أرض يعقوب**» واقع أليم، أبدى لا رجعة فيه، لا يشعر في ملجئه الجديد بطعم أي شيء، يشعر أن الأكل صار طعمه غريبًا غير مستساغ، لا يدري هل نست زوجته نفسها في «**أرض يعقوب**»، أم تبدل تذوقه للأشياء، قرر أن يأخذ الخضار من سوق «**الناصرية**» كما اعتاد فعاد طعم الأكل كما كان، أصبح لا يتناول إلا اللحم المشترى من عند «**زينهم الرباط**» في السيدة، ولا يقص شعره إلا في حارة جلال بـ«**أرض يعقوب**».

المكان هناك منفى شاق ، غلة في صدره تتمدد مع كل صباح، تزيده الأيام نفورًا، عودته إلى المنزل صارت همًّا، هرم في شهرين، ضعف شيبه، نال منه الإرهاق ما أثقل ظهره، الراحة يوم الجمعة والنوم يعوضه عن دهس المواصلات، ومعاناة الانتقال اليومي من هنا لهناك، ولكن حتى صلاة الجمعة التي كان يؤديها في مسجد **السيدة زينب** أو **سيدي علي** أو سيدي «**حسن**

الأنور» صارت بعيدة المنال، هي بالتأكيد تختلف عن الصلاة هناك في مسجد لا يعرف وجوه رواده، ولا تجمعه معهم إلا صفوف الركعتين، وسلام ما بعد الصلاة روتيني، أيدٍ تتصافح بلا دفء الذكرى والعشرة والمعرفة، الحياة هناك تحمل بوق التهديد، عودة «**علاء فوزي**» بين عشية وضحاها يعيدهم للمربع رقم صفر، حتى زواج ابنته أصبح صداعًا في رأسه ممدود من قبل الزلزال، لا يشعر بطعم الحياة أصبحت فقط أداء واجب، صارت فقاعة خاوية، محبوس بداخلها بلا شغف، معزولة إلا من طرقات الدائنين.

لقد باعت «**نجاة**» محبسها الذهبي، سألها فأنكرت، وشى بها «**حمزة**»، لا يعرف عن قصد أو عن غير قصد، ربما قالها «**حمزة**» إمعانًا في اذلاله، لا يدري هل فقد المقدرة على فهم أولاده؟

أم امتطى جواد المخاوف وصار متشككًا في كل شيء؟

يراهم بملامح «**بنداري**»؟

هل لاحظت «**نجاة**» إنه لم يكن حاسمًا في رفضه لفعلتها؟

منعته الحاجة عن الحسم، كما منعه الكبرياء من القبول، نفس الكبرياء الذي منعه من سؤال «**محمد أبو ستيت**» الذي ما دام عرضًا وأصر، خشي أن تضيع الذكريات بين الرفاق، عندما تعلو يد على الأخرى، وتنكسر العيون عند اللقاء.

عاد يدون مجموعة من البطاقات الجديدة في الدفتر حتى اقترب منه «**بنداري**» هامسًا:

في مصلحة جاي ولا زي كل مرة.

«**بنداري**» دنيء التمكن والاقتدار، يصطاد في الماء العكر، لم ييأس منه، لم يهجره، و«**زينهم**» نفسه لم يزجره، لو ردعه لارتدع، لم يفتح له الباب، ولم يغلقه، اختار الطرق السهلة فقرر ألا يختار، حاصره «**بنداري**» بجزعه المائل، ونظراته الثاقبة، تسطع من عيني ساحر أو عراف، يقرأ ورقه، ويرصد طالعه، يضع وساوسه فوق سهم التفاعل بجانب الزلزال والديون وزواج «**تحرير**» والرحيل عن «**أرض يعقوب**» فيتحول من الخمول إلى أعلى درجات الانصهار، يريد أن يمنحه ترقية استثنائية، يصعده من شيطان أخرس ضال، إلى شيطان حقيقي مضل، لا مقاومة تذكر، فقط الإذعان هو المرفأ الأخير، وقد أفلح الساحر حيث أتى أو كاد، و ...وارتفع رنين الهاتف ردت «**عنايات**»، استعاد جزءًا من وعيه.

تليفون يا أستاذ «زينهم».

استعاد وعيه بالكامل، وتحرك من خلف مكتبه وخلف «**بنداري**» متجهًا إلى الهاتف وهي ما زالت تسطر في ورقتها احداثيات الجمعية وجاءه صوت «**نجاة**» باكيًا:

«صابرين» ماتت.

صدمه الخبر تمتم:

إنا لله وإنا إليه راجعون.

انعقد حاجبا زميلته، بينما تجمد هو في مكانه كشجرة أتى الخريف عليها، هدأ نشيج «**نجاة**»، وتابعت ما حدث، بصوت باك، أغلق الهاتف وزر كتفيه، خرج من مكتب التموين عبر تاجر الدم الذي ينادي ببوقه ومعطفه الأبيض وتحرك متجهًا نحو «**مشرحة زينهم**» في قناعة أسير رضى الهزيمة وفقد حق تقرير المصير.

***

لا شيء هنا سوى الألم.

وجع أزلي لا ينقضي، تتغير الوجوه، وتتبدل القسمات والحزن واحد.

والبكاء هو العامل المشترك الأعظم في محيط المشرحة.

مشرحة «**زينهم**».

اجتمعوا أخيرًا في الباحة المحيطة، «**سمية**» على حافة الانهيار وزوجها وجه هرم باكٍ يسبح ويحمد ويستغفر ويطلب الرحمة، و«**فكري**» بينهم يغالب مشاعر عدة تشابكت في دانتيلا معقدة بين الحزن لفراق زوجته والرضا، إنها ماتت ولم تهرب ولم تخن كما ظن، لقد أصبحت ابنته يتيمة بلا أم، تبكي ليل نهار مع سؤلها عنها، ولكن حسبه أن يتحول إلى أرمل خير من خوض الناس في سيرة زوج مخدوع.

(رحمك الله يا صابرين، كم كنت أحبك! لم يكن لي هم سوى رضاك، كنت أعمل ليل نهار لأجلك وأجل ابنتنا، أعترف أني لم أكن الزوج المثالي، لم أكن أفهم ما تعنيه كل الوقت، ولكني فهمت الآن أني أحبك).

خرج «**علي السمان**» من البوابة متجهًا إليهم.

كل ما يحدث يثير حنقه، عليه أن يشارك في هذه التمثيلية التي يخرجها «**سيد**» ببراعة حتى الآن.

«**سيد**» منعهم من حضور الغسل بحجة بشاعة المنظر، بعد مكوثها كل هذه الفترة في ثلاجة الموتى، أرادت أمها أن تلقي نظرة على ابنتها مودعة حتى بعد تكفينها، انتحى بها كمن فقد صبره وأخبرها أن الأمر أصعب مما تتصور، فلقد تشوهت معالمها تقريبًا بعد انهيار السور عليها ولولا صورة ابنتها ما تعرف عليها أحد وظلت في ثلاجة المجاهيل حتى تدفن في مدافن الصدقة.

صرخت الأم وضربت على صدرها، وارتمت بين ذراعي «**نجاة**» وأصبح انهيارها مسألة وقت، مفتوحة العينين، غائمة، وصوتها متقطع النشيج بعدما فقدت القدرة على الاستجداء.

تناثروا فوق قرميد الشارع، عاملهم «**رمضان**» حارس البوابة برفق غير معتاد، تعلو وجهه الدهشة، ما يحدث يدعو للريبة، كيف لم يكتشف «**سيد**» وجود ابنة أخته بين يديه طيلة هذه الفترة؟

عندما سأل «**شحته**» الذي قدم واجب العزاء لأهل «**سيد**» أخبره أنهما اكتشفا هو و«**سيد**» أن الفتاة التي أتت من منطقة «**القللي**» وقت الزلزال والتي وقع فوق رأسها سور حجري، كانت نفسها «**صابرين**» ابنة أخته المفقودة من يوم الزلزال، بعدما وجدا صورة ابنتها في البرطامان الزجاجي، رحم الله الجميع وصبر أهلها.

البرطامان الزجاجي الذي يحوي الأشياء الشخصية للمتوفى المجهول توضع معه في الثلاجة يراجع عليها باستمرار، شهران مرا، ولم يلحظ إلا الآن؟

درس الأمر برمته والشيطان يعربد بين ثنايا جمجمته.

أخذته المتاهة إلى سلسلة معقدة من الاحتمالات، أبلغه أن ما يحدث أمامه ليس حقيقيًّا بالضرورة.

راقب «**رمضان**» الركب الذي ابتعد كبقايا جيش منهزم شغله الأمر حتى انتهى دوامه.

وعندما حل المساء هنا خلف مقام السيدة «**جوهرة**» في مقابر السيدة **نفيسة**، لم تتغير جلسته وهو يرتشف كوب القهوة المحلى بالأفيون، منعزل عما يحدث حوله من صخب، يؤكد حضوره اليومي في مكان ثنائي التوصيف الوظيفي، فهو صباحًا للأموات وذويهم والمريدين والمبتغين

زيـارة آل البيت، أما المساء فهو مرتع للفاسدين ومخزن للأجهزة الكهربائية المسروقة والدراجات البخارية والتي تباع في سوق الجمعة القريبة من هنا، بالإضافة لتجارة المخدرات المنتشرة في ربوع المقابر، فيهنأ أصحابها بصمت القبور وزهد الموتى، فلا طمع ولا وشاية ولا سعاية فقط النوم في هدوء حتى النفير الثاني، لا يبدد راحتهم سوى ذلك الرجل الذي ما اقتحم حضوره المشهد حتى هدأ صوت الأحياء والأموات وراح الصخب في لحظة، كانت كفيلة أن يترك «**رمضان**» قهوته ورمادها المطعم بالأفيون، ويتقدم نحوه خطوتين، خاضعًا، مذعنًا.

حكى له ما حدث، رمى عدوى الريبة عند بابه، استقبلها الرجل بابتسامة ظاهرة، صارت تتسع وتتسع حتى وصلت بين أذنيه، ولمعت السنة الذهبية التي تزين ثغر المعلم «**عبد المنعم الكحكي**».

تاجر الجثث.

***

ومع المعاناة كان يسبغ على وجهه ابتسامة، ويعبد طريق البؤس بتمتمات الحمد، لم ينل الألم من قسماته حتى بعدما انتهى الدكتور **يحيى** من فك الغرز التي زينت جبهته، وأنهت زمزم تضميد جراح يده الأكثر سطحية، وبقت حزمة الجبس التي تلف ساقه العائق الأخير والأهم، شهر آخر يثقل الظهر

ويزيد الدين ولن يبقى مدخر إن وجد، لهث لسان «**عبده**» بشكر الطبيب والممرضة، فلم يتأخرا عنه مرة بعدما خرج من مستشفى «**الهلال**».

أشوفك بخير يا أبو إسلام. ده كان أخر يوم ليا في المستوصف. وأبقى زرني في العيادة.

في «طومان باي». بالتوفيق يا دكتور.

وقفت «**ماريا**» تلملم بقايا الشاش والقطن ودموع «**زمزم**» عالية النزف، وشذرات متطايرة من عيني «**إسلام**» كلما وقعت عيناه على جروح ابيه، وما شهد رقاد قط، ما قنع بحكاية الحادثة ولا ارتضى بتلفيق أمه وأبيه.

لم تصارحه «**ماريا**» أنها سمعت أمها تذكر «**أشرف الخواجة**»، كي لا تزيد قلبه وجومًا وترفع الحرج عن رجولته المبكرة، ولكنه يشعر بها، يقرأ حدسها، وهي لا تنازعه الأمر ولا تكذب عليه.

رفع «**عبده**» قدمه فوق وسادتين وزفر في قوة، يطرد تتمة عجزه، وغرس رأسه بين ذراعيه واخترق ببصره سقف غرفته وكأنما اكتشف وحدته لأول مرة، وحياته هناك في «**حلوان**»...

بين الأهل ألف مزية، إذ تتلاصق البيوت جسدًا وروحًا، تتشارك فرحًا وحزنًا، وتتواصل جمعًا وأفرادًا، محكمة المنافذ، موغلة الدفء، شرسة المنال للغريب، لا يجور عليك إلا هالك.

أما عيبها الفاضح: أن الحياة غابة مفتوحة، لا سر فيها ولا انعزال، أما الانقطاع التام أو الاندماج التام، فإن أردت أن تحيا بينهم فلا تعد عيناك عنهم تريد حياة تزهو بالخصوصية، الأمور كلها في العلن مطروحة للنقاش حتى أدق التفاصيل، والكل ناصح مستشار فيما قل أو كثر، وعليك أن تخضع له بالطاعة وإلا تمردت وتعاليت.

وبعد ما حدث صارت حياته موطأ كل لسان وسيرة كل جلسة، ما بين مؤيد ومعارض، ما بين ناصح ونذير.

ما اتخذ خطوة إلا درسها، أقبل مقتنعًا، ضره أن يتخذ الناس من سيرته مسلكًا، ليتهم خاضوا في حديث غيره، قبل أن يأخذ امرأته ورضيعيه ويخرج من «**حلوان**» مدبرًا، ويطوف بين ضواحي القاهرة بين حلوان والأميرية وأخيرًا هنا في مدينة السلام، و«**رزة**» صابرة راضية.

«**رزة**».

إنها دنياه، كفته عن البقية نعم، لم يحتج غيرها نعم ولكن الكثرة غلبت الشجاعة، تمامًا عندما اجتمع عليه الرجال، قاومهم حتى سقط، رأى من بين أيديهم عصيهم تهوي على رأسه وقدمه وعلى الحافلة، يعرف محرضهم ومبتغاه، فقط أن يكسر، نجح أن يكسر سيارته وساقه، ولكن روحه ما زالت باقية لا تخضع إلا لخالقها إما المحرض فلن يتركه إذًا أبدًا.

تلمس خطى زوجته، «**رزة**» معطرة الطلة بلا عطر، نزعت حجابها وارتمت فوق صدره، عيناها جمرتان من لهب، تشي بدموع لم تجف، وبحروف كاذبة بادرته إنها بخير، ربتت فوق ساقه المكسورة، صفحة الجبس البيضاء أصبحت لوحة سريالية، ملطخة بالألوان، وعبث «**ماريا**» الطفولي، اما «**إسلام**» فقد خلع رداء الطفولة وارتدي ثوب ابيه، أصبح رجلها الصغير، ابتسمت لزوجها بشفاه مرهقة، طمأنته أنها ستجد وسيلة لإصلاح الحافلة، فلم تكن الحافلة بأسعد حالًا من صاحبها، هي الأخرى تحتاج إلى ترميم وسمكرة بعد الذي حدث، لم تخبره أنها عادت بندب في قلبها عظيم الغور، بعد مقابلة «**ماجد**» ابن خالها، لم يخضع لدموعها، اختفى منها تحت سيارة وراح صوته مع دقات مطرقته، لم تذهب إلى خالها المريض، مخافة أن ينزغ الشيطان بينه وبين ابنه.

ابتسمت في وجه زوجها الذي أخرسه العجز، ورفعت حاجبيها في إصرار، إنها ستبدأ مشروعًا جديدًا، ستتخذ من عربة الكشري المهملة بداسة، سوف تصنع الحلويات التي تجيدها، واتفقت مع «**أم نادية**» على الإيجار، ستصبح سيدة أعمال قالتها وهي تضحك ضحكة مفتعلة قصيرة ، لم يضحك «**عبده**»، تلعثمت حتى وجدت ضالتها في «**إسلام**» الذي دلف من الباب، محتقن الوجه فسندت عليه، و دعته بشريكها المحتمل، دهش الصغير، فحكت أمه الحكاية أنها ستبيع الحلوى في عربة الكشري المهجورة، لم يفرح «**إسلام**» كما

ظنت، فقط نقل بصره بين أمه وأبيه بعد أن لفهم الصمت، وبين جنبيه قط شرس يموء متوعدًا ومنذرًا.

***

بدأ في جمع أشيائه من المركز الطبي، جلست «**زمزم**» تراقبه في سكون ودموعها تنزف بلا هوادة، تجاهلها كما اعتاد، وحرص أن يجدد عرضه، أن تبقى معه، وأن «**د. هداية**» سوف تحبها بشدة.

طعنات خنجره المسددة عن طريق الخطأ تؤلمها، هو لا يعلم أن العمل ليس ما يربطها به بل هو أكبر من هذا:

إنه الأمان الضائع بعد رحيل الأب.

لم تحب الحياة إلا في رحاب أنفاسه.

لا تتخيل أن تعيش إلا مع بهاء طلته.

لا مطمع لها في الحياة ...سواه.

أخذ حقيبته وما تضم من قلبها، لم تتخيل أن تأتي هذه اللحظة، يرحل ولا يلوي على شيء.

حاولت أن توقفه ولكن بلا صوت.

نادت في الظلمات أنها تحبه، ولكن بلا كلمات.

لم يسلم عليها بيده -كما تمنت -لم تلمس يده إلا في لحظات عفوية، هكذا ظن، ولكنها مقصودة هكذا أرادت، أرادت أن تكتشف ملمس جلده، كما ابتغت أن تلقي نفسها بين ذراعيه، مسحت دموعها في سرعة وهو يتهيأ للرحيل مودعًا الجميع هنا.

مر على دكان عم «**طه**» ليسلم عليه، سأل على «**أحمد منتصر**» فلم يجده، حتى «**سليمان**» الصغير أصبح لا يفارق السيدة «**أم زمزم**» وقبل أن يغادر طلب رقم بيتهم في أسوان كي لا تقلق عليه «**سعده**»، وأتاه صوت مميز.

آلو ....

«**تها**»، يأتي صوتها من كهف مسحور، لم يجب، ولم تسأل، ربما اكتشفت أنفاسه، شعرت بلهيبها، حارة، حارقة، رحالة بين القاهرة وأسوان.

اكتملت فقاعة سحرية حوله، ارتبك صوته، تاهت الكلمات عنه، قرر ان يتماسك، سألها عن حالها والبنات و«**حجاج**» وأمه، لم تجب إلا بحمد الله، سألها عن موعد الولادة، لم تجب، يعرف أنها تعاني، كما يعاني، هل من العدل أن يبقوا جميعًا في نفس الحياة؟

لقد انسحب من «**أسوان**» كلها حتى لا تتعدد المواجهة، ولكن مستحيل، تماسكت، كما قررت، الحاجة «**فهيمة**» هناك في السقيفة بينما «**حجاج**» في مركز الشرطة، سألها عن السبب ولكنها طمأنته أن هناك مشكلة كبيرة في «**الشراونة**»، لا تخصهم ولكنها تخص «**حجاجًا**».

«**حجاجًا**» وحده لم يفهم اللغز ولم يسمع سوى دوي الصمت، الذي احتل الخط المفتوح، على كوة مضيئة ملتهبة، في سرداب مظلم طويل، مسكون بالذكريات، هادئ إلا من صوت صلصلة تعلو رويدًا رويدًا، تصم الآذان، رحالة بين الماضي والحاضر.

***

دخل «**حجاج**» الى صحن الدار مزهوًا فخورًا، لقد انتهى اليوم الصعب.

وانتهت الأزمة على يديه بحكمته ومشورته، نزع الفتيل قبيل الانفجار، وحاز على إعجاب ذوي القربى وحسدهم فقد بات الحلم قريب المنال، يثبت أحقيته يومًا بعد يوم، في أن يصبح الوارث المنتظر لمقعد مجلس الشعب عن دائرة «**إدفو**» في الانتخابات القادمة بعد سنتين.

اليوم يحتفل بانتصاره على الحاج «**أبي الخير**» نائب الدائرة الحالي، وأثبت أن غلبة عائلة «**العديسي**» قريبة المنال ونفوذها وكلمتها قيد الاعتبار، أو بالأحرى كلمته هو.

اليوم انتهت معركة قبل أن تبدأ بفضله وحسن تدبيره، فلقد كاد قسم الشرطة هنا في «**الشراونة**» أن يمحى من الوجود، لولاه.

بدأت الأزمة مع قرار الحكومة بمنع تهريب السمك من البحيرة وشددت على مصادرة أي سيارة محملة بالسمك يتم ضبطها في الكمين الأمني ولما كانت **الشراونة** أول مركز في **أسوان** أو بالأحرى آخر مركز بعدا عن البحيرة فمن يفلت منه ويدخل إلى محافظة **قنا** فقد نجح لأن ثمن السمك هنا في **أسوان** قبل جمارك ميناء السد العالي أقل بمرات عن تجارة السمك في ربوع مصر وفي كل الأحوال، وعندما تعبر كمين «**الشراونة**» فهي في أمان، تجارة لا تقل في الربحية عن تجارة المخدرات والسلاح، وعندما يقع المحظور وتقع سيارة النقل في يد الشرطة وفي الغالب تكون مسروقة أو غير مرخصة ويهرب السائق وبالاتصالات بين عائلات الصعيد والشرطة يتم التنسيق بينهما وتسلم السيارات بعدها، لكن ما حدث أول أمس كان مختلفًا فالضابط الجديد الموجود في الكمين لم يكتف بالتحفظ على السيارة و ضبط الشحنة، بل تمادى في مطاردة السائق الذي فر هاربًا وأطلق رصاصة مباشرة على رأسه فأرداه قتيلًا، مما استفز أهله ب«**الغوصة**»، وحاصروا المركز، ووضعوا مهلة إلى أذان المغرب حتى يسلم الضابط، وإلا سوف يدك المركز أو تتحول إلى مجزرة.

حاول عضو المجلس الحاج **أبو الخير** احتواء الأزمة، ولكنه فشل ولما تدخل **حجاج** في الأمر استمع أهل «**الغوصة**» له وهو بينهم ذو شأن، وانصاعت الشرطة لطلبه في نقل الضابط بعيدًا عن الصعيد كله.

لا يعرف الكل أن تجارة تهريب السمك هي تجارة «**حجاج**» غير الرسمية، ولكنه فضَّل اتخاذ طريق آخر عبر الحدود، فالسمك في السودان أغلى منه في مصر لأن السودانيين لا يحسنون الصيد، تبدأ رحلة التهريب جنوبًا من مياه أبي سمبل ثم اختراق البحيرة في منطقة مائية بين مصر والسودان، ويراقب المنطقة البرية المطلة على طريق التهريب البحري الأمن، لعدم وجود أمن نهري داخل البحيرة، يسأل باستنكار ويضحك:

«**إذا كان السلاح بتهرب من السودان لمصر عبر البحيرة، السمك مش هيتهرب؟**»

تنهد عندما تخيل نفسه تحت القبة، يحاسب ويناقش الكبار، يحادثهم ويبغون رضاه عضوية المجلس.

يتمنى لو يأتي الولد قبلها، بطن **تها** المنتفخة تدريجيًّا تقرب الأمل، تعفيه من إتيان غيرها.

«**تها**».

حب العمر الذي بين يديه، الأمل الذي تحقق، لا يدري لماذا أصبحت وردة ذابلة؟ كلما مرت الأيام ازدادت ذبولًا، لا يهم، بعد ولادتها سوف يذهب بها إلى الإسكندرية لقضاء يومين هناك ولكن أشد ما يؤرقه.....

«**حجاج**».

صوت أمه يناديه، دلفت من بوابة الدار وفي يدها المسبحة، بدأت تسأله عما حدث مع أهل **الغوصة**، زفر «**حجاج**» وقد ضاق صدره بتدخل أمه في شئونه، اهتمامها بالتفاصيل يزعجه، آن الأوان أن تعلن الاعتزال، وتهتم بصحتها، وتترك له الأمر كله، قالها قبل ذلك وهمَّ إن يقولها ثانية، بدأ ينادي **تها** بصوته المرتفع، خرجت من المطبخ وفي يدها مفراك «**الويكه**»، سألها أن تعد الطعام، هزت رأسها بطريقة إليه وانسحبت، بينما قبل **حجاج** يد الحاجة «**فهيمة**» واستعد للانصراف التي استوقفته.

حجاج.

التفت إليها بنفاد صبر، دعته بيدها أن يقترب وقالت له علينا نقب الجهة القبلية من الدار، تحت حظيرة البهائم مباشرة، حدق إليها مندهشا فأخبرته أنها بوابة المقبرة وهي تعرف كيف تفتحها، انزعج **حجاج** فلقد كانت عينا أمه تدوران في محجريها كالعرافة وسألها مباشرة كيف عرفت؟

سلامه جالي ولما يجول يصدق.

أدرك **حجاج** أن يومه الصعب لم ينتهِ بعد.

***

على ضفة النيل جلسا، تظلهما شمس الشتاء الحانية، لم يكن اللقاء الأول، ولكنه كان اللقاء الأهم، بعدما رتب غيابه مع عم طه واطمأن على رفقة

«**سليمان**» الصغير مع السيدة أم «**زمزم**»، وأنهت هي يومها بعد المحاضرة الأولى في المعهد، شطح ببصره إلى الجانب الآخر وهو يحس بالوخز مع كل ذكرى حاضرة تتحول إلى كلمة منطوقة، كان يتألم كأنما يعبر مفازة جهنمية على حبل من شوك لا رجعة فيها ولا منها وقد تقطر كيانه كل في صوت:

(راح ما بقى مني بعد موتها، لم أكن بالقوة اللازمة، كنت جدار ما أراد ان ينقض، لم تقيمه يد صالحة باتت يومًا في القرية ، فاليد الوحيدة التي اعتادت أن تقيم في حياتي بعد يدها كانت يد سليمان، كان سندي وعوني وصديقي، وقد فقدته قبلها، كانت مع موت سليمان ليس انتحارًا كما قالوا فأنا أعرفه أكثر من الجميع، شاهد على قوة إيمانه وحبه للوطن، لم أصدق كل الخرافات، جاهرت برفضي لإعلان انتحاره هو بالنسبة لنا بطل، لشباب جيل كامل، جيل يحب الوطن كحب سليمان، وبعد حسرة دامت في قلبي كثيرًا، قررت أن أحب مصر كما أحبها سليمان، قررت أن أواجه الفساد الذي تغلل في الجمعية الزراعية في فاقوس، حذرتني غالية أني وضعت يدي على رأس الأفعى، حذرني عبد الله فؤاد صديقي الآخر ورئيسي المباشر في العمل، قال إن تحضير العفريت لن يؤتي بثمره، وأنني الخاسر الأكبر، بل الخاسر الوحيد، تذكرت مقولة سليمان أن العدو الحقيقي هو الظلم.

تركت امرأتي في مرضها الذي جهلنا مصدره وابني الذي لم يتجاوز السنتين، وخضت معركتي بصدر مفتوح فتحت ملف الحيازة والبيانات

المذكورة فيه، أو ما يسمى عندنا بدفتر ٢ أو الباب الخلفي للفساد والحصول على مستلزمات الزراعة بغير وجه حق، فيعاني الفلاحون للحصول على الحصة الموسمية من الأسمدة بمختلف أنواعها، ومستلزمات الإنتاج من المبيدات والبذور والتقاوي، في حين أن آخرين غير مستحقين، يشاطرونهم حصصهم من السماد بحيازات، معروفة بـ «الحيازات الوهمية» أو بمعنى أدق لصرف الأسمدة ومستلزمات الإنتاج المدعمة من الدولة من الجمعيات الزراعية، وكذلك صرفهم على حيازات لأراض غير منزرعة وغير موجودة على أرض الواقع، وسط غياب الأجهزة الرقابية المسئولة بالجمعيات الزراعية ووزارة الزراعة.

ابتلع «أحمد منتصر» ريقه وتأكد أن تحرير ما زالت تتابعه ورنا صمت مطبق حتى أتى إلى اللحظة المناسبة حتى أتى اليوم واكتشفنا مرض غالية وهو الحمى الشوكية، أشد ما يؤلمها هو عزلها عنا، أنا وسليمان الصغير، كانت تعاني والطفل يبكي وهي لا تقوى على الاقتراب منه، مؤلمة لما كنا نراقبها، وهي تبكي، أهملت عملي وتفرغت للعناية بابني ونسيت أني فتحت على نفسي أبواب جهنم، استغلوها وكانت النتيجة هي تهم الإضرار العمدي بالمال العام، وتسهيل الاستيلاء عليه، وتزوير محررات رسمية.

وقد اتهمت أني فعلت هذا لأداري على المخالفات التي اقترفتها وجاءني الخبر وقت وفاة غالية لم أقم لها سرادق العزاء، فقد أخذت ولدي وهربت وفي

النهاية حكم بالسجن سبع سنوات والعزل من العمل، لا أعرف لماذا لم يدافع عني عبد الله فؤاد، لماذا جبن إلى هذا الحد، فزعت إليه لما يذعن لهم هل نسي الصداقة؟ هل نسي سليمان؟ هل نسي الحق؟ نعم هربت من معركة خسرتها، ما عاد لي من معركتي سوى ابن رضيع، وزوجة لم أقيم عزاؤها، خارت قواي حتى اهتديت إلى عم طه هو من كفر صقر وتربطه بأبي صداقة قديمة، آوى الشريد المطارد، وربت زوجته طفلي الذي لم يرَ سواها، أنا مهدد في كل لحظة أن أحرم منه، لم يدق قلبي سوى بالخوف عليه، إلى أن رأيتك».

مسحت «**تحرير**» دموعها تضامنا مع دموعه النازفة، أدارت محبسها مرات ومرات في حركة عصبية، واسم **علاء** يدور بهامها كساقية، رحى تطحن قلبها قبل جلدها، أدركت أن قلبها عندما دق أو بدأ يتعلق كانت العلاقة شبة مستحيلة خاصة بعد الحكاية، كان واضحًا أكثر مما ينبغي أنه شريد مطارد مهدد بالسجن في أي لحظة، وعنده ولد، ولم يعترف بشيء بعد، ترى هل يوجد شيئًا من الأساس؟ لا تدري فقط شعور مختلف عندما تراه، وتسمع صوته، لا تدري ماذا تفعل خاصة بعد الزلزال، ودعها «**أحمد منتصر**» على أطراف مدينة السلام ودعها بإشارة صامتة، حتى باغته أحدهم بابتسامة خبيثة، ابتسامة «**أيمن هندي**».

لم تدر «**تحرير**» كيف وصلت إلى شقتها، ولا تصف شعورها المتضارب، حقيبتها التي لا تحتوي إلا على دفتر صغير، حمل كبير يثقل كتفها، تقدمت

لا تريد سوى البكاء وحيدة، تعد الخطى كي تصل إلى فراشها، موجة برد غامضة تجتاح كيانها، تتمنى لو لم تجد أحد فتبكي بصوت عالٍ، هائل النشيج ، ولكن كل أملها قد تبدد بعدما وجدت الجمع مكتمل في صالة الشقة، الوجوه تبتسم على غير العادة، إلا وجه أبيها، الذي صار رماديًّا مثل شعره وملابسه، وكادت الدهشة أن تودي بما تبقى منها من وجه واحد بينهم، وجه غريب ولو كان ذا قربى، وجه زوجها المنتظر «**علاء فوزي**».

***

انتهى كل شيء ...

قالها «**سيد**» لنفسه.

حتى زيارة «**علاء فوزي**» الثقيلة على قلبه انتهت، مسكينة «**تحرير**»، يتذكر نظرات الهلع عندما رأت خطيبها، حتى لو ادعت غير ذلك، انها لا تستريح لهذه الزيجة، ولكن قُضي الأمر، اليوم هو زلزال «**تحرير**» الحقيقي، لقد أتي «**علاء**» من الغرب بعرض لا يقاوم، حل به مشكتل الجميع هي وحدها من سيدفع الثمن، لقد جاء ليكتب الكتاب ويجهز للزواج هناك في ليبيا بلا أفراح، فالوقت غير مناسب بعد موت «**صابرين**»، إجازته تقترب من الشهر، كتب الكتاب سيكون في السيدة نفيسة بلا أفراح بعدما تمر فترة الحداد وسيرحل إلى ليبيا بعدها وينتظرها هناك في طرابلس، وستبقى الشقة هنا تجمعهم،

وعندما يعودن إلى مصر بعد سنة سوف يجد حلا سواء بحجز شقة جديدة، أو تكون المشكلة هنا قد حلت، لا يريد منها شيئًا، فالشقة هناك مجهزة بكل شيء لا يكفيه سواها، حاولت **نجاة** أن ترفض بلا إصرار، جاهدت أن تقنعه أن «**زينهم**» يعمل حساب ذلك اليوم، ولكنه أبى وتماشى معها في كذبتها، أما «**زينهم**» فهو في عالم آخر.

الانتهاء هو مصير كل شيء، يؤمن بذلك، الإنسان يعيش حتى يظن الخلود.

حسبه إغلاق باب «**صابرين**» إلى الأبد، فلتهنأ بالجنة أو تشقى في الجحيم، لا يهم، المهم إنها ذهبت إلى غير رجعة، فلتبكي «**سمية**» وزوجها وابنتها، وليصمت زوجها أو يتزوج أو يختفي إلى الأبد، لقد زال حمل ناء به كاهله، ثقل سقط على عقله، ما من قيح تمدد وأصد حتى وجب طهره، وما من عضو تقرح واشتكى حتى وجب بتره.

انتهى كل شيء ...

التقط نفسًا آخر عميقًا من سيجارته الملفوفة وهو يجول ببصره بين مقاعد المقهى الخالي من سماره، والمغلق حتما بأمر صاحبه «**أشرف الخواجة**» الذي تعلق ناظريه بأحداث فيلم «**رحلة العمر**».

انتهى كل شيء ...

لا ما زال «**أمير أبو ستيت**» حي يرزق، غيبوبته سرداب ضيق طويل، أن أفضى به إلى الجحيم فنعم هي، وإن عاد به إلى الحياة فللحكاية فصل آخر، معه ومع الملعون «**وحيد الزيني**»، تابعه الوفي، الشاهد على قذارته، تراه يكبت ضحكته عندما يراهم، بعدما نال صاحبه من الساقطة، تراه يفرغ ما في صدره من حكايات عن **أمير أبو ستيت** ومغامراته ومجونه ونزواته وفجوره وهتكه لعرض امرأة، خالها «**سيد لبط**».

لا يعرف بماذا كان يتهامس أهل **أرض يعقوب** من وراء ظهره وهو من هو، يمسك رأسه براحتيه وقد تصدعت، يحسب ان الأمور صارت على ما يرام ولكن ما زال في الحكاية كلمات لم تنته بإعلان موت **صابرين**، عليها ما تستحق، لا شيء يعوض قليلًا مما فات سوى الموت.

نعم الموت.

قالها بصوت متوعد عالٍ، تناهت الكلمة إلى ذهن «**أشرف الخواجة**» وكأنها لمست شغاف قلبه.

لم تنتزع صور شاشة التلفزيون **أشرف الخواجة** من أفكاره، يحاول التماس نقطة البداية، بداية حقيقية لأسطورة هو صانعها، فرصة، مجرد فرصة ينتهزها، يظفر بعدها بحياة حقيقية، محددة الملامح، خالية من عبث الأكاذيب التي لا تخدع حتى أطفال رضع، لقد اختار له القدر مصيره، لا يصادف منه حيدة، ولم

يكن تأديب «**عبده**» الذي تأخر بيد رجاله وتكسير حافلته إلا نهاية وتصفية حساب ، ما لقاه «**عبده**» هو جزاؤه، هو صفحة أخيرة لا بد أن تغلق، على ماض ظهر فيه كضيف شرف، والآن هو يبحث عن البطولة المطلقة، أن تصنع الحكايات بيده هو، يده المجردة من رهط أخيه، فمن يريد البطولة لا مفر إلا أن يكون بطلًا حقيقيًّا لا بطلًا من ورق، يقتل ويرهب ويغتال ويخوف ويروع فيهاب ويجل ويعظم ويُرجى ثناؤه ويُخشى غضبه، إنه يبحث عن مطرقة يكسر بها حاجز الإخفاق، فتنفتح له المغاليق، وينال صك العتق، ويطلق أسره من متاهة الخوف، وينطلق، لا راد له ولا مانع، تندفع قاطرته بلا توقف، تدهس الجميع، كل من سخر وتهكم وكذب ونافق وخاض في سيرته وفتش في منهاجه، ينتظر فقط خط البداية وطلقة الانطلاق.

«**الموت**».

قالها «**سيد**» فدقت أبواب «**أشرف الخواجة**»، الموت هو النهاية ام يا ترى هو البداية.

هو إيه الفرق بين الميت والحي.

قالها «**أشرف الخواجة**» في حروف غلفتها الرهبة، سرى دبيب رجفته حتى أذني «**سيد**»، الذي ابتسم في سخرية لا الوقت ولا المكان ولا حالهما

محل موعظة، يسأله **أشرف** بصفته يتعامل مع الجانبين الأحياء والأموات، التقط نفسًا أكثر عمقًا هو يرفع السيجارة أمام وجهه ليتأكد مما تبقى منها، وأجابه بعينين مرهقتين عالمتين:

الميت مبيخافش لأنه ببساطة عرف مصيره والعايش مبيخفش لأنه بيعمل مصيره، مشكلة الناس كلها انها لا عايشه ولا ميتة، بين وبين، ميتة بس تتنفس وتأكل وتشرب وتحشش، بس خائفة، اللي خايف من بكرة واللي خايف من مديره، واللي خايف من مرآته، واللي خايف على ولاده، واللي خايف ع رزقه، واللي خايف انه ميبقاش خايف، من الاخر اللي بخاف ميستحقش يعيش.

نفس أخير التقطه «**أشرف الخواجة**» وكأن كلام «**سيد**» أصابه في مكمن، ورددها:

– الخائف ميستحقش يعيش.

انتهى المشهد الأخير من الفيلم وزأر شريط الفيديو، إيذانًا بالانتهاء، رفع **أشرف** رأسه وتلفت حوله كمن يؤمن على خلو المكان إلا من صاحبه، يعرف أن **سيد** وأهل **أرض يعقوب** يعرفون حكايته من مهدها، لا داع للموارية فهو يريد الحل كي يخرج من مأزق وضع فيه رغمًا عنه، حلقة أحاطته حتى اختنق، وكان **سيد** حاسمًا حازمًا أكثر مما ينبغي، حالما برغبة ما ود زراعتها في قلب الرجل، لعل وعسى يقبل الأمر ويجد في أذنيه صوبًا، قالها كلمة واحدة رددها **أشرف الخواجة** طول الطريق من المقهى وحتى شقته.

الموت.

حل جازم يقسو به القلب، وينزع الحاجز بينه وبين اتخاذ القرار، ولكن يقتل من؟

هو يعرف لماذا؟

هل يقتل **عبده**؟

أم يقتل **زمزم**؟

أم يقتل اخوه رضا؟

أم يقتلها هي؟

ارتعد فجأة لما سول له الشيطان قتل أمه، انتفض بداخله شيء لا يريده توقف فجأة، أرخى أذنيه، مواء قط يتربص به، عيناه تبرق في غبش الظلام، يكاد سنا ضوئه يعميه، يعرف العينين جيدًا، ترى هل؟

امتدت يده لتلتقط حجرًا من الأرض ولم يكد يتوقف حتى هجم عليه القط الشرس نال منه ونبش مخالب في وجهه فلقمه «**أشرف**» حجر أصاب قدمه، صرخ القط واختفى.

***

عزيزتي / ليلى

أهنئكم بحلول العام الميلادي الجديد، أتمنى الشفاء العاجل لوالدنا الكريم، لقد انتهى موضوع **صابرين** نهائيا حتى «**أمير أبو ستيت**» ما زال في الغيبوبة، أما بالنسبة لي وبدأت في الانتهاء من مشروع التخرج، كل زملائي هنا يحلمون بذلك اليوم والسفر إلى أمريكا أو أوروبا أو الخليج لقد ضاقت بنا الأرض بما رحبت، ولكن أشد ما يؤرقني هو وجه أبي وأمي، أكتب إليك هذا الخطاب وعلى شباك النافذة غراب ينوح، الغراب الذي علم الإنسان ان يستر عورة أخيه ويدفنه.

الزلزال هنا هو الغراب الجديد غربنا من أرض يعقوب إلى بقعة بعيدة لا نكاد نسمع فيها نبض قلوبنا التي تركناها هناك، فهل تخير أن يدفنا في مكان بعيد، أو أن يدفنا بين ضلوعنا، أحياء.

أصوات الغد تناديني بصوت الغراب في هجرة مصر كلها، فهل أستجيب؟

علي السمان

الفصل السابع

على أريكة خشبية يلتصق ظهرها بسور سطوح العمارة جلسا متجاورين، يفضح المصباح الأبيض ملامح الارتباك والتوتر على وجهي الشيخين، المصباح الذي علقه «**خلف**» خصيصى لينير المكان من أجل هذه الزيارة، المصباح يكشف أكثر مما ينبغي هكذا حدس «**عوض الشاذلي**»، غالب رغبته في الاعتراض وأن ضوء القمر غير المكتمل يكفي، صوت شارع «**النزهة**» وأبواق السيارات على الرغم من ارتفاع العمارة – التي انتقل لها عم «**صابر**» بوساطة من صديقه «**بيشوي**» حارس المدرسة – يداري خفق الأنفاس، لم يكن حال «**صابر جاب الله**» بأفضل حال، أيام السجن القليلة نالت منه، انتهاء قضية السرقة لموت صاحبها وعدم اكتمال الأدلة، منحته براءة منقوصة، وخذله بعدها طمع الطامعين، ومن ظنوا أنه نجا بحياته وبراءته وما سرق، انتشروا حوله كالجراد منهم من عرض مشروعًا، ومنهم من عرض الزواج من وحيدته، مشروعًا أيضًا، يظفر بالحسنين المال و«**زبيدة**»، فجاءه العمال والموظفون من رواد المنطقة، ردهم «**خلف**» برفق واعتذر منهم وقد سبقهم لها «**حمودة الشاذلي**».

«**حمودة**» الذي لم تبدله المواقف، هو الأحق بـ«**زبيدة**»، يجلس بينهم في حضرة عمه وقور صموت، حرص أن يأتي متأنقًا مرتديًا سروالًا كتانيًّا أسود اللون وقميصًا سماويًّا، كان ينظر إلى عمه متحفزًا، وقلبه يتموج بين ضلوعه كزورق.

تلعثمت الكلمات على شفاه «**عوض الشاذلي**» الذي أطرق رأسه عمدًا كأنه مصوب نظاراته إلى الأرض متحاشٍ النظر في وجوهم أو بمعنى أدق يتحاشى نظراتهم إلى وجهه، بينما لم تمتد يده الى كوب الشاي الذي راحت حرارته من الإهمال، وفي مستهل حديثه الموجز الذي حوى كل المراد من مدح للعروس وأخلاقها والرغبة في مصاهرة الطيبين الأطهار وتوثيق الاتفاق بقراءة فاتحة الكتاب، كانت الكلمات التي راجعها اليوم في ذاكرته عشرات المرات تكاد تتفلت منه، ولما انتهى وراح الثقل من فوق صدره، والذي انتقل بدوره إلى صدر عم **صابر** الذي ما اعترض ولا ناقش فقط همهمة تعنى القبول والترحاب، التقطها ابنه «**خلف**» تتميما لما ذكر ابيه ان «**حمودة**» بمكانة أخ لهم فمدحه بأطيب الكلام، وأفضل الوصف مما يقرب المسافات، بينما استطرد «**مجدي**» الأخ الأصغر أن الأمر كله كما أمر الشرع مرهون بيد العروس، احتقن وجه «**حمودة**» من فرط التوتر، «**زبيدة**» لم يخطر بباله مرة أن حادثها منفردين، كلها كلمات قليلة مجاملة، لا يعرف من ملامحها الساكنة المائلة إلى الحزن، هل ترضى به أم لا، بينما طمأنه «**خلف**» الأخ

الأكبر وهون عليه ببسمة مشجعة أنهم لن يجدوا خيرًا منه زوجًا لأختهم، بينما حرص «**عوض الشاذلي**» أن يلقى قنبلته في الوقت المناسب أن «**حمودة**» جاهز من الآن للزواج، وليس للخطبة فقط، وأن شقته جاهزة لا ينقصها سوى الأثاث، وسوف يسهم في تحضيره، كان «**حمودة**» هو أكثرهم دهشة فلم يستقر بعد على شقة، وأن الموضوع ما زال في مرحلة الاتفاق، وأن إتمام الزواج بعد سنة أو اثنتين يكون وقتها قد عمل ودبر ما يقتضي من بيت وأثاث، فأي شقة يذكر عمه؟

أخرج «**عوض الشاذلي**» يده من مكمنها وبما تبقى منها ربت على كتف ابن أخيه إنها شقة «**السلام**»، فهو ليس بحاجة لها فقد قرر تركها له كي يتزوج فيها بينما هو سيستقر هناك في.... تلعثم وقد ارتبك صوته في المستعمرة، وحينها يمكن إتمام الزواج يوم عيد الفطر المقبل يكون انتهى «**حمودة**» من خدمته وتتجهز العروس، حاول «**حمودة**» أن يثنى عمه، ولكنه أصر فلم يجد «**حمودة**» سوى التقاط يد عمه وتقبيلها، انفرجت أسارير «**خلف**» وبين أنه لا مانع إن شاء الله، ما دام بفضل الله وتدبيره تيسر الأمور، واستعجل خروج العروس استعدادًا لقراءة الفاتحة.

دخل الحجرة على «**زبيدة**» التي لم تغير ملابس البيت متكومة كأنها في رحم مظلم، تضع رأسها بين قدميها، اقترب منها «**خلف**» الذي تغيرت سحنته ونهرها كي تقدم الشربات الذي أحضره للضيوف، كانت تنظر له بنظرات

خاوية، لا يعرف لماذا؟ وبعد إجبارها على عكس ما تريد قدمت الشربات وانسحبت، ادعوا أنها خجلة وحسم «**خلف**» الأمر بقراءة الفاتحة، قرؤوها سرًّا إلا من قول آمين، حمدوا الله وهنؤوا بعضهم البعض، بينما سيطر «**خلف**» على وجومه وذهب ليشيع الضيوف حتى أقرب محطة أتوبيس، صلوا العشاء في الطريق والشيطان ينال من «**خلف**» طوال الركعات الأربع، وعندما عاد سأل عن «**زبيدة**» فلم يجدها، قال أبوها إنها ذهبت لتشتري بعض الأشياء من ممر «**روكسي**» وقد سمح لها، لا يعجبه معاملة الأب التي تضخمت حنوًّا.

وقفت «**زبيدة**» مترددة أمام باب الغرفة بعدما اخترقت بوابة المستشفى، كانت وتتلفت يمنة ويسرة، كي لا يعرفها أحد، ثم طرقت الباب وانتظرت، وعندما لم تسمع رد فتحت الباب، لتجده «**أمير أبو ستيت**» ملقى فوق فراشه، فألقت نفسها بين السريرين وأجهشت بالبكاء برغم كل ما حدث من تخليه عنها ونذالته وخسته في تجاهلها، إلا أن شيئًا ما امتلكه داخلها، ربما لأنه الوحيد الذي فك حصونها واخترق بوابتها وامتلكها راضية مرضية، لا تملك أن تكرهه بالكامل، تتمنى فقط أن يعود هو من منفاه، وتشقى هي بالتيه الأبدي دونه، وسيبقى الرجل الوحيد الذي أحبته «**أمير أبو ستيت**».

لا تدري كم من الوقت مر عليها هكذا، جامدة في بؤرة ألم قارسة، منسية في الفراغ رأسها مثقلة مترنحة بين ماض تعس ومستقبل مجهول، وحبها

الوحيد وكرها الأعظم قد تجسدوا في رجل دنيء غارق في غيبوبة، تكره حبها له، وتكره نفسها الذي يدعو باسمه، وجسدها الذي ما نسي لمسته، تمنت لو غاصت معه أينما كان، تدنو بلا بعد، لقاء بلا افتراق، رأسها ثقل هائل فوق كتفيها، تقاوم السقوط في غفوة، مالها من قرار، وقبل أن تستسلم، سمعت صوتًا كالفحيح، ما دام يوقظ خوفًا ما بداخلها:

- **كنت عارف أنك هتيجي**.

وكان صوت «**وحيد الزيني**».

***

انتهت ورديته النهارية بعد غروب الشمس بقليل، انسحب وهو يخلع معطفه الطبي، وفكرة واحدة تسيطر على تفكيره وهو اقناع «**أشرف الخواجة**» بقتل «**أمير أبو ستيت**».

الحاجة ألجأته الى أضيق طريق.

يظن أنه قطع نصف الطريق، فقد نفذت رصاصته الى أذن «**أشرف الخواجة**» واستقرت في عقله، لقد تتبع أثرها في عينيه، وبصمتها فوق ملامحه، تراه يسأل من أين يبدأ؟

ومن يقتل؟

لقد هداه شيطانه إلى متاهة عصية المنال، تحتاج كثير من صبر حتى لا يقطف الثمار قبل نضجها فتصير مرة المذاق، ولكن الوقت يمر ويخشى أن تضيع الفرصة ويعود «**أمير أبو ستيت**» إلى الحياة.

زفر في حنق ولعن «**صابرين**» ألف مرة.

أسرع الخطى كي يلحق ب «**نشوى**» التي تنتظره أمام سينما «**الشرق**»، علاقته بها محددة المعايير، عنوانها ثلاثي الرفض:

لا زواج، لا غيرة، لا فضول.

كم يحتاج إلى هذا اللقاء، لقد تحمل ذهنه في الفترة السابقة أكثر مما ينبغي وحان وقت العبث، وقبيل البوابة دنا منه «**رمضان**» الحارس، أراد أن يفلت من بين يديه أنه عجل من أمره، ولكن الرجل كان مصرًّا، همس له: المعلم «**عبد المنعم**» ينتظره الآن، حاول كما اعتاد أن يهرب من اللقاء، ولكن إصرار **رمضان** أرهقه ما زال أمامه بعض الوقت لحفلة الساعة التاسعة، استسلم لطلبه وذهب معه إلى «**السيدة نفيسة**» حيث ملتقى المعلم «**عبد المنعم الكحكي**».

كان يجلس المعلم «**الكحكي**» على كرسي مرتفع يجعله اعلى من البقية، وأكثر هيبة وهو يرتدي جلبابا زيتيا واسع الأكمام، وكان شعره المرجل المصبوغ على جنب وشاربه الرفيع ووجهه المائل للاحمرار يجعله أشبه بنجوم

السينما في الستينيات، كان مثالًا للرجولة لولا حركات أنثوية عفوية، فقد كان بين الفينة والأخرى يمرر أصبعه المبتل فوق حاجبيه، وعندما يقف وفي قمة تركيزه كان يضم جلبابه حول خصره لا إراديًّا، لذا كان حريصًا على اظهار روح الدعابة بين الحين والآخر خاصة الدعابة الجنسية التي كانت تروق للجميع حتى لا تظن به الظنون.

كانت رائحة المكان تشي بآثار الخيل وروثها؛ فقد كانت تجارة أبيه الرئيسية هي بيع الجاز، وكان يحافظ عليها ظاهريًّا، ستارًا مانعًا عن نشاطه الرسمي، فلقد كانت نشأته بالقرب من مقابر «**الغفير**» والسيدة «**نفيسة**» والإمام «**الشافعي**» وعلاقته بتجار المخدرات وتجارة الجثث ونبش القبور، دافعًا له في تيسير نشاطه الرئيسي متبعًا خطى أخواله وسيطرتهم على قرية «**زاوية سلطان**» في المنيا المعروفة بـ«**زاوية الأموات**»، والتي يصل فيها عدد المقابر إلى أكثر من ١٢٠ ألف مقبرة، والتي تعد من أكثر المناطق التي تتعرض للسرقة أو النبش، على أيديهم.

جلس «**سيد**» عن يمينه على كرسي خشبي بينما جلس «**رمضان**» باسطًا ذراعيه بوصيده، كانت جلسة المعلم «**الكحكي**» تحمل كثيرًا من الصمت، وهو يلف سيجارته فعدو المعلم «**منعم**» الأول كانت سيجارة الماكينة بعد الحكومة بالطبع.

«**سيد**» يتنهد بين الحين والآخر، والوقت يمر، و«**نشوى**» غبية، وسترحل بالتأكيد، هناك أمر ما يشغل المعلم، انتظر حتى جاءت البشرى؛ فلقد ولدت امرأته الجديدة ولدًا وابتسم حتى بانت سنته الذهبية، وتلقى التهاني من الموجودين في مؤتمره واقترب «**رمضان**» متملقًا أنه ما زال في عز الشباب، وأن هذا المولود العاشر له، فأشار المعلم **الكحكي** ضاحكًا متباهيًا وأشار إلى ما بين قدميه.

ولسه فيه تاني.

ابتسم «**سيد**» مجاملًا وهو يلعنهم جميعًا حتى اقترب منه المعلم «**الكحكي**» وقال:

الخير دائمًا بقدوم الواردين وإن البشرى بالخير للجميع ومنهم وأولهم سيكون «**سيد**»، وأنه يريد أن يتعامل مع فنان مثله، تطلع إليه «**سيد**» يرمقه في ريب، أكمل بعدها المعلم **الكحكي**:

احنا نشتغل مع بعض.

قالها «**منعم الكحكي**» في مباشرة حاول «**سيد**» أن يغضب أو ينسحب ولكن ابتسامة المعلم بعدما انتهى من لف سجائره ازهقت انسحابه خاصة بعدما ذكر له «**صابرين**» وقصة جثتها التي ظهرت فجأة والضجة التي من المحتمل اثارتها سيقودها «**رمضان**» بالطبع، ابتسامة «**رمضان**» كلهاث كلب،

قابل الإطراء، أكمل «**منعم الكحكي**» أما لو تعاون فالشهد حظه والخير قسمته وسيعود الى «**أرض يعقوب**» مالكًا وليس ضيفًا على أخته وزوجها ويعبر متاهة الفقر والحاجة ويحيا الحياة التي تليق به.

اتفقنا.

ختمها «**منعم الكحكي**» دون أن ينتظر رد «**سيد**» الذي لم ينبس ببنت شفة، وتغافل عنه المعلم «**الكحكي**» عامدًا، بعد أن أطلق رصاصته محكمة الصوب في عقل «**سيد**»، تركه لأفكاره بينما خرج «**سيد**» من هناك ونسى «**نشوى**» التي تنتظره ولم يتوقف عن ذكر «**صابرين**» ولعنها حتى وصل إلى مدينة «**السلام**».

بينما جلس «**رمضان**» بين يدي أستاذه وعلى وجهه أمارات الدهشة، لقد تيقن بالفعل من أهل «**أرض يعقوب**» من موضوع الفتاة واختفائها من يوم الزلزال، وعن احتياجه لـ«**سيد**» بالذات على الرغم من سيطرته على مقابر مصر القديمة كلها، التقط المعلم «**الكحكي**» نفسًا عميقًا من نارجيلته وبحركة عفوية مرر أصبعه فوق حاجبيه في عناية قبل أن تتبدل ملامحه نحو الجدية ويوضح لـ«**رمضان**» ان **سيد** فنان بالفعل، يعمل مثل الطبيب تمامًا.

أما حاجته له فهي ضرورة، فأحيانًا يطلب منه طلبات خاصة من طلبة الطب وغيرهم، وليست الجثة كلها وأجدر من يقوم بهذا الدور هو «**سيد**»

ونظرًا لظروفه الحالية وانهيار بيت أخته سيكون في أضعف حالاته، والمعلم الشاطر هو من يطلب في الوقت المناسب، لا داعي للعجلة.

وجد **رمضان** إجابات عن أسئلته بينما انشغل بال المعلم «**الكحكي**»، لماذا لم يعترض «**سيد**» على العمل معه مادام موضوع ابنه أخته أمرًا حقيقيًّا، هل طمعًا في المال أم هناك أمر آخر أراد أن يخفيه؟

واستسلم «**منعم الكحكي**» لعربدة الشيطان وتسكعه بين خلاياه.

***

تطلعت إلى وجهه النائم ...

تأملته ...

لا تملك إلا أن تحبه.

لو عاد بها الزمن ألف مرة لاختارته هو، أن تتحمل من أجله لمرة أخرى، لا يهم فهو يستحق الدنيا وما فيها، حبه يسري تحت جلدها وبين أنفاسها، تعتقد أنها لا تملك القدرة على الاختيار، قالوا سحر لها، حبه هو السحر والعمل والرابطة الأبدية، تقبل جبينه، وتربت فوق يديه، رسمت صليبها فوق جبيرته، لن تجعله يحتاج لأحد، تصحو في فجر اليوم لتعد المخروطة والبقلاوة لتلحق بالناس صباحًا، أعدت الفطائر التي تحشوها بالبسبوسة،

أعدت كل شيء بمساعدة ولديها بالرغم من قدم «**إسلام**» المتورمة، تعتقد أنها بسبب الكرة، قال بجدية غير معهودة: لا .

لقد تبدل حال ولديها، أصبحت «**ماريا**» في غيابها هي سيدة المنزل، تخدم أباها وتساعده وتقضي حاجات البيت، «**إسلام**» تخلى عن نهمه ودعته وانحنت ملامحه نحو الجدية، أصبح رجلًا مثل أبيه يعتمد عليه، حتى صاحبه «**عمر**» أخو «**زمزم**» يقف معها كرجل آخر، خط بيده أبجدية جديدة على عربة كشري «**أبو نادية**» حولها إلى حلويات أبي «**إسلام**»، جر السيارة إلى الشارع المتسع إلى جوار «**أم شداد**» بائعة الخضراوات.

لا تود أن تمد يدها لأحد سوف تكفي البيت وتسدد الأقساط حتى يقوم زوجها، لن تكسره لأحد، وقبل أن تعد عدتها جلست في الصالة تناجي ربها، ركعت على ركبتيها وضمت راحتيها أمام وجهها وهي تقول:

«أيها الرب الأعظم، إليك نأتي بكل ثقة وتواضع واثقين بعظمة رحمتك وعمق حنانك، بالأخص على المرضى والمتألمين. نضع بين يديك زوجي راجين من جلالك أن تلمسه بيدك الحانية لمسة الشفاء. فقد قلت: «تعالوا إلى أيها المتعبين والثقيلين الأحمال وأنا أريحكم». تحنّن يا رب وامنحه الشفاء التام وأعده سالمًا من كل وجع وضيق.

نشكرك من أجل نعمك وحبّك ونطلب أن تتحقق مشيئتك بما فيه لخير المريض وأهله فإنك إله الخير وكل ما يخرج من لديك هو صالح. فأنت في

التعب راحة وفي الحزن عزاء وفي المرض شفاء، عليك اتكالنا وفيك رجاؤنا، ومنك نطلب بشفاعة أمّنا السيدة العذراء التي لا تُخيّب رجاء من يطلب شفاعتها ومعونتها. فاستجب يا رب، واشفِ «ريمون» آمين».

مسحت دموعها التي سالت قسرًا، قامت من مكانها، واستدارت فجأة لتجد «**ماريا**» لدى الباب شاحبة الوجه مذعورة ولا تكاد تبين، تتنهد كقطة تموء من الألم.

- ريمون .... مين ريمون؟

- أنا.

قالها «**عبده**» الذي ظهر من خلف ابنته وهو يقف على قدم واحدة ويده تستند إلى الحائط. ودوي الصمت يهدر في المسافة بين ثلاثتهم.

***

-ريمون ...اتضرب.

قالها «**ماجد**» في دهشة، انتقلت بدورها إلى ملامح «**عم جداوي**»، وقد ظن أن «**ماجد**» يعرف ما حدث، بعد زيارة «**رزة**» ولكنه فهم أنه عمي عليه الأمر، أخبرته وقتها أن الحافلة قد أصابها التلف بعد حادثة بسيطة تسببت في كسر ساق زوجها، وبعد تعافيه سوف يأتي إليه ويدفع له ما يريد، لا يعرف

لماذا قالت هذا ولم تصرح بحقيقة الأمر، ربما ظنت أنها تحفظ كرامة زوجها ولا تريد أن تنتقص منها حتى لو بقدر نذير، فكان الطبيعي أن يرفض «**ماجد**» طلبها، لم يسامحها بعد، ولم يسامح صديقه الوحيد، الذي ما أخفى عنه شيئًا، لقد تزوج منها وبعدها غير ديانته، إن كان نواها بداية فلِمَ يورطها معه؟

وورط معه أباه «**ملاكًا**» فظن الجميع أنه اتفاق مسبق، ومما زاد الطين بلة هو وقوف أبيه إلى جانبه، بل هو من اختار له اسم «**عبد الرحمن**» على اسم صديق له.

ثم زفر حانقًا:

أنا ابنه وصدقت أنهم متفقين.

حرمت عليهم «**سمالوط**» كلها لم يرحم «**ملاك**» دموع أخته الأرملة المسكينة وهي تناشده أن يستعيد لها ابنتها، وعندما رق لحالها وعلم أن «**تريزا**» حبلى، تراجع، وكانت القطيعة، كان يرى أنه يحب «**ريمون**» بشخصه مثلما يحب «**عم جداوي**» لشخصه وأنه مهما يحدث سيظل يحبه.

وانت يا ماجد لسه بتحب ريمون؟

لم يردها «**ماجد**» فهي حقيقة لا يصادفها عناد، ولا تمحيها معاندة، صديق العمر، وإن حياته بدونه فارغة بلا أنيس.

يتذكر عندما صارحه «**ريمون**» أنه رأى في المنام كعبة المسلمين وانه يطوف بها مثلهم.

ضحك وقتها «**ماجد**»، أمر طبيعي، فالاحتفالات بعيد الأضحى في كل مكان والتلفزيون بقنواته الثلاث يعيد مراسم الحج باستمرار. وما الحلم إلا مرآة لما نراه بالنهار.

لم يكترث بالأمر، أضغاث أحلام، داهمت صديقه، لا يدري أنها بداءة قرار مر على قلب صديق العمر وعلى رقاب الجميع، هو وأبوه وابنه عمته وأمها وأهلهم في «**جبل الطير**» بل و«**سمالوط**» كلها.

صرخ وقتها في وجه أبيه هل كان يعرف ما ينوي؟

ريمون لما خدعتني؟

كان طرق أحدهم بمطرقته على هيكل سيارة معوجة كفيلًا أن ينهي شريط الذكريات الذي مر على رأس «**ماجد**»، تنهد عم «**جداوي**» وتمتم:

«**عند كل منا شيء يخفيه**».

ربت «**ماجد**» على كتفه.

فعم «**جداوي**» من مواليد «**نجع سمرة**» بـ«**دشنا**» وكان في شبابه متهور مختالًا، فخورًا بقوة قلبه وإقدامه، وكان يجلس على مقهى بلدي بالقرب

من سوق الخضار المجاور لسيدي «**عبد الرحيم القنائي**»، ووجد صديقيه متخفين على نفس المقهى يتنازعان القول، فاقترب منهما وفهم الأمر، أن قاتل أبيهما هناك في السوق، وأنهما عقدا العزم لأخذ الثأر، ولكن في اللحظة الحاسمة أصابهما الجبن، استحثهما كي يرجعوا معًا، وعندما يئس منهما قرر أن يقوم هو بالعملية وقتله هو.

نعم تناول البندقية المخفية تحت حبات الباذنجان في المشنة وسحبها تحت جلبابه عبر السيالة واقترب من الرجل الذي قتل مندهشا وبعدما نال منه أطلق رصاصاته في الهواء وانسحبوا، ورط «**جاد الكريم**» عائلته في ثأر هي بعيدة عنه ليس لها به شأن وقررت عائلة القتيل أن تنتقم، لم يتحمل «**جاد الكريم**» نظرات الجميع وأدرك الحمق الذي ارتكبه في لحظة شجاعة غبية، وقرر أن ينسحب إلى غير رجعة حتى استقر على سفح المقطم وتحول من «**جاد الكريم**» الى **جداوي** بائع الخروب.

طرقات تدوي في ورشة السمكرة وطرقات الماضي لم تبرح رأس عم «**جداوي**» ونظر إلى عيني «**ماجد**» الذي حسم أمره.

والميكروباص فين دلوقتي.

قام «**جداوي**» ليقبل رأس «**ماجد**» الذي احتضنه في قوة ووقف صبي الورشة يتنفس في سرعة سأله «**ماجد**» عما حدث وأخبره أنه عليه أن يذهب

إلى البيت فقد سقط «**الريس ستوبينة**» مغشيًّا عليه انطلقا معًا إلى البيت حتى اصطدما بهذا الفتى ذي الشعر المرجل الناعم وملامحه السمراء وعجلته البخارية وسأله:

هل هو الأوسطى «**ماجد**»؟

حاول «**ماجد**» أن يفلت من بين يديه، ولكن عم **جداوي** طمأنه أن يكمل هو عمله وسيسبقه إلى البيت تردد «**ماجد**» وهو يخشى ما حدث لأبيه، وانتظر حتى تكلم الشاب الذي يسأله عن «**ريمون**» انعقد حاجبا «**ماجد**» بشدة وهو يتطلع إليه.

إلى «أيمن هندي».

***

في المعتاد لا تجذبه أضواء حديقة «**الفسطاط**» ولكنه هنا في شرفة البيت في الطابق الخامس، يرى كل شيء، بشكل مختلف، لم يأت هنا منذ شهور، إحساس غامض يجتاحه، يشعر بالحنين إلى منطقة «**أبو السعود**» كلها، يشعر بالتوق الى عزبة «**أبو قرن**» ومن فيها، حتى امه التي استقبلته بترحاب كالمعتاد الحت عليه أن يبقى معها، تحسست آثار المخالب الثلاثة على وجهه، ولم تكتشف كنز الندوب المختفي تحت صدره، أبعد يدها ببرود، تغافلت كالمعتاد، فرحت به، واكتفت بفرحها، أعدت له كل ما يحب وسط

دهشته وكأنها تتوقع حضوره، قالتها في تنهد أنها تعد له الأكل وتجهزه على التسخين أسبوعيًّا وعندما لا يأتي توزعه على الجميع، والمحتاجين في العزبة، وما أكثرهم، سألته هل مر على «**رضا**» أم لا، لم يجب، لم يقبل على الأكل الشهي بل التقم سيجارة وصار ينظر إليها، كبرت أمه أصبحت تعاني القيام والجلوس، ولكن بقي شعرها الناعم، وان غزته بعض الشعيرات البيضاء وصارت نظرتها إلى كعبها وهي تمشي مرهقة بسبب وزنها الزائد، لا يدري عما تبحث؟

وأي شيء علق في عقبها يجعلها تفحصه؟

لم يسألها.

ولن يفعل.

دخلت المطبخ تعد الشاي كانت تحدثه ولا يسمع، تحكي على أسوار مدينته الصماء ألف حكاية، تضحك وتبتسم وتبكي وتهزر، كانت تحدثه عن الزواج والاستقرار معها، والعمل، إن أراد يقيم مشروعًا مستقل، فالمال موجود، هنا، سألتهما أن يترك بيت «**الخواجة**» ويعودا إلى شقة عمها المغلقة في شارع «**مهدلي**» في «**أرض يعقوب**» والدفء التي تفتقده.

التقط أنفاسه بصعوبة، الكل يحن إلى جذوره، تمنى لو بقيت أمه هناك في «**أرض يعقوب**»، تمنى لو ما تزوجت من هذه العائلة، وقتها سيكون

أما «**أشرف الخواجة**» ابن أبيه، من أية امرأة أخرى، عندها يصبح مجرمًا خالصًا.

أو صار «**أشرف ابن سميرة**» وأي رجل آخر، يصبح وقتها شخصًا عاديًّا متعلمًا في الجامعة يحب زميلته ويجري خلف أتوبيس ٨٢.

ولكنها هي.

هي التي تمردت ولم تقنع بحال عائلتها وعائلة زوجها، ودت أن تجعل من ابنها اختراعًا، عقل أبيه وقلب أمه، ولكن يبدو أن مقاديرها قد تبدلت فقد حولته إلى نصف مجرم ونصف إنسان، مزيج مضطرب، ممسوخ مشوه، لا ينتمي لأولئك ولا لهؤلاء، ظللت عليه بغمام حنانها فأصبح لينًا طيعًا، سجنته في درقتها، سلحفاة بطيئة الحركة مشوهة التكوين، لا رأى شمس اليمين ولا ليل الشمال.

حتى «**زمزم**» تخاف منه وربما تحتقره، لا تدرك أنه يحبها حقا، وأنه يريدها، هل تصدق لو قال لها إنه يبكي من أجلها على نغم الأغاني، فشل في الحب كفشله في كل شيء.

تنازعت الأفكار بعد السيجارة العاشرة، انه وقت الحسم، لا مفر من الخروج من الدرقة، «**سيد لبط**» كان على حق، مصيره أن يكون **أشرف الخواجة** لا غير.

- **أنا «أشرف الخواجة»**.

رددها بصوت مقطوع، ولهاث واضح، جال بصره في المكان، تتبع حركتها.

رأي نفسه يذهب وراءها إلى المطبخ، ينظر في عينيها ويمد يده يلتقط سكينًا حادًّا ويغرسها في صدرها، يرى في عينيها نظرة الرعب أي نظرة غير نظرتها الحانية التي تعذبه، يدفنها في التراب ويدفن سيرته الأولى إلى الأبد، ويعود قويًّا غاشمًا تهابه الناس، وتحترم وجوده، تخشاه كما تمنى.

عادت بصينية الشاي ونظرتها الحانية وعاد هو من أوهامه ونظرته الجافة، نظر إلى عينيها أو حاول، استسلم ودفن رأسه في صدرها وبكى ...

لملم أشلاءه تاركًا دموعها تشيعه من الشرفة، استقل دراجته البخارية التي حرص على ركنها بعيدًا عن البيت وتحاشى لقاء إخوته، نظر إلى شرفة البيت لا يدري لماذا رأى «**زمزم**» مكان أمه تودعه، أيقظه نفير السيارة التي توقفت إلى جانبه، زفر في ضيق أنه «**عرفة**» صديقه، أحد سائقي خط السيدة عائشة، تجاذبا حديثًا موجزًا، تذكر «**عرفة**» أن أحدهم يتقصى أمره، تردد مرات على موقف «**السيدة عائشة**» وعرف موضوع خناقة «**الخيالة**».

الواد اوني الرطاط قعد يحكي معاه اعترف لي بعد ما زنقته بالكلام، الظاهر الواد جرجره بسيجارتين.

اسمه إيه؟

نفى «**عرفة**» معرفته بالاسم ولكنه وصفه.

وعرف «**الخواجة**» من يتتبع قصصه.

عاد إلى مدينة السلام استقبله «**أيمن هندي**» بترحاب، أخبره انه يحمل في يده وفي عقله هدايا، يتمنى لو قبلها، وقرن القول بالفعل، جلب له عدة زجاجات من الجعة (البيرة)، كانت ملامح «**أشرف**» التائهة الجامدة، تكاد تشي بأمر جلل.

عقد «**أيمن**» حاجبيه ثم سأله هل حدث مكروه هناك في عزبة «**أبو قرن**»؟

لم يجبه «**أشرف**» مباشرة، وقد اقتعد كرسيًّا وهو يصطنع الدهشة: كيف عرف بوجهته ولم يخبره من قبل؟

ارتبك «**أيمن هندي**» لحظات لم تغب عن عين «**الخواجة**» ثم تدارك موقفه، أنه توقع، ثم استطرد سريعًا أنه أتى بكباب وكفتة حتى تبدأ السهرة، وحكى له ما حدث انه استطاع أن يصل الى حكاية «**عبده**»، وتتبع خطاه وعرف حقيقته كاملة، حتى الفتاة قريبة «**سيد لبط**»، انتفخت أوداج «**أيمن هندي**» بعدما كشف لأستاذه قدرته على التلصص.

لم يكتشف ردة فعل ولا أثر لكلماته في وجه صلد محتقن، وفرض الصمت هيمنته، إلا من تدفق رشفات الجعة في حلق يزرعه اللهيب، وقضمات متتالية نهمة من نفس لا تشبع، مرت ساعة عاقر فيها «**أشرف الخواجة**» زجاجات الجعة كما لم يفعل من قبل، انسحب «**أيمن هندي**» ليفرغ مثانته، وصدى زجاج يتهشم في دوي مدهش يقطع بولته، لا بأس لقد نال السكر من صاحبه و عاد ليجد «**أشرف الخواجة**» يقف في منتصف الغرفة، يوليه ظهره، وفي يده زجاجة بيرة مكسورة، وقبل أن يسأله عن رأيه فيما ذكر له من حكايات، حتى رشق الزجاجة في رقبته ولم يبق له سوى الذهول... الذهول وحده.

***

(سألني هذا الوغد من قبل: هل قتلت مرة؟)

أجبته نعم.

لم يصدقني.

حاولت أن أقنعه أني أوسعت أحدهم ضربًا وركلًا حتى زهقت روحه، تظاهر بالتصديق لولا نظرته الجانبية فضحته.

قتلته.

عندما استطعت أن أنظر إلى عينيه، وأكشف عما يبحث عنه، لم أتردد هذه المرة فقط غرست زجاجتي في عنقه، لن أنسى عينيه وهو ينظر لي مشدوهًا

مندهشًا متوسلًا، وفي عينيه ألف سؤال، لا يدري بأي ذنب قتل ولا أنا بالتحديد، لقد قتلت دناءته ونذالته، قتلت فيه جبني وضعفي.

رائحة الموت ليست بهذا السوء كما اعتقدت وربما كان لأثرها وقعًا خاصًّا، كرائحة رضيع قادم من فوره إلى الحياة، نعم وقع في نفسي نشوة غامرة كالتي ذقت عندما مارست الحب أول مرة مع «زوبة» كنت منتشيًا وقتها.

هل للموت نفس الإفرازات التي تغزو الجسم مثل ممارسة الحب؟

لا أدرى.

الشيء الوحيد الذي أزعجني هو سبه لي وهو يموت، لم يكن ليجرؤ قبلها، هل عند الموت تلغى الحواجز، وتزول الألقاب وتتبدد المخاوف والمحاذير؟

كم أتمنى أن أموت أمام «رضا الخواجة» وأسبه بأقذع الألفاظ ابن الدلالة الذي ما دام يعيرني بأمي وهي سيدته، ما الذي يعيرها؟ جمالها؟ شبابها؟ أم أنها سحقت قلب الرجل الكبير فكفته الدلالة وما أنجبت؟ سأقول له وقتها إن أمه دلالة بعد أن أستوي على مقعدي وأربط حزام الأمان قبيل الإقلاع إلى جهنم ونلتقي عندئذ ونتشاجر أمام اعين الزبانية، حتى لو مات قبلي سوف أذهب إليه وأركل جثته الهامدة المستسلمة مثل جثة هذا الوغد، الذي ارتجف جسده بعد نزف الدم من رقبته ورغاوٍ بيضاء سقطت من فمه، مقزز حتى وهو ميت.

ترى ما سر الرجفة التي تطلق كهاربها عبر مسامي، نعم إنها المرة الأولى التي أرى فيها قتيلًا بحق، هل الإنسان حقًّا يموت، الآن فقط أمنت، هل شعر «أيمن» وهو يأكل ويشرب ويتغوط أنه سيموت بعد دقائق، هل ترقب موته، الكل يرى الموت ولكن لا أحد يتوقعه لنفسه، الكل ينتظر مفاجأة الخلود، وأن يبقى هو، لا يعرف أن الموت أقرب مما يظن).

أفاق فجأة على الحقيقة ما زالت أمامه في شقته جثة هامدة باردة، تسبح في بركة دم متخثر، وذرات متناثرة من الزجاج الأخضر،، ولكن شيئًا ما يخبره أن ما حدث ليس حقيقيًّا بالضرورة، وأن الجثة تفتح عينيها بين الفينة والفينة، ترسم بسمة ساخرة محيرة، ربما تخيل هذا الوغد يقوم من رقدته، ينفض عنه دمه كتراب أو غبار، ويمارس حياته كما كان، لا بد أن يدفنه كي يوقن أنه مات وانتهى، لا يمكن أن يتحمل وجوده معه، اكتشف أن النشوة قد انتهت، كما كان مع «**زوبة**» بعدما انتهى منها ووجدها أقبح مما ينبغي بشعرها الأشعث وشفاهها الغليظة ومساحيقها التي ذابت مع العرق فصارت مثل المهرج ثقيل الظل، ماذا يفعل؟ الوحيد الذي كان سيساعده هو القتيل نفسه، هل أصبح وحيدًا من دونه؟ هل صار مغتربًا بلا أتباع؟ هل يتصل أو يتواصل مع رجال أخيه؟ ستكون الوشاية ل المعلم «**رضا الخواجة**» من نصيبه، وسينتهي كل شيء قبل أن يبدأ، طرقات الباب تستدعيه، لا يعرف لماذا خاف، عندما طرق زوج «**زوبة**» خاف أيضًا، لن ينسى نظرتها الساخرة، ولن ينسى قحتها،

وهي تعنف زوجها الداجن، تجاسرت عليه، ونهرته بعدما جاء قبل موعده، ربتت بيدها المعروقة فوق شعره، خرج عنها مكتمل التشويش، رأى زوجها بطرف عينه وهو خارج من عندها.

الطرقات تعود، يتمالك صوته ويسأل عن القادم، حتى جاءه صوت الخلاص:

صوت «**سيد لبط**».

***

في حلكة القاع يصرخ.

لا مجيب لندائه.

هوه عميقة متخمة بالفراغ، كأنها بطن غول مسحور، لا يؤوده الا ثقل رأسه، خائر القوة، معلق فوق حافة أدق من نصل سكين، لا يسمع إلا صوت همهمات وتمتمات مميزة، ود لو نادى صاحبته، ودعاها أن تنقذه وتخرجه خارج الفقاعة، لكن لا صوت له ولا زعق، لم يبق له سوى الارتقاء، تشبث بالجدران اللزجة كبطن أفعى، الأنابيب التي تخترق ذراعه تكبل حركته، دقات قلبه تزداد وتنقص كمصعد مجنون مفقود السيطرة، ضحكات هستيرية تأتي من مكان ما تتلاشى كلما أرخى أذنيه ليعرف مصدرها، لا تكشف عيناه إلا الظلمة، يواصل رحلة الصعود بيد مكبلة، وقدم دامية وقلب ضعيف.

وأخيرًا بصيص ضوء.

لم يتوقف عن الصعود ولم يوقفه اللهاث ولم يفقد الأمل.

التمتمات تزداد وضوحًا والضحكات الشرسة تخفت تدريجيًّا، مرجل الأمل يوقد حماسه، بقعة الضوء تزداد، ألم رأسه لا يطاق، لهاثه معاناة بؤس شقاء، التمتمات لصوت أمه يسمعها بوضوح وبقعه الضوء محدده المعالم، يفتح عينيه بصعوبة، مثقل الجفنين، رآها تبكي واضحة المعالم، ولما كاد يتشبث بيدها انزلقت يده الأخرى وسقط نحو الظلمة ونحو الهاوية.

***

راقبت الدكتورة «**هداية**» النشاط الملحوظ المسجل لحالة «**أمير أبو ستيت**» تجاورها الحاجة «**تحية**» شاحبة الوجه، مصلوبة على حافة الانهيار تستند على يد زوجها الحاج «**محمد أبو ستيت**»، وهي تقسم بمحرجات الأيمان أن ابنها فتح عينيه أشفق عليها زوجها ربما تهيأ لها ما رأت، لم تحبط كلماته رجاءها، ولم تنل من مبالاة د. «**هداية**» التي ما زالت تفحص عينيه، وتراجع مقاييس الوظائف الحيوية، وخزته مرات بلا جدوى وقبل أن ينفد صبرها، ويشتد بها القنوط، لمحت حركة تلقائية لعينيه، قربت المصباح الأبيض منه، سطع ضوؤه في عينيه، ربما الضوء أكثر تأثيرًا من الوخز، فجوة زمنية من الانتظار، قطعتها شهقة الحاجة «**تحية**» لما فتح «امير» عينيه بصورة أوضح، دنا منه الحاج «**محمد أبو ستيت**» واحتضنه بشدة وأغرق صدره بالدموع .

وعلى نحو مباغت، انطفأت شموع الأمل، بهتت الوجوه، صارت تحاكي وجوه الموتى لقد عاد «**أمير**» الى غيبوبته، هوى الأمل عند الحاجة «**تحية**» إلى الهاوية وتحامل الحاج «**أبو ستيت**» على نفسه، انتزعت «**د. هداية**» نفسها من الصدمة، وبثت السكينة بين كلماتها، وادعت أنها البشرى فهي مظاهر الخروج من الغيبوبة، الخروج من هذه الغيبوبة الطويلة ليس بهذه السهولة ولكن الأمل أصبح كبيرًا، هدأ الحاج **أبو ستيت** زوجته، انتظر لما سكنت بقراءتها للقرآن إلى جانب ابنها وهي تراقبه بين الفينه والفينه، و خرج ليتوضأ ويصلي ويدعو الله أن يعيد إليه ابنه، خرج من الغرفة ووجد أمامه «**وحيد الزيني**»، لاحظ «**وحيد**» علامات التوتر على وجهه وبالفعل أطلعه الحاج **أبو ستيت** على ما حدث، سيذهب إلى السنترال يكلم الخواجة **توماس** هناك في «**الدمام**»، لا غربة بعد اليوم، لن يترك أبنه قط، سينتظره، تلعثمت الكلمات على شفتي «**وحيد الزيني**»، يسأل مستغربًا:

هل سيعود «أمير» حقًّا إلى الحياة؟

***

انسل «**وحيد الزيني**» من مفاجآته وتغيرت ملامحه، كيف يعود بعد كل هذا؟

بعدما اقتربت اللحظة التي تمناها أن ينتهي «**أمير أبو ستيت**» وينسب العار إلى أبيه، الرجل الذي خان، خان صديقه وطمع في امرأته، قالت ل

أمه إنه تهجم عليها في غرفتها الصغيرة في حارة «**السكر والليمون**»، لم يراعِ حرمة صديقه الذي مات، خان صداقته، لا راد له ولا مانع، عاش في كنف «**امير**» يتبعه ككلب، ولكن الحقيقة أن «أمير» كان هو التابع، أغواه فغوى، قاده فطاوع، يسهل له الموبقات والمنكر والبغي، حتى «**صابرين**» هو الذي زينها له أملًا أن يكتشف «**سيد**» أو «**علي**» علاقتهما وتكون القطيعة ويخلو له الطريق كله، كان يقسم ظهر «**أبو ستيت**» من خلال ابنه، كان ينتظر الفرصة ليجهز عليه، ولكن الزلزال أدى ما أراد، أخذ كل ما تحويه الشقة من أموال ومخدرات. كل الأمور تسير كما أراد، حتى زواجه بـ«**رحمة**» ابنه «**إبراهيم عرفان**» طمعًا في دكان أبيها يبقى له خطوة واحدة سيستلم «**إبراهيم عرفان**» بالتأكيد، ما دام يترك «**رحمة**» كالمعلقة، وسيرفع اسم «**الزيني**» فوق رؤوس الجميع، ولكن عودة «**أمير أبو ستيت**» إلى الحياة مرة أخرى، ربما تربك الحسابات، وهو يتعجل النهاية، اللعنة عليك يا «**خلف**» لو كنت تركته كما هو وما دليت أحد عليه لكان في طي النسيان، وذهب بلا رجعة.

«**خلف**» ...**نعم** «**خلف**».

لقد بدأها وعليه أن ينهيها.

***

محني الهامة جلس «**عرفة**» يتوج حسرته بسيجارة أشعلها بداءة من ناحية الفلتر عن طريق الخطأ، لعنها ولعن «**أشرف الخواجة**» واليوم الذي رآه، وهذا

الفتي السمج الذي يراه لأول مرة بقميصه المشجر وبنطلونه العاكس للضوء يسمى الشبح، يجلس مسندًا ظهره إلى حافلته، على مسافة غير بعيده منهما، غبش الأضواء حولهما إلى شبحين متجاورين، يرى رجفة «**أشرف الخواجة**» من هنا، لا يكاد يميز مصدرها، هل الخوف أم البرد؟

دفع فبراير لا يرد، الريح تعصف من حوله، يزداد التصاقه بالحافلة، هنا في منطقة «**السيدة عائشة**» التي بدأت تزدان لاستقبال شهر «**رمضان**» الذي لم يبق على قدومه سوى أيام معدودات، بدأت ورطته عندما ترك «**أشرف**» رسالة له عند البقال أن يتوجه إليه فورًا، هناك في مدينة «**السلام**»، وصل وانتظر، انتظار قاتل قرابة الساعة، تجمد الدم في عروقه عندما رأى الجوال الذي حمله الاثنين، ودسَّاه في السيارة، لن ينسى نظرات «**أشرف**» الزائغة وقد تحول إلى كومة لحم مرتعد، بينما جلس «**سيد لبط**» يدندن كأنه في رحلة، حتى هنا وبالتحديد خلف مسجد «**المسيح**»، حيث التواجد الأمني المكثف نهارًا والوجود الابدي لرجال العالم السفلي ليلًا، وبين نهار الضجيج، وليل الغفلة، يعزى حكم المنطقة حسب أصحاب الدوام، وبين هزيم الرياح ودقات قلبه، تنصت «**عرفة**» لصوت صهيل خيل يقترب، وظهرت فجأة عربة يجرها حصان تتوقف عندهما، تبودلت كلمات قصيرة بينهما والرجل الذي يجلس بالخلف بينما تقدم منه شبح ضخم، لا يعرف سر خفقان قلبه الذي تضاعف مرتين، زال عنه هذا الخفقان عندما ظهرت ملامح الرجل وأسنانه المثرمة،

ربما لتوقف قلبه تمامًا، راعه هذه العضلات المفتولة والصوت الأجش الذي أمره أن يطفئ سيجارته، وأن يتقدمه ليفتح السيارة، أطاعه «**عرفة**» بلا نقاش كالممسوس، التقط الجوال من السيارة بيده وحمله على كتفه بسهولة، وأمره بالرحيل حاول أن يعترض، ولكن إشارة من يد «**سيد لبط**» وكأنه ينتظرها، أطلق سبابًا خفيًّا وانطلق بالسيارة في اتجاه ميدان «**السيدة عائشة**» تنفس الصعداء وهو يغسل نفسه في مزيج مدهش من انوار الميدان وصخبه وأبواق السيارات الذي طالما كانت تثير غضبه، وجدها الآن كصرخة وليد مقبل على الحياة، نفض رأسه وكأنه يبعثر غبار الليلة وركامها عن أفكاره وفتح المسجل على أعلى درجات الديسي بيل، ليغسل ما تبقى في نفسه من أثر، وكأنه يقطع ورقة الليلة من الرزنامة.

وفي مدفن مهجور خالٍ إلا من كرسي واحد جلس فوقه المعلم «**عبد المنعم الكحكي**» وهو يمسح فوق شاربه بينما وقف إلى جواره «**أشرف الخواجة**» و«**سيد لبط**»، وقد بدأ الرجل الضخم في فحص جثة «**أيمن هندي**» وتأكد أنها جثة حديثة لم تدخل الثلاجة تمامًا كما يحتاجها المعلم «**الكحكي**»، الذى هز رأسه علامة الرضا، كان «**أشرف الخواجة**» بنظراته الزائغة يزفر في قوة وهو يريد أن ينهى المقابلة في أسرع وقت، وقد هما أن يغادرا المكان خرجا، ولكن «**سيد لبط**» تراجع خطوتين بعدما ادعى انه نسى شيئا سيؤكد على المعلم «**الكحكي**» الا يخبر احد من عائلة «**الخواجة**» لأنه تعرف «**أشرف**»

عن طريق مساعده، عاد أدراجه والرجل الضخم يتفحص **أشرف الخواجة** وملامحه في صمت، بينما ابتسم المعلم **الكحكي** في وجه «**سيد**» وأخرج من جلبابه الألف جنيه كما وعد، وتمنى بمزيد من التعاون، دس «**سيد**» الرزمة في جيب بنطلونه الشبح، وانسحب وعلى وجهه ابتسامته الساخرة وهو يسيطر على انفعالاته المختلطة بين الأمل والترقب مودعًا القتيل «**أيمن هندي**» متمتمًا أن موت أحدهم يأتي بالخبز للآخر.

***

وحدها تنتظر، تحت ظلة السقيفة، وقد سرى دبيب الليل.

جلست تتمتم بالأذكار بعدما تمت صلاة القيام، لم تلتفت وقتها ل «**تها**» التي أتت بالدواء وكوب الحليب، ولم تسألها الأخيرة بدورها أين تذهب في هذه الساعة، وهذا البرد القارس؟

تعلقت عيناها بالعروق الخشبية التي تفوح منها رائحة الرطوبة تلتمس وجوده، وقد أتاها ضوء القمر كاشفًا، مؤكدًا غيابه الذي طال.

(لماذا طالت الغربة يا سلامة؟ هل ذهبت ولم تلوِ على شيء؟ اخترت مثلهم أن تبعد عني، تبعد عن أم الشلاشل كما يراني أولادي، هل تراني مضطربة العقل مثل حجاج، أم صلدة القلب كيحيي؟ لم يعرفوا يا سلامة أني أعبد الطريق لخطاهم، أرفع بكفي هاتين قدرهم، هل يستحق يحيي، الطبيب، أن

يربط حياته بتها التي ما اكتمل علمها، يحبها، سنة أو سنتين وينمو حاجز بارد بينهما وتزيد الهوة، و«حجاج» الذي ما أردت أن ينتقص منه شيء منحته «تها» عوضًا على ما فرط في حق نفسه من إهمال العلم والتعليم، وخفت أن يحسد أخاه على كل شيء فيصيبه القنوط ومردة الانحراف، وينزغ الشيطان بينهما، علم هنا وحب هناك، لم أظلم «تها» أيضًا لقد أصبحت سيدة الدار، زوجة «حجاج» ستكون هي سيدة دار «العديسي» الذي لن يغادر بيت «الشراونة» هي السيدة الأولى والأخرى إن جاءت فلن تكون هنا.

أين أنت يا «سلامة»؟ لقد ظنوا أني أصابني مسٌّ عندما أخبرتهم بأمر المقبرة واتسعت عيونهم دهشة عندما قلت إنها منك، خلت أنني أعطيك قدرك، فهل هذا هو الجزاء أن تتركني وترحل أم تكون، لا هذه الفكرة التي تغمر رأسي عنوة لن أصدقها، هل، قتلت، من قتلك، «بكري»، «تها»، «حجاج»، لا)

انطلقت رغم سنين عمرها إلى داخل الدار وقد اشتد بها الوجع، أيقظت بصوتها كل البيت، ظهر «**حجاج**» مذعورًا، والحاجة «**فهيمة**» التي تحولت إلى غولة شرسة، وقد سقط الملس عن كتفها، تسأله سؤال واحد هل قتل «**سلامة**»، وقف أمامها مبهوتًا، لا يجسر على الاعتراف، ولا يجرؤ على الكذب، كان يعلم أنها ستدرك الحقيقة، لقد أمر بقتله، على الرغم من تيقنه من موضوع المقبرة فقد أخبره الكاشف أن ثمة مقبرة بطلمية تحت الدار،

وأن بابها تحت حظيرة البهائم داخل الباب القبلي للدار، وأن الموضوع مؤجل حتى انتخابات مجلس الشعب، وأن أمه أصبحت تتكلم بلا رادع ويخشى أن يتسرب الخبر، بعض نسوة «**العديسى**» بدأن في معرفة كلام أمهنَّ مع ثعبان، ازددن رهبة منها، ولكن التخلص منه ينزع فتيل الفتنة، ولكن بعد قتله لم يدر ما سيقول، سألته ثانية: هل قتل ثعبانها؟ لم يجب، ولكن جاء الرد آليًّا من «**تها**»، ولم يفصح وجهها عن شيء.

أنا قتلته.

وهدأ كل شيء إلا من لهاث غاضب.

الفصل الثامن

لقد أصابه مس من الجنون، راح مظهره المتأنق، أصبح رث الثياب، مغبرًا، رائحته بدت أقرب إلى العطن، أصبح يجوب المدينة خائف يترقب، وفي صدره وجس موغل يرجف كأنما يفزعه نفير غامض، يأتي من بوق شيطان، يفر كمن يطارده ألف شبح، يجري في كل مكان، وكأنه يستغيث بكل الوجوه، من هاجس مجهول.

من يومين رمى نفسه بين يدي « **عوض الشاذلي**» صعقه الدنو من ملامحه، نكص على عقبيه وارتد هاربًا، اقتحم البناية ٩٢ صرخ في جوف الليل يوقظ الجميع قبيل السحور ، وينادي «**زمزم**»، حاول «**عبده**» أن ينال منه متحاملًا على قدمه المكسورة، منعته «**تريزا**» التي كانت تصلي أمام صليبها النحاسي المعلق في منتصف الحائط، نزل إليه «**سيد**» مهرولًا، وجده يقف في منتصف المدخل، عاريًا تمامًا كما ولدته أمه، وجثوم البرد لا يقاوم، موت «**أيمن هندي**» جعله وحيدًا، نعم كان وغدًا دنيئًا، ولكنه كان يكفيه، حتى «**سيد**» ابتعد عنه، لم يعد يجالسه كما كان، لا يعرف أن الأخير يشعر بالإحباط، هو لم يساعده من أجل المال فقط، ولكن السبب الأساسي كان لقتل «**أمير أبو ستيت**»

الذي تحسنت حالته لسوء الطالع، سحبه «**سيد**» من يده وستر عورته قبل أن يسحبه إلى البيت في هدوء، كانت نظرات أهل منطقة «**سبيكو**» تتلصص من خلف الشرفات و«**أشرف الخواجة**» يهتف كالمسوس متوعدًا شخص واحد هو «**زمزم**».

«**زمزم**» التي جلست متكورة في غرفتها تبكي في حرقة، تبكي حالها وغربتها، التي زادت بعد رحيل د. «**يحيى**» ومعامله الطبيب الجديد السيئة لها، إنها تخشى أن تخرج من غرفتها، «**أشرف الخواجة**» على أعتاب الجنون، وبات لا راد له ولا مانع، تخشى على ما تبقى منها، لم تتناول سحورها رغم محاولات أمها وأخيها، أذن للفجر وهي متكومة، مسجونة في فقاعة حديدية، بلا مخرج، دعت ربها بالتدبير، حتى رأت عم «**عوض الشاذلي**» عائد من المسجد، حسمت أمرها في الحال واختارت حياة جديدة، وحيدة، بلا قلب يسندها، وعقل يدعمها، ولسان يناصرها، باختصار غربة جديدة لا يوجد بها د. «**يحيى العديسي**».

***

تعلم انها ضيقت عليه الخناق.

تعلم إنها حاصرته بقصب السياج ولم تدع له ثغرة.

تعلم أنه لا سبيل أمامه إلا الاعتراف وفقط.

وتعلم أنها تحبه.

لن تسمح أن تبقى هكذا، منسية على رصيف الانتظار، صامتة إلى الأبد، غمرها الكدر من صمته، ولم يصفُ لها الحال لما تكلم.

اعترف لها أخيرًا أنه أحب يومًا ما، بهتت، انسحب الدم من وجهها، ندمت على حصارها، تمنت بعدها أن انسحبت وهي تجهل قبل أن يجهل عليها، صرعها اعترافه، بعثر رماد ماضيه في عينيها، فردم قلبها، وطمر أوديته ومجاريه، وتركها مرداء قاحلة متيبسة، من أثر الصدمة، تلعثمت حينها الدكتورة «**هداية**» وتشاغلت بسماعة طبية منسية على مكتبها، وضعتها بلا إرادة فوق قلبها الغاضب المتمرد، نظراته كانت تسلم أن هذا الحب لم يغادره بعد وإن أنكر، أنثوية حكمها عندئذ قاسية، عليها هي، كانت على وشك الاعتراف أنها تحبه، بلعت ريقها ونيتها وانسحبت من أمامه، وهو كأنه لا يبالي، تركها تتكلم وهو يتابع اللمسات الأخيرة في ترتيب العيادة التي تجمعهما في شارع «**طومان باي**» حاولت سبر أغواره وخرق الحصون التي يتحصن بها، هاتف العيادة يرن، سمعته يخاطب «**سعدة**» أخته الصغيرة، تتنهد ثانيًا، ليته صمت وما اعترف.

توجهت إلى مستشفى «**هليوبوليس**» وتابعت عملها، سخرت من نفسها التي ظنت بعذرية قلبه طوال ثلاثين عامًا، لا بد أنه دق يومًا ما، ولكن ترى ما شكل تلك الملكة التي تعلق بها «**يحيى العديسي**»؟

«**مدفع الإفطار. اضرب**».

سمعت صوت مدفع التلفزيون المسجل وهي تعرف أن المدفع الحقيقي المسمى بمدفع الحاجة «**فاطمة**» في « **القلعة**» **قد** أصابه الزلزال بالعطب.

حتى طقوس «**رمضان**» هذه السنة قد تغيرت، بدلها الزلزال.

همست:

يبدو أن لكل منا زلزاله الخاص، يعصف بكيانه ويحوله من حال إلى حال، تذكرت حبها الماضي نحو المجهول ل «**يحيى العديسي**» الذي دك كيانها بفئة عشرة ريختر.

أذن للمغرب، أول دوامها في شهر «**رمضان**» لم تعتد بعد أن تتناول إفطارها بعيدًا عن بيتها، كافيتريا المستشفى امتلأت بصخب المعالق، وقد تعرش البعض حول التلفزيون منتظرين برامجه ومسلسلاته وفوازيره، بينما تناولت هي رشفات قليلة من الماء، قررت أن تؤجل إفطارها عندما تعود إلى البيت في الثامنة، غادرت الكافيتريا، وهي تبدأ جولتها في المرور على الحالات، مرت على الغرفة تلو الأخرى، اقتربت من غرفة «**أمير أبو ستيت**»، الخالية اليوم من مرافقيه، أمه وأبيه، كانت الأم تعاني نزلة برد وقالت إن الحاج «**أبو ستيت**» سوف يصلي التراويح وسوف يبيت إلى جواره، سمعت أزيز الأجهزة يصدر عنها، شيء ما حدث، هل استيقظ **أمير أبو ستيت** أخيرًا؟

سارعت نحو الباب، وما إن فتحته حتى شهقت في فزع، «أمير» يرقد منزوع الأسلاك، والأجهزة تصرخ، وهو جالس إلى جواره، يتصبب عرق بلا حدود، وقفت في منتصف الطريق، منتصبة كشجرة تزوم كريح الخريف، تقدم منها، حاول إسكاتها، وفزعه يغالب فزعها، وهو يردد كلمات غير مفهومة، أفلت من بين يديها وهرب، راحت تقاوم ذهولها تخلصت من وثاقها الوهمي، فحصت مريضها، التي انفصلت عنه الأنابيب والمسبار وعادت لجمودها، مقطرة في بؤرة ذهول مرعبة، لا تسمع صوى دقات قلبها تسابق زعق الأجهزة الحيوية التي تصرخ بلا هوادة.

***

في طريق بلا نهاية، تنطلق سيارتي بلا موجه، تنزلق بين الكثبان الثلجية البيضاء، أدوس على مكابحها بلا فائدة، محركها يئن، وجوه هلعة ترتطم بالزجاج، اكتشفها بعد فوات الأوان، أصدمها بلا هوادة، لا أنظر لآثارها، المساحات تعمل دون تحكم مني، تمسح الدماء عن الزجاج، يد «وحيد الزيني» هي التي تمسكها وتحكمها، تظهر من حين لآخر، عندما صدمت «علي»، ثم صدمت «صابرين»، ومن قبلهما «خلف» وزبيدة حتى أمي وأبي وأخواتي صدمتهم مرتين فقط، سيارتي التي تتجه نحو الحافة لتعانق المجهول، المكابح لا تعمل، وأنا مثقل الرأس كمخمور، مفقود السيطرة، إنها النهاية لا ريب، وفجأة توقفت السيارة على حافة المنحدر، لا أدري كيف؟ ولِمَ؟ رأسي المثقل

أخرجه من نافذة السيارة المفتوحة على غرفة صغيرة مؤسسة وأجهزة طبية ومسبار يخترق ذراعي، لا أحد بجواري فقط سرير خال، لا أتذكر شيئًا فقط كنت أجلس مع «صابرين» بعدما ألحت على في اللقاء، تقابلنا في مطعم العمارة المجاورة «فاني باني» ولكن بعد وصولها مباشرة رأيت من خلال الباب العاكس « علي السمان» يقف على الرصيف المقابل، ثم ...لا أتذكر ..لا أتذكر ...لا تذكرت قررت أن أخرج من هناك لكي أتأكد أو ربما لشرح له الحكاية أي حكاية ولكن، لا أدري ما الذي حدث بعدها، فقط رأس مثقل وجفن موسوق و جسد هزيل، صرير الباب يأتي بأحدهما أمي أو أبي ناديت ولا مجيب، الوجه يقترب مني، أتذكره أنه... لا، لا تنزع الحياة من ذراعي، لا لقد أخطأت وعليك أن تسامحني أنا «أمير» أنا «أمير أبو ستيت»، يدك تعتصر عنقي بلا رحمة، أسمع صوت عظامي تدك، تصرخ كسيارة قديمة على وشك الإقلاع، تنزلق العجلات من جديد، وتتجه مباشرة نحو المنحدر، هناك حيثما ينتهي العذاب أو يبدأ.

***

(أعلم أنها لحظة انتقام استثنائية، ولكنها أجبرتني على هذا، لا أنكر فضلها فلقد كانت السند والعون، ولكنها ظالمة، ظلمتني، حرقت قلبي وسلمت جسدي لرجل لا أحبه، أجبرتني أن أحيا غريبة في أحضان مزروعة بالألغام،

وأنا على بعد ذراعين من حلم العمر، تبعثرت دموعي عند قدميها بددًا، لم ترق لحالي، توسلت لها بعظام الأموات أن تتركني وشأني، لا «حجاج» أريد ولا حتى «يحيى»، التمست أن أبقى خادمة ليس لها بل لبهائمها، تمنيت عليها أن أذهب، أرحل، أهاجر، ولا أكون حملًا ثقيلًا يزيدها رَهَقًا).

كانت «**تها**» تنظر إلى خالتها الراقدة على فراشها ووجهها الأسمر الشاحب نالت منه التجاعيد، كانت «**تها**» تقاوم خفقات متتالية تنقر في بطنها بين الحين والآخر، ما زال أمامها شهر حتى تأتيها آلام المخاض، هل يطلقها «**حجاج**» لو أتت ببنت ثالثة؟

هل تحرضه وقتها للزواج من أخرى؟

(لا أنسى نظرتها وهي تتمتم أن ابنة اختها تفضل خدمة البهائم على خدمة ابنها الأكبر، لم أقصد هذا ولم أجرؤ، حتى «يحيى» لم يستطع المواجهة هاجر إلى مصر وتركني هنا، لا حول لي ولا قدرة، قتلتني الحاجة «فهيمة» بقرار لا رجعة فيه، مزقتني بلا مخدر، كرهها في قلبي خالص لا تشوبه شائبة، صافٍ مثل ماء النيل، قاتل مثل سم الثعبان، نعم الثعبان، حتى عندما تحب يتعلق قلبها بثعبان، لو كنت أعلم أن قتله سيؤلمك يا حاجة فهيمة كنت قتلته بالفعل أمام عينيك ألف مرة، تعالي يا يحيى لترى قلب حبيبتك «تها» أصبح فارغًا، مختوم بطلسم فرعوني عسير الفتح صدئ الرتاج، أنت آخر من دخل في جنباته).

بدلت «**تها**» الكمادات التي تعانق جبهة الحاجة «**فهيمة**» وهي تئن في صوت مكتوم، ونقرات بطنها المتكورة تمنعها من الحركة بسهولة، أعانها «**حجاج**» ولكنها سحبت يدها في سرعة.

«**أحيا**».

صارت الحاجة «**فهيمة**» في مرضها لا تنادي سواه، تنهد «**حجاج**» بعد أن لازمت أمه الفراش على غير عادتها، هل موت الثعبان المها إلى هذه الدرجة أو أنها شعرت إنه أصبحت عديمة القيمة؟

لا يدرك «**حجاج**» لماذا اعترفت «**تها**» كذبًا بأنها هي القاتلة؟

أخبرها أنه تأكد من الكاشف بوجود مقبرة، وأن بابها واضح المعالم تمامًا كما قالت الحاجة «**فهيمة**» عند الناحية القبلية، ولكنه نصحه بقتل الثعبان، حتى لا يتهمها الجميع بالجنون، نعم إنه على حق، تمتم «**حجاج**»، لا مفر من قتل الثعبان وقتها يدعي أنه هاجم الشب الصغير قتله بالفعل بلا عناء.

أحيا انت جيت يا وليدي.

درجة الحرارة تزداد وهي ترفض الإفطار، قالت لو ماتت فستذهب صائمة، ولكنها بدأت تهذي وتنادي «**يحيى**»، اضطربت «**تها**» لسماع الاسم، وربت «**حجاج**» على رأس أمه وأشفق عليها وكاد أن يعترف لها بذنبه ويطلب

منها العفو فهو لم يعتد أن يراها بهذا الضعف، زاغت عيناها وهي تنظر إليه، وهمست له:

- **افتح الباب لخيك يا «حجاج»، متقفل بابك في وشه.**

حاول أن يُهدئ من روعها ويطمئنها، وأنه سوف يتصل بأخيه بعد أذان المغرب، وسيجعله يأتي في أقرب وقت، ولن يتركه يرجع إلا بعد العيد أو لا يرجع «**القاهرة**» أبدًا ،ويشيد له المستشفى كما وعد من قبل هنا في «**الشراونة**» أو في «**إدفو**» كما يريد.

رفعت رأسها من فوق الوسادة وساعدها «**حجاج**».

- **ادخل يا وليدي.**

شهقت «**تها**» في قوة، وزر «حجاج» كتفيه بعدما سمعا طرقات ثلاث على الباب ووجه «**يحيى**» يطل من خلفه.

***

- **كل شيء نصيب.**

تذكر كلمات «**خلف**» القاسية وقد دكت قلبه دكًّا، لقد رفضته «**زبيدة**».

كان رفضها قاسيًا، جلس أمام بوابة المستعمرة وقلبه ينفطر وعيناه لا تبرح طيفها الذي يمر أمامه، ابتسمت له مرة، دق فيها قلبه دقة واحدة لا ينساها،

ولم يجد عنها مصرفًا، رفضته بعدما امتلأ قلبه بالسكينة إنها أصبحت خطيبته، لم يفزع هكذا من قبل، أخبره «**خلف**» ان الزواج قدر ومقسوم، لا يعرفه ما الذي يعيبه، حتى موضوع الشقة فقد حلها عمه «**عوض**»، تبعثرت أوراقه، وجفل قلبه، تنازعت في عقله الوساوس، ترى هل عمه هو السبب؟

لعن نفسه ألف مرة، يا له من شيطان ذلك الذي يجوب جنباته ويتسكع بين خلاياه، وبصوت عال، استعاذ بالله من الشيطان، لم يلحظ تلك الفتاة التي توقفت أمام البوابة، تحمل حقيبتها بكلتا اليدين، ورأسها معلقة إلى أعلى، مصوبة نحو اللافتة «**مستعمرة الجذام بأبي زعبل**»، وكمن باغتها وجوده تقدمت منه خطوتين في تردد سألته عن عم «**عوض**»، قال لها إنه بالداخل وسيعود حالًا، ارتبكت ثم أومأت برأسها، قام «**حمودة**» من مكانه وجلست بدلًا منه على الأريكة الخشبية ولم تكن سوى دقائق حاول فيها عصر ذاكرته أين رأى الفتاة؟

ابتسم شيء ما داخله لقد بات يشغل نفسه بعيدا عن ذكرى عينيها، قلبه ينفصم عندما ينظر داخله فلا يرى سواها «**زبيدة**».

«**زمزم**».

قالها عم «**عوض**» عندما رأى الفتاة.

تذكر «**حمودة**» صاحبة الاسم المميز، ولكن ما الذي أتى بها إلى هنا؟

ولماذا تأتي بحقيبتها؟

جمعهما تعارف موجز، وحزن مستتر.

دخلت «**زمزم**» المستعمرة وفي قدميها ثقلي رمل، وجسمها كومة لحم مرتعد، تجولت بين وجوه المرضى حتى وقفت بين يدي السيدة «**عفاف**» كبيرة الممرضات.

أمارات الخوف تهرس ملامحها الجميلة، تمنت لو ألقت نفسها الآن بين ذراعي أمها، بعدما غشيته السكينة بفضل «**سليمان**» **الصغير** كل ما يملكه «**أحمد منتصر**».

***

لقد ذهبت نفسه هدرًا، مطاردًا شريدًا مهددًا، سجينًا محتملًا بين لحظة وضحاها، وأب يحمل ابنه فوق ظهره، لا أم له ولا أهل، اليتم يتم الأم، فهي تصلح أن تعوض الأب، أما الرجل فهو أعجز حتى أن يتم دوره، انه يبحث عن الأم أيضًا، هو طفل كبير آخر، رحمك الله يا «**غالية**»، تمتم بحروف متقطعة، ترى هل لم يحسن التدبير؟

لم يسمع نصيحة صديقه «**عبد الله فؤاد**» وحشر نفسه في كهف مجهول تسكنه الأفاعي، هل قضى على مستقبله عندما قرر أن يكون «**سليمان خاطر**» آخر؟

يحمي حدود الخير، ويصون ثغر الصلاح، ويعيد الحق لأهله؟

منذ هروبه من «**أكياد**» قبيل القبض عليه، ما اكتحل جفنه بغمض، ولا طعم منامًا.

الخطر ينتظر عند بابه، ولده الوحيد بلا أم، مستقبله هائم خلف الضباب، كل هذا تناساه، تغافل عنه، صدق للحظات أنه زرع غرسه في أرض جديدة، توسم واهمًا أن لقلبه عليه حقًا، تركه فتمادى، سمع دقاته فهوى، خنع له بالإذعان، ولما سمعت «**تحرير**» بالحكاية انسحبت وتركت حطام قلبه يشقى بتقريع الذات، دهسه التفريط في قناعاته والإفراط في أوهامه، تمنى فقط لو صارحته، عمدت أن تبتعد بلا وداع، لم تنبس بكلمة، لا يلومها، فقط تمنى.

جلس وحيدًا في الدكان ما بين العطارة والبقالة، بعد سفر عم «**طه**» وزوجته، الذي قرر أن يتمرد على غربته، قرر أن يعود إلى «**كفر صقر**» يقيم عقيقة ولده هناك، بين أهله الذين خفضوا قدره وطمعوا فيما ملك، شد الرحال إلى هناك.

بصر في عينيه فرحة لم يعتدها، كأنه وليد مبشر برؤية أمه بعد سنين التيه.

و«**سليمان**» الصغير وجد في السيدة أم «**زمزم**» خير بديل لأمه التي انشغلت عنه السيدة «**زينات**»، وأصبح لا يتركها إلا نادرًا.

رأى «**حمزة**» أمامه عائدًا من المدرسة، أعطاه خطابًا واردًا لأخيه «**علي**»، في السابق كان ينتظر حتى يرى «**تحرير**» ويجد في الجواب حجة أن يكلمها.

لم يلحظ أنها ترقبه من هناك، من بين فتحات النافذة عندما يظهر خارج الدكان، تعرف أنه يظلمها، يظن أنها انسحبت، ولم تلوِ على شيء، لا يعرف ماذا حدث؟ وأنها باتت قاب قوسين أن تكون زوجة «**علاء فوزي**».

فتحت الباب لـ«**حمزة**» العائد من مشوار مهلك، وجهه محتقن الاحمرار، وشفتان ظامئتان إلى حد بعيد، على الرغم من برودة الجو في «**رمضان**» الشتاء كان يتصبب عرقًا، جلس على الأريكة، وألقى كتبه، كانت السيدة «**نجاة**» تقف في المطبخ، رائحة الحلويات الشهية التي تصنعها تسيل لعابه، استعاذ بالله من الشيطان ودخل إلى أخيه، لا يعرف أحد سوى «**تحرير**» أن أمهم تصنع الحلويات بالاشتراك مع السيدة «**رزة**» التي نجح مشروعها وزاد عليه الطلب مع موسم «**رمضان**»، فتشاركا، أخفت على الجميع الحقيقة.

«**نجاة**»... الوقت يعصف بها، أيام قليلة وتغادرها «**تحرير**» إلى ليبيا، تجهزها بجهازها، لن تسمع كلام «**علاء فوزي**» وتأتي زوجته بما قل، لن ترضى أن تحيا ابنتها مكسورة ذليلة أمام زوجها، باعت ما أخفت من حليها، وما كنزت لذلك اليوم، وما تكسب من بيعها، لتجهز ابنتها خير جهاز، وعندما تعود «**تحرير**» مع زوجها بعد سنة أو اثنتين، تكون «**نجاة**» وقتها قد

ادخرت ما يلزم لفرش شقة ابنتها، تنهدت «**نجاة**» وهي تحمد الله حمدًا كثيرًا، لقد منحها القدر سنة مضافة، الله رحيم بعباده.

جلست «**تحرير**» تحضر طعام الإفطار ودموعها تسبقها، كلها أيام وتذهب بعيدًا إلى بلد غريب، وغربة دائمًا في أحضان رجل لم يدق له قلبها، قلبها التي لم تأمل منه ميلًا، ولم تلمس منه هوى، وعندما حضرها الحب على قدر، جاء متأخرًا، ومن دق له تسكن روحه المعاناة، دهسته الدنيا وما زالت.

لم تدرك «**تحرير**» وقتها أن «**أحمد منتصر**» لم تنتهي معاناته، وربما لم تبدأ بعد، لمحته أخيرًا خارج الدكان مع أحدهم، توقفا على مقربة من مبنى الكهرباء، ألقت عليه نظرة طويلة، لم تدرك وقتها أنها نظرتها الأخيرة، وأن «**عبد الله فؤاد**» صديقه جاءه يسعى، يحذره قبل فوات الأوان.

***

«**بسم الله. الله أكبر**».

قالها «**طه**» وهو يذبح العجل الثاني الذي أصدر بدوره خوارًا مميزًا بعدما كُبلت أطرافه بحبل سميك خشن، شل حركته، ولم يستطع المقاومة والهرب، فاستسلم وسط صيحات الأطفال ونظرات المحتاجين من قريته «**تليجة**» إحدى قري «**كفر صقر**» شرقية، انطلقت الزغاريد وغمس «**طه**» كفه في الدم ورفعها إلى أعلى ثم لصقها على الحائط الطيني لداره التي فتحت

أبوابها الخشبية على مصراعيها بعد أن أُوصدت لسنوات وجلس الرجال على الأرائك الخشبية التي تشكلت على شكل مربع ناقص الضلع، جلس بينهم «**طه**» ونظرات الانتصار والظفر لم تغادر عينيه اللتين جالتا بين الوجوه تتفحص نظرات الرضا وإن قلت، وتتسمع شهيقًا ملتهبًا يفور من صدور كثر، ما احتفت نظراتها بعودته، والمولود الذى أتى غير مرحب به، وقد أتت بشارته على ما تبقى من أحلامهم، وإرث محتمل بات على بعد رمية حجر، احترقت أحلامهم بقدوم «**يحيي**» كما احترق عرش «**فرعون**» بقدوم «**موسى**»، هنا عبر «**بحر مويس**».

وانشغل الجميع في بعثرة الحكايات عن الزلزال وما أصاب الناس، ولطف الله مع البيوت الطينية.

وحكاية البنايات الإسمنتية التي تساقطت كالذباب في مصر.

وابن عمه الذي وجدوت جثته بعدما خطفته جنية «**بحر مويس**» عندما كان يلعب الكرة مع أقرانه ليلًا فأطاح بالكرة في الماء، وعندما نزل إليه خطفته ولم تعِده إلا بعد أيام ثلاثة، جثة هامدة.

وعند ذكر الكرة تحسروا على مباراة «**زيمبابوي**» والطوبة التي ضيعت حلم كأس العالم، وعرج حديثهم إلى **طه** وكرم الله وفضله عليه بعدما أنجب بعد هذا العمر، تبادل أهالي القرية الأسئلة والأجوبة التي لم تخلُ من خبث،

بينما انشغل البقية بصوت معدتهم التي اهتاجت بالرائحة القادمة من داخل الدار التي تشي بإفطار شهي فاخر، وقطع مميزة من اللحم، وظل آخرون يدندنون بأغنيتهم المفضلة عن «**بحر مويس**»:

«**على بحر مويس يا شرقاوي، وناداني البحر وانا ناوي**»

بينهم ذكرهم قلة إننا في «**رمضان**»، فليبتعدوا عن اللغو ويذكروا الله.

وداخل الدار اجتمعت نسوة القرية حول «**زينات**» وولدها التي أخفته عنهن قدر الإمكان، والتأكيد أن حياتها معًا كانت على المحك، فقد ولدت وقت الزلزال، شعرت وقتها أن الأرض تميد بها وحدها، ولكنها اكتشفت أن الأرض كلها تئن لمخاضها، وأن الصفراء كادت أن تودي بحياة «**يحيي**» لولا فضل الله وأولاد الحلال.

كانت «**زينات**» **تبدو** متأنقة شابة في مقتبل العمر، دارت خطى الكحل حول عينيها، وأكملت استدارت وجهها بحجاب وردي مطرز بخرزات زرقاء لامعة وحظيت بشرتها بلمعان واضح بعدما حرصت بترطيب بشرتها بكريم «**نيفيا**»، وتسابقت النسوة في سؤالها عن الأحوال في «**القاهرة**»، وقربها من أولياء الصالحين، لم تقل لهم إن «**مدينة السلام**» أقرب لـ«**الشرقية**» من «**القاهرة**».

اقتربت منها إحداهن وهي تتصنع أنها تمسح فوق صدرها وهي تتلمس الكردان الذهبي الذي يطوق رقبة «**زينات**»، قبلتها السيدة ولامست قدم

الصغير وهمست أنها تحمد الله أن ابن عمها «**طه**» رزقه الله بالولد منها دون الساقطة التي ربما أتت بولد من سفاح لينال الخير كله، ازدردت «**زينات**» ريقها ووخزة غامضة أتت إلى قلبها على ذكر «**سميحة**» زوجة «**طه**» السابقة، وكأن المرأة التي رسمت بسمة خبيثة على طرف شفتيها أصابت جملتها في مقتل، ذكر «**سميحة**» كفيل بتكدير أي فرحة، ولكنها أردفت قبل أن تقوم وكأنها تلقي كلمتها الأخيرة كواعظ:

إن الحرام لا يدوم ويكفيها أنها طردت من القرية فقد خشيت النساء على رجالهن بعد فضيحتها، وباتت منبوذة في قرى «**كفر صقر**» تعيش على الفتات بعد أن ضاع جمالها مع وسخ السمعة، أما هي «**زينات**» فهي السيدة وأم الولد، كلماتها بطيئة نافذة فتحت جرحها قطبة بعد قطبة، تماسكت «**زينات**» أو جاهدت، تتخطى الماضي بآلامه، انتشرت النسوة فجأة قبيل الأذان وجدت «**زينات**» نفسها مع وليدها التي احتضنته في قوة، وأفلتت منها دمعة حزينة محبوسة، وتصاعدت أبخرة حامية إلى حلقها، لم تكن مصيبة تمامًا في رأيها أن تكون العقيقة هنا فقد باتت تشعر بالغربة في أعين الأهل، افتقدت نظرات الحميمية، وحلت محلها نظرات الحسد، فطنت أخيرًا لتردد «**طه**»، ربما اعتقد ما قد يحدث، ولكن عناد الأنثى يأبى عليها الاعتراف لقد أصرت أن تأتي إلى هنا، وتقضي أسبوعًا كاملًا، تعلل «**طه**» بالعمل، وأن الحمل سيزيد على «**أحمد منتصر**» ما بين العطارة والبقالة وولده الصغير، ولكن رغبتها الدفينة

في لحظات انتصار أنثوية متكبرة، عليها أن تتحمل المضايقات وتتخطاها وتهنأ بهذه اللحظات الاستثنائية اقتربت من الشرفة تحمل وليدها فوق قلبها بعد أن مسحت دمعة سوداء لوَّثت وجنتها وحاولت أن ترسم بسمة فوق شفتين خائفتين من المجهول .

***

كانت أمارات الخوف لا تغادر ملامح «**ماريا**» وهي تسمع أزيز المنشار الكهربائي طمأنها الطبيب الجديد في مركز «**التوحيد**» الطبي أنه برغم الضجيج الناتج عن المنشار الذي قد يكون مزعجًا، إلا أنه آمن تمامًا، إذ يتميز المنشار بأن شفرته أمنه وتجنب إصابة الجلد إذا وصل السلاح إليه في أثناء فك الجبس.

ابتسم لها «**عبده**» في تحنان، وهو يكتم آلامه، التي زادت أكثر من آلام الكسر نفسه، لم تمر دقائق وانتهى الطبيب من فك الجبس، حاول «**عبده**» أن يمشي على قدمه، ولكنه وجد صعوبة فائقة، حذره الطبيب أن قدمه لم تعد لطبيعتها بالكامل، وعليه أن يتعافى جيدًا، أومأ برأسه إيجابًا واستند إلى كتف «**ماريا**»، وخرج من المركز الطبي ليجد «**إسلامًا**» و«**تريزا**» قد بدآ في نصب الحلويات على العربة قبيل صلاة العشاء، استقبلته «**تريزا**» بلهفة، واطمأنت على ساقه المصابة، ووشت «**ماريا**» بنصائح الطبيب الجديد، استوى على

المقعد الوحيد يقاوم ألم ساقه، رفض أن يرجع إلى البيت، بحجة انتظار عم «**جداوي**» الذي يعلم بموعد فك الجبس، وتواعدا هنا، كان في الحقيقة يفتقد الشارع والهواء الطلق ، كما أفتقد ليالي «**رمضان**» في «**حلوان**»، أفتقدها ك «**ريمون**» كان وقتها يسهر مع أصدقائه مسلمين ومسيحيين على مقهى «**السكرية**» حتى مطلع الفجر، وبعد إسلامه لم يذق رمضان «**حلوان**» قط فقد دقت غربته أجراسها.

نظر إلى ساعته وتبادل نظرة إعجاب متبادلة مع ابنه، المنسوخة ملامحه من وجه أبيه ثم استقبله بين ذراعيه، ابتسمت «**تريزا**» ومنحت زوجها طبق مزيج من الحلويات الشرقية، تذوق إحداها وترك البقية، أطرق «**عبده**» رأسه هنيه ثم سألها عن الميكروباص، أخبرته أن عم «**جداوي**» يتولى الأمر منذ شهرين، لم يجب «**عبده**» الذي شرد ببصره بعيدًا، إصلاح الميكروباص لا يستدعي كل هذه الفترة إلا في حالة واحدة أن عم «**جداوي**» لم يجد المال الكافي؟

هل حمل الرجل أكثر مما ينبغي، أذن بالعشاء، دخل «**عبده**» المسجد مستندًا إلى ولده، لقد تأخر «**عم جداوي**»، صلى جالسًا، تحامَلَ على نفسه حتى أدى ركعتين من صلاة التراويح، خرج من المسجد ليجد أمامه الحافلة صارت كما كانت من قبل، لها في القلب مكانة تناهز حبه للحياة، وخلفها كان يجلس عم «**جداوي**» وآخرون اقتعدا مقعدين أتى بهما «**إسلام**» من المقهى المجاور،

آخر من يتوقع أن يراهم، حدق بعينيه في ذهول ما بين «**ماجد**» وعم «**ملاك**» المعروف باسم «**الأوسطي استوبينه**»، تجمدت ساقيه في مكانهما، غرس كرمح أفريقي، وعيناه تتعلقان على «**تريزا**» التي جلست على قرميد الشارع تقبل قدم خالها، اقترب منهم غير مصدق، ودموع عم «**جداوي**» تسبقه. اقترب منه «**ماجد**» واقتربت منه كل الذكريات الحلوة، واستقبله «**عبده**» بين ذراعيه.

***

«**علي**»....

لقد مات أبي.

مات كل ما أمتلك من الدنيا...

مات وحيدًا غريبًا ...

مات قبل أن أودعه وأقبل رأسه ...

سمعت صوته لآخر مرة يناجي ربه يقول في أنفاس متقطعة:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾.

لم يصدر له صوت بعدها، قال الأطباء إن حالته أصبحت مستقرة، ولكنه لن يتكلم قط، كان يدعو قبلها أن يبلغه الله شهر «**رمضان**»، كان ينوى

الصيام رغم كل شيء، ذهبت إليه وأبلغوني أنه مات ودُفن، هكذا ببرود أوروبي كريه، دفنوه بلا غسل ولا صلاة، دفنوه في مقابر غير المسلمين، لم أبكِه حتى الآن، لن أبكي حتى استعيده كما وعدوا.

كم أنا وحيدة هنا! نورس وحيد يرحل عكس اتجاه الريح.

سألتني مرة عن الغربة، الغربة يا **علي** ليست غربة الحياة بعيدًا عن الوطن، الغربة هي أن تموت بعيدًا، وتُدفن في تراب آخر، أبي لن يبقى غريبًا سيدفن كما أوصى مع أبويه في «**الناضور**»، ادعُ لي في صلاتك.

ليلى

«مليلية المحتلة»

***

إنه في يوم الإثنين الخامس عشر من مارس لعام ١٩٩٣ قررت النيابة حبس المتهم «**خلف صابر جاب الله**» «خمسة عشر يومًا على ذمة التحقيق، وتأمر بتشريح جثة «**أمير محمد أنور أبو ستيت**» لتحديد سبب الوفاة».

الفصل الأخير

كان يتمايل حول الطاولة في جذل، راقص تانجو عظيم التمكن، طائر أسطوري تائه من بلاد الهند، «**جارودا**» من كتب الأساطير، نصف إنسان ونصف طائر، يملأ الحجرة بحضوره، يلتف حول الطاولة كلاعب بلياردو محترف، والمشرط في يده ينتظر طلقة الانطلاق، سلط الأضواء على الجثمان العاري، كانت البقع الدموية حول الرقبة أول ما فحص، حجمها يكاد لا يذكر إلا من كدمات محدودة المساحة، منتشرة على جانبي العنق، حول منطقة الحنجرة وأعلى القصبة الهوائية، يعلم أنه مات خنقًا، تمتم بابتسامته الغامضة، «**ولكنه ليس بالضرورة**» حتى قاتله لم يعترف بجريمته، ولا سبب وجوده ولا حتى سبب هروبه من الطبيبة، الأمر كله الآن بيده، كان يدندن بأغنية جديدة لـ«**حسن الأسمر**» ويقطعها فجأة و يكتسي وجهه بجدية مفاجأة غير معتادة على ملامحه، الآن فقط يأتي الانتصار، الغلبة للضاحك الأخير.

كان يترنح بين قدسية اللحظة وغواية الانتقام، الآن يرقد أمامه جثة هامدة باردة، بفم فاغر، ووجه شاحب، وبطن ضامر وعورة مكشوفة تنطق بالخزي.

تمتم في ازدراء مكتوم: الآن يأتي عم «**عياد**» يغسلك بماء كالمهل، يزينك ويجملك حتى تُزف إلى التراب.

الغربة هي الموت في تراب آخر.

كانت كلمات «**ليلى**» الإسبانية التي يراسلها «علي» نقلًا عن الأخير، معلقة في ذهنه، أعجبته الجملة وصار يرددها في كل وقت، ظنه «علي» يسخر منه، ولكنه أقسم أنها الحقيقة، الجملة اخترقت جمجمته وسكنت فيها ولا يجد لها مخرجًا.

خدمه القدر أن ينفرد بجثمان «**أمير أبو ستيت**»، د. «**عطية**» أرهقه الصيام، الصيام عن التدخين، بعيدًا عن السيجارة يتحول عندئذ إلى كائن عصبي مفقود التركيز، أثر أن يقتل الوقت بالنوم، تمدد فوق الفراش الحديدي الصدئ، توسد الأكفان خير من الوسادة القطنية المتسخة، وانطلق شخيره يدوي في مساكن «**زينهم**» كلها، أقلق ما بها من أحياء ومن أموات، وترك أمر الجثة إلى «**سيد عزوز**» تلميذه النجيب.

مرر «**سيد**» مشرطه في رأس «**أمير أبو ستيت**»، سمعه يتألم، الأموات تشعر بكل شيء كما قال عم عياد، الآن فقط يؤمن بنظريته ، لا يهم، هذه الرأس داومت على التفكير في إيذاء الناس حتى أقرب الأقربين، بدء بقطع فروة الرأس من الخلف وكسر عظام الجمجمة التي تمنى تحطيمها ألف مرة، استخرج منها «**المخ**» الذي تأمر، وخطط ودبر، ثم شق من أسفل الذقن إلى

أسفل العانة ثم فتح الجدار الصدري والبطن لفحص القلب الذي وجده مختومًا بطلسم شيطاني مسحور، كان يمرر مشرطه في كل شيء، وكأنه يود أن ينال من كل جزء، يمزق خلاياه ويغرس غله في مسامه، أفرغ محتويات المعدة لتحليل المعمل الجنائي ثم خاط الجثة مرة أخرى بعد أن جاس في بقاعه، انتهى منه وهو يشعر بالفخر والزهو والانتصار، لم يتبق إلا التقرير الذي تنتظره النيابة، حضر الأوراق المطلوبة، دخل إلى الغرفة المجاورة، شخير «**د. عطية**» معزوفة عالية النشاز، هزه برفق، ثم بقوة، بعث «**د. عطية**» من نومه فزعًا، عيناه كرتان من لهب، تثاءب حتى بانت حنجرته.

المغرب أذن!

هز «**سيد**» رأسه بالنفي وتمتم ما زال نصف ساعة أخرى، وقبل أن ينفعل عليه الطبيب، أبلغه أنه انتهى من الجثث كلها، لم يتبق سوى توقيعه فقط، جلس «**د. عطية**» على طرف الفراش، وهو يعد الدقائق يتلهف للقاء سيجارته الأولى، منحه «**سيد**» القلم ووقع على جميع الأوراق، حتى جاء تقرير «**أمير أبو ستيت**» ووقع «**د. عطية**» باسمه تحت جملة طويلة تنتهي بعبارة:

«**الوفاة طبيعية**».

لم يلحظ البسمة الساخرة التي غزت وجه «**سيد**» وتمددت بين أذنيه، ابتسامة ذئب نال أخيرًا من فريسته.

***

كانت الجدران المطلية بالزيت في بيت «**محمد أبو ستيت**» تريد أن تنقض من فرط الألم.

بعد موت «**أمير**» وربما قتله، بيد الرجل الذي أنقذه من قبل، والفترة ما بين الإنقاذ والاتهام، كان «**أمير**» نفسه في غيبوبة، جريمة لا تأتي بخلد أحد، والجثمان لم يطلق وثاقه حتى الآن، حتى احتجازه للتشريح زاد القلوب وجعًا.

تحملت الجدران صرخات الحاجة «**تحية**»، ووجع الفراق، واحتراق أم مكلومة، ضاع ابنها بعد دنو الأمل، صفعت وجهها توجعًا وحسرة وعقابًا وجزاء لما فرطت، وأسرفت في التدلل، فقدت وعيها مرات، تفيق وهي تناجيه، كانت تدعوه، ترجوه أن يعود، أن يُطفئ ما في قلبها من حرقة، وما في عقلها من شتات.

أما الحاج «**محمد أبو ستيت**» فلم يبكِ ولم يصرخ، سكت حتى ظنوا أنه جبل صلد، بنت الغربة بينه وبين قلبه سدًّا، ما استطاع موت ابنه له نقبًا، وربما كان صابرًا مؤمنًا بالقضاء وأصلح الحج والعمرة باله، وربط الصلاح قلبه، ومنهم من انتظر أن يتكلم، أن يشكو، أن يهذي، أن يحمد ويشكر، لا شيء، سوى الصمت المطبق، وبعدها كان السقوط، الانهيار التام، جلطة دماغية تجمدت، أخذت في طريقها يده وقدمه ولسانه، انهار كطود عظيم، غشيه الألم، أصابعه التي تغزل بها الجميع، تخترق المسافة بين الجلد واللحم

في دقة جراح ماهر، وحساسية عازف بيانو، أصبحت مشلولة عاجزة، إرث السلاخة الذي ورثه «**محمد أبو ستيت**» عن أبيه وأجداده، ولن يورثه أحدًا، فقد مات الوارث الوحيد، وانتهت عائلة «**أبو ستيت**» بلا عقب. تحلقوا حول الفراش، كان «**إبراهيم عرفان**» يقف بقامته القصيرة مرهق الفكر، شارد البال، معقود الحاجبين و«**زينهم السمان**» بردائه الرمادي، ووجه شاحب محتقن الإصفرار، وقد تقوَّست قامته.

اطمأن انه خلد إلى النوم لم يسمع كلمات «**إبراهيم عرفان**» المشجعة ولا مواساة «**زينهم السمان**» **وطمأنته أن** «**سيد**» **و**«**علي**» هناك في ال.... لم يقل المشرحة، فقط قال إنهما يتابعان الإجراءات من كثب وساعات ويكون ال.... لم يقل الجثمان، ولم يقل «**أمير**» بينهم.

انسحبا وتبعهما «**وحيد الزيني**» وركضه الهستيري خلف «**إبراهيم عرفان**» مما أثار حفيظة الأخير وقد ضاق صدره.

خلاص يا وحيد ميعادنا بكرة الصبح روح خد مراتك واستنوني بكرة عند الشهر العقاري.

لم يراع «**وحيد الزيني**» الموقف ورسم على وجهه ابتسامة، وانتظر قليلًا وكأنه يستوثق من أمر ما، أومأ له «**إبراهيم عرفان**» إيجابًا بانكسار لا يغيب على أحد، وتمتم بعد أن بخع له بالطاعة أنه سيقابله غدًا في التاسعة صباحًا، لم

يفت «**وحيد الزيني**» أن يلقي نظرة أخيرة شامتة على الجميع، تلقفها «**إبراهيم عرفان**» بقلب حزين.

نظر «**زينهم السمان**» في تساؤل بينما هز «**عرفان**» رأسه ودموع تائهة تغزو عينيه.

هكتب الدكان باسم «رحمة».

قالها بلا طيب خاطر، تفهم «**زينهم السمان**» معاناة صديقه الذي آثر حياة ابنته وعودتها الى ذلك الوغد نظير الدكان الذي يمتلكه، ومهنته التي لم يهجرها رغم التطور، حتى أصبح «**مكوجي الرحمة**» من علامات شارع «**المبتديان**».

افترقا وفي حلق كل منهما غصة.

لم يعد «**زينهم السمان**» إلى «**مدينة السلام**» ولم تعد له القدرة على السير استقل الأتوبيس حتى شارع «**القصر العيني**»، رصد طريقه بعناية، طمأنه أن الليل واحة الخائفين، لا أحد من زملائه في الجوار، ألقى ببصره إلى السماء، لم يعد أمامه ملاذ، استقبله الرجل بترحاب فلم يكن اللقاء الأول، وتواعدا ألا يكون الأخير، ما دام في صدره قلب ينبض، تمدد أمامه فوق الأريكة الجلدية، بعدما شمر كم السترة الرمادية، كاشفًا عن ذراع غزته الثقوب، مائل للزرقة، اقترب منه الرجل ذو المعطف الأبيض وغرس إبرته في وريده.

***

دارت عينا «**طه**» بالدار التي خلت من زائريها لأول مرة منذ أيام، ولم يتبق سوى زوجته التي شحب وجهها كثيرًا بفعل الإجهاد، هو نفسه يشعر بعظامه، وقد دكت دكًّا بعدما غالبته النشوة، ورقص وتمايل على أنغام المزامير.

الدار نفسها تهيج ذكرياته حلوها على القلة ومرها وما أكثره. «**زينات**» دهمها التعب وصوت شخيرها ينافس نقيق الضفادع، ترقد وهي تحتضن وليدها، وكأنها تتشبث به كطوق نجاة.

وبرغم تعبه فإنه لم يهنأ له رقاد، ولم يغمض له جفن، انسحب نحو النافذة التي تطل على السماء الواسعة الصافية، حمد الله كثيرًا، وسع فضله، نسمة هواء عليلة دعته للخروج، ألقى نظرة على الأم الصابرة والوارث القادم من أقصى منحدر القنوط، خطى «**طه**» بجلبابه الواسع عتبة الدار التي أوصدها خلفه ومر بخطوات بطيئة بين الحقول وأشجار الكافور والحنين إلى كل شيء لم يتبدل كثيرًا من خمس سنوات، ذاق فيه همَّ الاغتراب، تناسى في لحظة حنين قلوب غلف، قست عليه وعلى زوجته، وتذكر اللحظات الخالية من دنس المصلحة، تمنى لو عاد بينهم ويربي «**يحيى**»، بين أعمامه وفي أرضه وأن تنتهي فترة الحقد وما قد سلف بعدما نزغ الشيطان بينه وبين إخوته.

تنهد بغصة، وخرير الماء في بحر «**مويس**» يشق سكون الليل.

وفجأة حل الظلام الدامس، لقد انقطعت الكهرباء عن الناحية، طبيعي هنا في الأرياف، لم يتذمر فضوء القمر يكشف كل ستر، هنا في «**تليجة**» هنا مرتع الصبا والشباب هنا كان يتسابق مع الأصحاب على عبور الماء، لم يخش الهزيمة ولا الجنية التي كانوا يزعمون، وقتها عندما كان لا يخشى شيئًا، أما الآن فخوفه على مستقبل وليده سيجعله أكثر حرصًا، عندما يعود سوف ينقل تجارته إلى مكان آخر بعيدًا عن تهديد «**أشرف الخواجة**» سوف يعتذر من «**أحمد منتصر**» المطارد ويرحل بزوجته وابنه ليزرع أحلامًا جديدة في مكان آخر، يتمنى أن يكون هنا ..هل تقبل «**زينات**»؟ يتمنى. أقبل على الجسر الخشبي ليعبر إلى الجانب الآخر شيء يدفعه ليرى كل «**تليجة**» في ذات الليلة كان يغني:

على بحر مويس يا شرقاوي، وناداني البحر وأنا ناوي.

وفجأة. شعر بخطى مسرعة ويد تدفعه دفعًا في الماء وضحكة أنثوية شريرة ورآها قبل أن يصطدم بالماء لم تكن جنية بحر «**مويس**»، **كانت** شيطانة الإنس تتربص به الشيطانة التي نالت منه مرتين.

***

شق صراخها الظلام الدامس الذي لف المكان، حمل «**حجاج**» «**الكشاف**» وخرج متوترًا إلى خارج الدار التي أمست غارقة في ظلام حالك، لقد أظلمت «**الشراونة**» كلها ربما تأتي الكهرباء أسهل عندما تنقطع كليًّا، وقبل

أن تستمر هدأته، أطلقت صرختها التالية، لقد أتاها الطلق، انتزعت «**يحيى**» من سكونه وهدوئه، صوت «**تها**» شق السكون، تردد قليلًا، الحجرة غرقى في الظلام، تحسس طريقه، حتى ظهرت أمه أمامه فجأة، كانت بدأت في التعافي لولا هزال أصاب جسدها، رأى عينيها في الظلام دوارتين كساحرة أمرته أن يولدها، لا يعرف هل نطقتها بالفعل أو بعثتها إلى عقله؟

تعرق «**يحيى**» وخشي أن يفضحه كشاف «**حجاج**» الذي اقترب، الذي فشل في استدعاء القابضة، صرخات «**تها**»، والطلق المبكر في شهرها الثامن، حسما الأمر، دخل يحيى غرفة أخيه لأول مرة، تقدم منها، اقترب من فراشها، لم تصرخ بعدها، نسيت في وقتها ألم المخاض، النقرات تزيد، باتت تتصبب عرقًا، اقترب منها في تردد متشجع بوجود أمه، الظلمة لم تدارِ الكثير.

ياللا يا دكتور.

أعادته الحاجة «**فهيمة**» إلى واقعه كطبيب، تحركت معه كفتاة في مقتبل العمر، ساحرة تأتي له بما يريد في غمضه عين، لم تعوز كشاف ولا داعم، ولم تشكو تعبًا ولا نصبًا، و«**تها**» تتشبث بيدها من الوجع، وفي عينيها ألف اعتذار.

نسي «**يحيى**» كل شيء إلا إنقاذها وجنينها، صرخت هي عندما لمسها صرخة واحدة قاسية، زاد في نفسها المعاناة، الحالة تبدو صعبة، تخور قواها

شيئًا فشيئًا، جاهَدَ أن تبقى معه، رأس الجنين تريد النجاة، وقلب «**حجاج**» كطبل الحروب يوقظ دانتيلا خوف منسي، حتى سمع صراخ الولد وفرحة «**سعدة**» التي هبطت من السماء وقت البشارة.

ولد.

صوت الحاجة «**فهيمة**» يشق السكون، وكفى «**حجاج**» تطوقًا وجه أخيه الذي انسل من بينهم وتوجه إلى غرفته، مدعيًا التعب، و«**سعدة**» دمية صغيرة في حضن أمها تسأل عن اسم الولد كطفلة كبيرة، وحجاج مشتت النظرة غير مصدق، لم يفكر كثيرًا فقد حسم أمره.

سلامة.

لا تجزم «**سعدة**» إن كانت رأت الدموع في عيني الحاجة «**فهيمة**» أم أنها أضغاث أحلام؟

دخلوا إلى «**تها**» ولاعبت سعدة الطفل الصغير ونادته باسمه، تطلع «**حجاج**» إلى «**تها**» التي ابتسمت وأومأت برأسها راضية، نظر «**حجاج**» إلى أمه التي بدت شاردة وكأنها تخترق بنظراتها الظلمة وتودع وجها يهاجر في الغسق.

مع السلامة يا وليدي.

وحدها «**سعدة**» أدركت ما خفي عن «**حجاج**» وزوجته، أن «**يحيى**» قد رحل.

***

مضى ولم يعرج على شيء.

بعدما تعلقت به وعوضها عمن فقدت، بحثت عنه في كل مكان، سألت عنه من تعرف ومن لا تعرف، تجوب الديار حافية القدمين، مكشوفة الرأس، لم يرها أحد بهذه الحالة، ابنها يتبعها بقدمه العاجزة، يلاحقها بلا أمل، أرهقته صعودًا، دون أن تأبه لوجوده، تناديه.

سليمان انت فين يا حبيبي؟

لقد ذهب «**أحمد منتصر**» قالها الشيخ «**الضوي**» في أسى، وربما إلى الأبد، لقد ترك مفاتيح المحال ل«**طه**» لم ينتظر عودته، وترك الإيجار ومفتاح الشقة ل«**شبيب**» السمسار، إنه لن يعود، هناك أمر ما، فقد كان خائفًا يترقب، عباراته لهاث متقطع وكأن عفاريت الدنيا تتبعه، يتعلق بابنه كمن يخشى سرقته، وحقيبته غير محكمة الإغلاق، نصف مفتوحة، وقعت منه صورة، يمسكها بيده، يحتفظ بها الشيخ «**الضوي**» عسى أن يأتي اليوم ويستردها، ولله عاقبة الأمور، جلست «**أم زمزم**» أمام المسجد وهي تموء كقطة في الظلام، تعوي والصوت يعلو شيئًا فشيئًا، صار مكتسح النبرة، جالب

للروع، وصارت تهذي باسم «**سليمان**» الذي ترك فؤادها فارغًا، سال ريقها، وتشنجت عضلاتها، وقبل أن تداهمها موجة صرع مباغتة منسية بحضور «**سليمان**»، صرخت بصوت تتزعزع له الأبدان:

أنا قتلت ابني.

وقعت على الأرض حاول ابنها «**عمر**» والشيخ «**الضوي**» إنقاذها من السقوط، لم ينجحا فقد ارتطمت بدوي عنيف، وسقطت الصورة من يد الشيخ «**الضوي**»، سقطت في الظلام، صورة تحمل وجه «**أحمد منتصر**» وصديقيه «**عبد الله فؤاد**» و«**سليمان خاطر**».

***

ورغم كل شيء أشرقت الشمس.

انفض الجمع بعد إتمام مراسم الدفن، إلا القليل، منهم «**علي السمان**» الذي وقف على قبر صديقه القديم بمشاعر مضطربة، لا يعرف ماذا يشعر، لاحظ أن «**وحيد الزيني**» لم يأتِ، سمع من «**إبراهيم عرفان**» أنه يستعد لافتتاح نادي الفيديو، «**مكوجي الرحمة سابقًا**» في عيد الفطر بعد أيام، سخر «علي» وقتها من «**أمير**» الذي استبدل ما هو أدنى بالذي هو خير، يقف هو الآن يسحب الكرسي المتحرك الذي يجلس عليه «**الحاج أبو ستيت**» وخلفهما أبوه «**زينهم السمان**» وعمه «**إبراهيم عرفان**» بينما عاد «**سيد**» إلى المشرحة، مروا

من مجرى العيون حتى مستشفى «**المقطم**»، ثم عرجوا إلى شارع «**بسيوني**»، «**محمد أبو ستيت**» لا حول له ولا قوة، منحسر في فقاعة من الصمت، مجهولة الأثر إلا من خط كئيب يحتل قسماته، مدشن بين نصفين، نصف يتألم ونصف مشلول.

ودع «**زينهم السمان**» صديقه وانحرف يسارًا إلى شارع «**مهدلي**»، ما زال البيت مائلًا يترصد مصيره، تسنده دعامات مؤقتة من الخشب حتى أمر التنكيس.

عبر الباب الخشبي، غلبته رائحة الرطوبة، قاوم خفقان قلبه، كل شيء أصبح مهجورًا، كل الذكريات دفنت هنا، لم يتبق سوى قطرات تنزف من صنبور المدخل وقلب «**زينهم السمان**» تماسك وغادر «**أرض يعقوب**» متجهًا إلى مكتب التموين في شارع «**على يوسف**» **بالقصر العيني**.

تقدم من زميلته السيدة «**عنايات**»، وأخرج ورقة من فئة العشرين جنيهًا آخر أقساط الجمعية، التي دخلها أخيرًا، ووعدته الأخيرة بمنحه مركزًا متقدمًا على الرغم من ضعف مشاركته، ولكنها تعرف الظروف وزواج ابنته، لم يقل لها إن ابنته سيعقد قرانها خلال أيام، وسترحل مع زوجها، سألته عن مصدر الأموال وكيف تغير حاله من رفض تام للجمعيات إلى قبول ملح، فتش «**بنداري**» عن المصدر هل باع «**زينهم السمان**» ضميره أخيرًا؟

لا يعلم «**بنداري**» أن «**زينهم**» لم يفرط في ضميره وأنه تخير بيع دمه.

لم يعد له سواه، لم يتبق من كيانه سوى كريات حمراء، لقد قرر أن يتنازل عن سائل الحياة مرات ومرات حتى يهلك أو يعود إلى هناك «**أرض يعقوب**».

***

من حالف الصبر ظفر، واليوم هو المنتصر الأوحد، لقد انتهى كل شيء كما أراد، دفن «**أمير أبو ستيت**» كجذع عفن، نحت من أخبث شجرة، وانتهى أمر «**صابرين**» بما يحفظ لهم الاعتبار، ويصون مقامهم بين الجميع، الأمر الوحيد الذي لم يقرره هو الألف جنيه، ظهورها الآن يثير الريبة، ويوقظ ظنون الدخلاء، لا يهم، لكل وقت تدبير.

عبر بوابة المشرحة ولم تغادره بسمته ودندنته، تجاوز «**رمضان**» الحارس الذي وقف له باحترام، ثم أصدر خوارًا مفزعًا في وجوه الناس التي تحيط بالبوابة، تبعه خطوتين حاول أن يخبره أن المعلم «**عبد المنعم الكحكي**» يريده في أقرب وقت، ولكن «**سيد لبط**» مر من بين يديه كفأر مجتهد، الذي دلف إلى الداخل، ألقى السلام على «**د. عطية**» المتجهم الوجه، المثقل بالعمل وحرمان معاقرة السجائر، تجاوزه في بساطة، ارتدى معطفه وقفازه، فتح ثلاجة المجهولين، ثم سحب أحد الأدراج وارتسمت على وجهه ابتسامة ماكرة شامتة وهو يتمتم:

الغربة هي أن تموت بعيدًا، وتُدفن في تراب آخر.

وتطلع إلى الوجه غير الواضح القسمات، الموجود في الدرج، كان يحمل صاحبه اسم:

«أمير أبو ستيت».

***

عاد **«عوض الشاذلي»** إلى شقته بعدما أدى صلاة المغرب، وبدأ يعد طعام الإفطار وهو يتابع **«القنفذ»** الذي يلتهم حبات الذرة في نهم، أدار زر التلفزيون ومذيعة الربط تتلو بيان وزارة الكهرباء والطاقة، ترك طبق السلاطة الذي بدأ في إعداده ورفع مستوى الصوت:

«تعرضت الشبكة القومية للكهرباء بالأمس لهزة عنيفة، نتيجة خطأ في تنفيذ إحدى المناورات على خط الجهد العالي، مما أدى إلى خروج عدد كبير من المحطات المحيطة بالخط، مما عرض البلاد الى الإظلام التام او ما يعرف بظاهرة «البلاك أوت» التي يتم خلالها تحميل قدرات هائلة على إحدى المحطات بأكثر من طاقتها إذ امتدت الانقطاعات الكهربائية إلى المنازل والأماكن الحيوية بالكثير من المناطق في مختلف محافظات الجمهورية.

هذا وقد أعلنت وزارة الداخلية أن ما حدث هو عطل فني، وليس بسبب أي أعمال تخريبية على الإطلاق.

وحرصًا منه على إرضاء مشاهديه فإن التلفزيون المصري سوف يعيد حلقات الأعمال الدرامية التي كان مقررًا عرضها بالأمس».

نتمنى لكم صومًا مقبولًا وإفطارًا شهيًّا.

والآن مع حلقة جديدة من برنامج:

«بدون كلام».

تمت بحمد الله

٢٠١٨/١١/٠٥

إلى أبي في ذكرى ميلاده

١٩٤٦/١١/٠٥